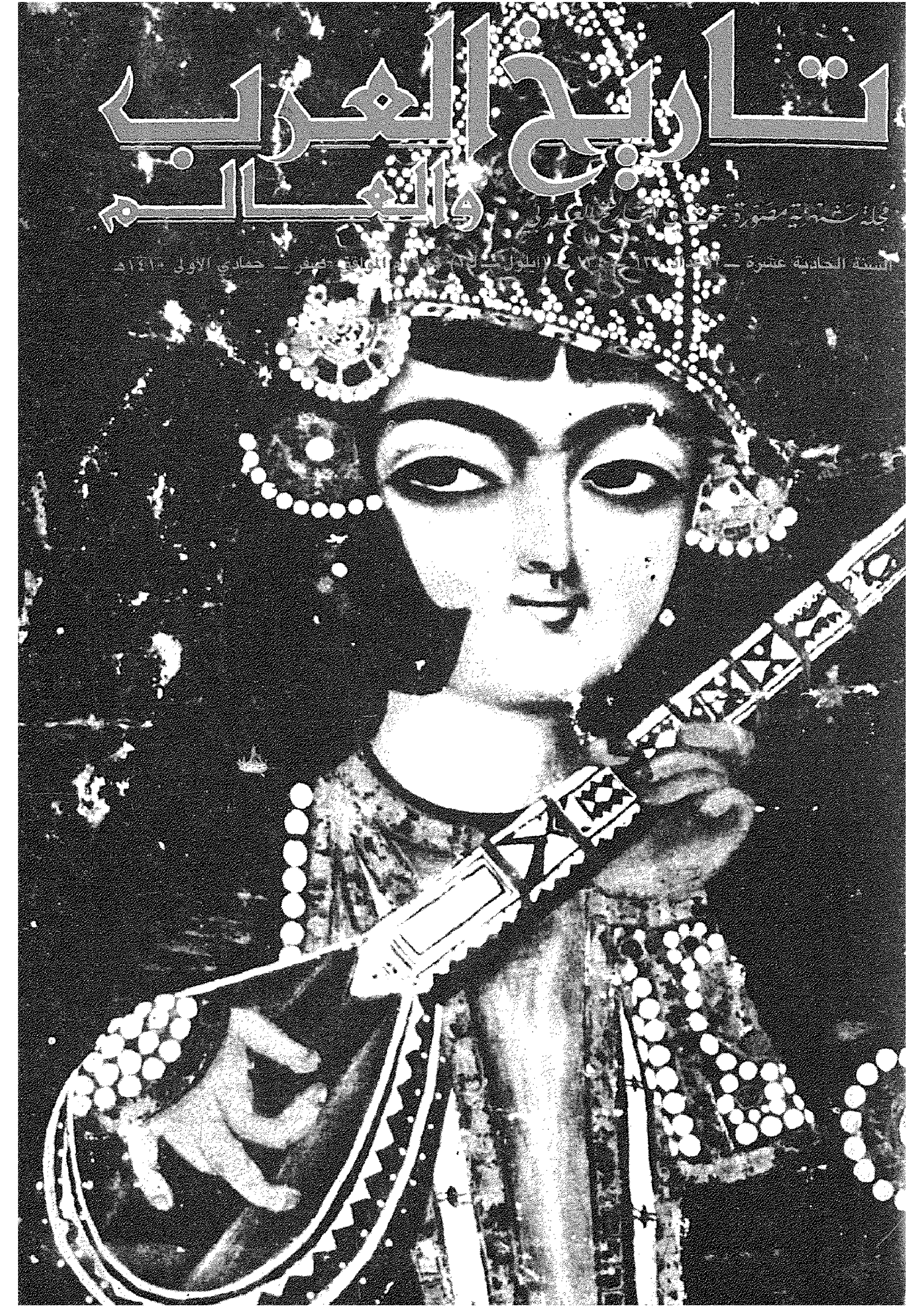
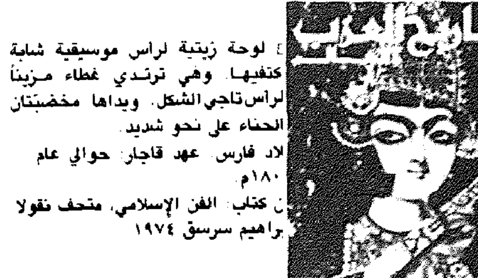

تاريخ العرب
والعالم
السنة الحادية عشرة
صفر ـ جمادى الأولى ١٤١٠هـ

□ طبق عميق المنحنى عريض الحاشية مزخرف بالأزرق، ومخطط بأزرق أشد قتاماً مع أفكار رئيسية صينية مؤسلبة ذات نمط سحابي الشكل. يعود هذا النموذج الرائع من آنية أزنيق القديمة إلى عام ١٥٢٠ ــ ١٥٣٠.



□ لوحة زيتية لراس موسيقية شابة كتفيها. وهي ترتدي غطاء مزيناً لراس تاجي الشكل. ويداها مخضبتان الحناء على نحو شديد.
لاد فارس. عهد قاجار. حوالي عام ١٨٠م.
ن كتاب: الفن الإسلامي، متحف نقولا براهيم سرسق ١٩٧٤

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

الأعداد ١٣١ ـ ١٣٤ (ايلول ـ ك ١) ـ ١٩٨٩

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

العراق : ١ دينار	سوريا : ٣٥ ل.س.
السعودية : ١٠ ريال	تونس : ١,٥ دينار
الأردن : ٨٠٠ فلس	الكويت : ١ دينار
البحرين : ١ دينار	الامارات : ١٠ درهم
مسقط : ١٠٠٠ بيزة	قطر : ١٠ ريال
صنعاء : ١٠ ريال	بريطانيا : ١,٥ جنيه
	ليبيا : ١ دينار
	مصر : ١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٥٠ دولار
- في الوطن العربي للأفراد ٣٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- خارج الوطن العربي للأفراد ٥٠ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٥٠ دولار
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان • بناية ابو هليل

شقة ١١ • شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR

PERIODICAL ILLUSTRATED

MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.

ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783

BEIRUT . LEBANON

Vol. 15 No. (131-134), SEPT.-DEC. 1989

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)

MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:

«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



الجامع العمري الكبير في صيدا

يفوز بجائزة الآغا خان للعمارة الإسلامية

بقلم

سماحة الأستاذ محمد سليم جلال الدين

مفتي صيدا والجنوب

الجامع العمري الكبير، في مدينة صيدا ــ لبنان، أثر هام من آثار المدينة التاريخية التي يعود تاريخ إنشائها إلى أيام الفينيقيين ــ ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد ــ وكما تتعرّض الآثار التاريخية إلى عاديات الأيام والحروب، فقد تعرّض هذا الجامع، في آخر ما تعرض له عبر تاريخه الطويل، إلى التهدم بفعل الاجتياح الإسرائيلي للبنان، ولصيدا في العام ١٩٨٢.

وقد انبرى ابن صيدا، الشيخ رفيق الحريري، لإعادة ترميم وبناء هذا الأثر التاريخي على الطراز الهندسي في العمارة الإسلامية. وكان هذا الإنجاز، من ضمن أحد عشر مشروعاً، حازت على تقدير اللجنة الخاصة بجائزة الآغا خان للعمارة الإسلامية التي تم توزيعها في الخامس عشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر الماضي في القاهرة بقلعة صلاح الدين. وقد مثّل أوقاف صيدا التي ترعى شؤون المساجد فيها، مفتي صيدا والجنوب سماحة الشيخ الأستاذ محمد سليم جلال الدين، الذي أعدّ بالمناسبة، الدراسة التالية عن تاريخ صيدا وآثارها.

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه بمناسبة فوز الجامع العمري الكبير في صيدا بجائزة الآغاخان المعمارية، أرى من الضروري التعريف بمدينة صيدا لارتباط المسجد بها. ويطيب لي أن أشير في المقدمة إلى ما للآثار من أهمية في تاريخ الشعوب والأمم، وأثر كبير في دفع عجلة الحضارات والدول، ودور فاعل في تقدم العمارة وتطور الثقافة، لأنها تساعد على تحديد الشعوب التي تعاقبت، والعصور التي تركت بصماتها عليها، ومن أجل ذلك، كان اهتمام الدول في إظهار معالم آثارها والمحافظة عليها، والبحث عما هو مطمور في الأرض، وترميم ما تصدع منها بفعل العوامل الطبيعية، أو ما أحدثته يد الإنسان، وكان اهتمام المؤسسات العالمية والمؤرخين والباحثين بها لدراسة ما تشتمل عليه من فنون مختلفة، والمراحل التي مرت، والتطور الذي حدث في تلك الحقبة من الزمن، واقتباس نماذج جديدة تضاف إلى ما وصل إليه العلم الحديث من قواعد وأصول تتعلق بالفنون والعمارة، وما ابتكرته الإيديولجيات الحديثة، والتقنية العصرية من نماذج وتصاميم.

وكان ايضاً أحد الدوافع لسمو الآغا خان بإنشاء الجائزة المعروفة باسمه في عام ١٩٧٦ التي أدت إلى إيجاد مجال من الحرية ــ مجال فكري عام ــ يتيح للأشخاص المعنيين التفكير جلياً، لا في تطور العمارة ومسارها فحسب، وإنما أيضاً في التغيرات التي تحدث في منهج النقاش الحاصل في العالم الإسلامي حول العمارة، وفي محور تركيز هذا النقاش على السواء، وبخاصة في حلقات التدارس الدولية والإقليمية خلال كل دورة التي تتناول التطورات في بيئة المسلمين وتبحث اتجاهات وتأثيرات التحولات المعمارية في العالم الإسلامي، وتمكن المهندسين المعماريين والمخططين والعلماء وراسمي السياسات من تضمين الآراء والأفكار في صياغة البرامج الرامية إلى الترويج لفن معماري أشد استجابة للمجتمعات الإسلامية من احتياجات معاصرة.

لمحة عن مدينة صيدا

تقع صيدا على لسان يمتد داخل البحر الأبيض المتوسط، وتبعد عن بيروت عاصمة الجمهورية اللبنانية خمسة وأربعين كيلومتراً. عدد سكانها ثلاثماية ألف نسمة تقريباً يضاف إليهم ثمانون ألف نسمة من النازحين الفلسطينيين المقيمين في مخيمي عين الحلوة والمية ومية. بناها الفينيقيون منذ حوالي ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد وهي الوحيدة التي جاء ذكرها في التوراة وذكرها هوميروس في إلياذته.

عرفت في العالم القديم بتجارتها المزدهرة، وتفوقت بالصناعات والحرف والصباغ الأرجواني، احتلها فرعون مصر ــ رمسيس الثاني سنة ١٢٩٤ قبل الميلاد، واحتلها الآشوريون سنة ٨٩٠ قبل الميلاد.



□ الدكتور المهندس صالح لمعي يتسلم من قرينة الرئيس مبارك جائزة آغا خان للعمارة الإسلامية عن ترميم المسجد، ويبدو في الوسط الأمير كريم آغاخان مؤسس الجائزة.

وكانت في فترة الحكم الفارسي (٥٣١ ــ ٤٨٥ قبل الميلاد) على جانب عظيم من الأهمية فامتد حكمها من المتوسط إلى الفرات، غير أنها في سنة ٣٥٠ قبل الميلاد أحرقت نفسها، وأبت الاستسلام لملك الفرس أرتحشتا.

في العصور الإغريقية والرومانية، كانت صيدا تسمى بصيدون تقتسم مع أنطاكيا وظيفة الاتصال بين الشرق والغرب عن طريق مينائها.

فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٦٣٨م. وفي الحكم الإسلامي خضعت صيدا إلى دمشق (أيام حكم الأمويين) وإلى بغداد (أيام حكم العباسيين) وإلى القاهرة (أيام حكم الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين).

وفي عهد الصليبيين (١١٠٧ ــ ١٢٩١) برزت بعض الشيء لكنها تعرضت مرات عديدة للتدمير بسبب الحروب.

وفي عام ١٥١٦ ميلادية اصبحت جزءاً من الامبراطورية العثمانية، وكانت في القرنين الرابع عشر والثامن عشر في طليعة المدن الساحلية، وقد حسن أوضاعها الأمير فخر الدين المعني الثاني وأعاد بناءها وجعلها عاصمة حكمه، وأقامت علاقات تجارية مع أوروبا وبخاصة مع فلورنسا.

وفي القرن التاسع عشر شهدت صيدا تغييرات وأحداثاً تركت آثاراً في حياتها الاقتصادية والاجتماعية منها:

(أ) الهزة الأرضية عام ١٨٣١م التي دمرتها وأعاد بناءها سليمان باشا.

(ب) تدمير مينائها عام ١٨٤٠م من قبل الأساطيل الإنكليزية والنمساوية.

(ج) شق طريق بيروت ــ دمشق بين عامي ١٨٥٧ ــ ١٨٦٣ ــ وما تركه ذلك من آثار سيئة على اقتصادها.

(د) النمو المتسارع لمدينة بيروت وتحول صيدا إلى مدينة عادية تدور في فلك العاصمة.

وفي فترة الانتداب الفرنسي استمر التراجع العام لمدينة صيدا، فصيدا مفتاح الجنوب

اللبناني وبوابته إلى العالم، قالت عنها بعثة «ارفد» عام ١٩٦١ في تقريرها «صيدا عاصمة اقتصادية وخدمة للجنوب» وأن انعدام نشاط المرفأ قد أدى إلى مضاعفات كثيرة في حياة صيدا الاقتصادية إلى درجة أمكن التأكد أن القضاء على المرفأ كان قضاءً على المدينة.

وفي عهد الاستقلال لم تعط صيدا الإمكانات لتلعب دورها كعاصمة إقليمية، وبقيت خفيفة النمو، وبسبب قيام إسرائيل في فلسطين فقدت صيدا علاقات تجارية قوية كانت قائمة بينها وبين فلسطين.

وتمتاز صيدا بمجتمعها الوطني الذي يضم عائلات من الديانتين الإسلامية والمسيحية ويروي التاريخ أن العائلات المسيحية يرجع أصل كثير منها إلى طرابلس وعكار وبعلبك ومناطق أخرى من الشمال كان الأمير فخر الدين المعني الثاني الملقب بالكبير قد استقدمها من تلك المناطق إلى صيدا للاستفادة من خدمة أفرادها في الحرف الصناعية وفي الزراعة عندما جعل صيدا مركزاً لحكمه. وأن العائلات الشيعية وفد معظمها من جبل عامل، وأن العائلات السنية التي تشكل غالبية السكان يرجع تاريخ معظمها إلى العهد المملوكي في القرن الرابع عشر.

وقد انصهرت هذه العائلات في بوتقة وطنية واحدة يسود أفرادها المحبة والتعاون، وأصبحت عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم واحدة، وظهر عيشهم الوطني المشترك المستمد من أخلاق الأديان السماوية، والمبادىء الإنسانية كأنه فريد من نوعه، بما يمثله من نموذج لمجتمع متكامل متواصل الصلات والعواطف.

اسم صيدا

جاء في كتاب معجم البلدان للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي ما يلي: «صيداء بالفتح ثم السكون والدال المهملة والمد وأهله يقصرونه وما أظنه إلا لفظة أعجمية» إلا أن أصلها في كلام العرب على سبيل الاشتراك. قال أبو منصور: الصيداء حجر أبيض يعمل منه البرام جمع برمة.

وهي مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق جنوب صور بينهما ستة فراسخ، قالوا: سميت بصيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. قال هشام عن أبيه: إنما سميت صيداء التي بالشام بصيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام.

وطول صيداء تسع وخمسون درجة وثلث وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلثان، وهي في الإقليم الرابع، قال الزجاجي: اشتقاقها من الصيد يقال رجل أصيد، وامرأة صيداء وهو مَيْلٌ في العنق من داء، وربما فعل ذلك الرجل كبراً، والنسبة إليها صيداوي وهذه نسبة ما لا ينصرف من الممدود، ولو كان مقصوراً لكان صيدوي.

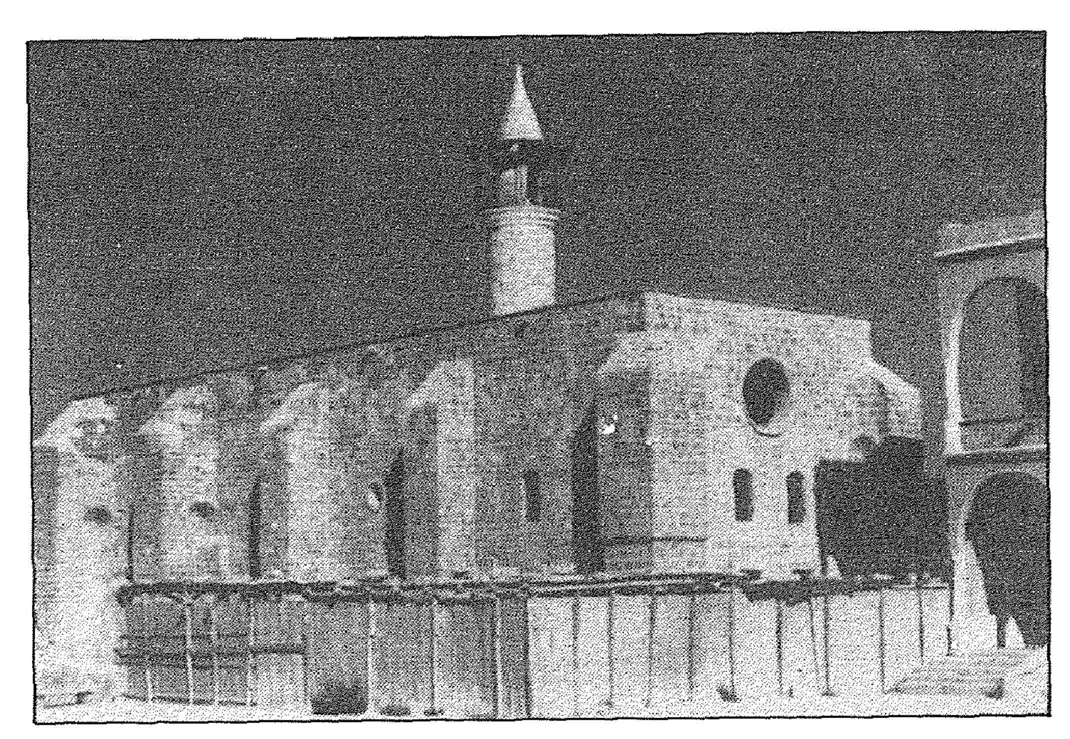
وممن نسب إليها كذلك أبو الحسن محمد ابن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن جميع الغساني الحافظ الصيداني، رحل في طلب الحديث إلى مصر والعراق والجزيرة وفارس وسمع فأكثر، روى عنه ابنه الحسن وأبو سعد الماديني وغيرهما، وجمع لنفسه معجماً لشيوخه ومات سنة ٣٩٤ هجرية.

ويقول آخرون أن اسم صيدون أطلق على المدينة على أساس أن الفينيقيين يسمون السمك صيدون، وجاء في كتاب تاريخ صيدا للشيخ أحمد عارف الزين «صيدا اسمها باللاتينية صيدون وفي العبرانية صيد، ومناسبة هذه التسمية كون السمك فيها كثير، وكون أهلها الأقدمين صيادين، ومنهم من ينسب تسميتها إلى صيدون بكركنعان ويوجد بين بساتينها مقام يخدمه المسلمون واليهود ويدعى النبي صيدون، ولعله كان قديماً هيكلاً لصيدون.

مساجدها

تنقسم مساجدها إلى ثلاثة أقسام:

١ ــ قسم أثري شيد داخل المدينة القديمة عند تقاطع الأزقة والدروب. بحيث تفضي هذه الطرق في معظمها إلى المسجد، وهي: المسجد العمري الكبير ــ مسجد قطيش ــ مسجد الكيخيا «كتخدا» ــ مسجد بطاح ــ مسجد باب السراي ــ مسجد البحر ــ مسجد البراني ــ مسجد أبي نخلة ــ مسجد القلعة البحرية.



□ الجائزة الأولى عن ترميم الجامع العمري الكبير في صيدا.

٢ ــ وقسم بني حديثاً يدار بواسطة دائرة الأوقاف الإسلامية في صيدا، وهي: جامع المجذوب ويعرف باسم جامع البوابة ــ جامع الصديق ــ جامع العثمان ــ جامع الموصللي.

٣ ــ وقسم يدار بواسطة متولين غير مرتبطين بدائرة الأوقاف الإسلامية بصيدا وهي: جامع الزعتري ــ جامع الإمام علي محلة الفيلات ــ جامع الإمام علي محلة المدينةالصناعية ــ جامع الإمام الحسين ــ جامع الدكتور محمد البزري الكائن في دار رعاية اليتيم بصيدا ــ وجامع سيد الشهداء حمزة قيد الإنجاز.

تفصيل عن المسجد العمري الكبير

يقع هذا المسجد داخل مدينة صيدا القديمة على تلة مرتفعة تشرف على البحر من جهة الغرب ويتألف من أربعة أقسام:

١ ــ الحرم، وله ثلاثة أبواب من الخشب تفضي إلى البهو، وينتصب وسط الحرم منبر من الرخام، هو آية في الجمال، وإلى يمينه محراب نقش فوقه اسم الجلالة (الله) وإلى يساره محراب نقش فوقه الآية الكريمة «كلما دخل عليها زكريا المحراب».

ويبلغ طول الحرم ثلاثين متراً وعرضه ثمانية أمتار وعلوه عشرة أمتار تقريباً. وتعلوه قبة زين داخلها بست لوحات من الفسيفساء.

٢ ــ بهو المسجد وتبلغ مساحته حوالي ضعفي مساحة الحرم وتعلوه ثلاث قباب (تبدو عليها مظاهر العمارة العثمانية) إضافة إلى المئذنة ذات الجسم الأوسط المستدير الذي ينتهي بشرفة دائرية محمولة على جسم سفلي مربع ونهاية علويه بشكل مخروط. ويظهر في وسط البهو محراب صغير.

٣ ــ صحن المسجد وتبلغ مساحته مساحة البهو تقريباً.

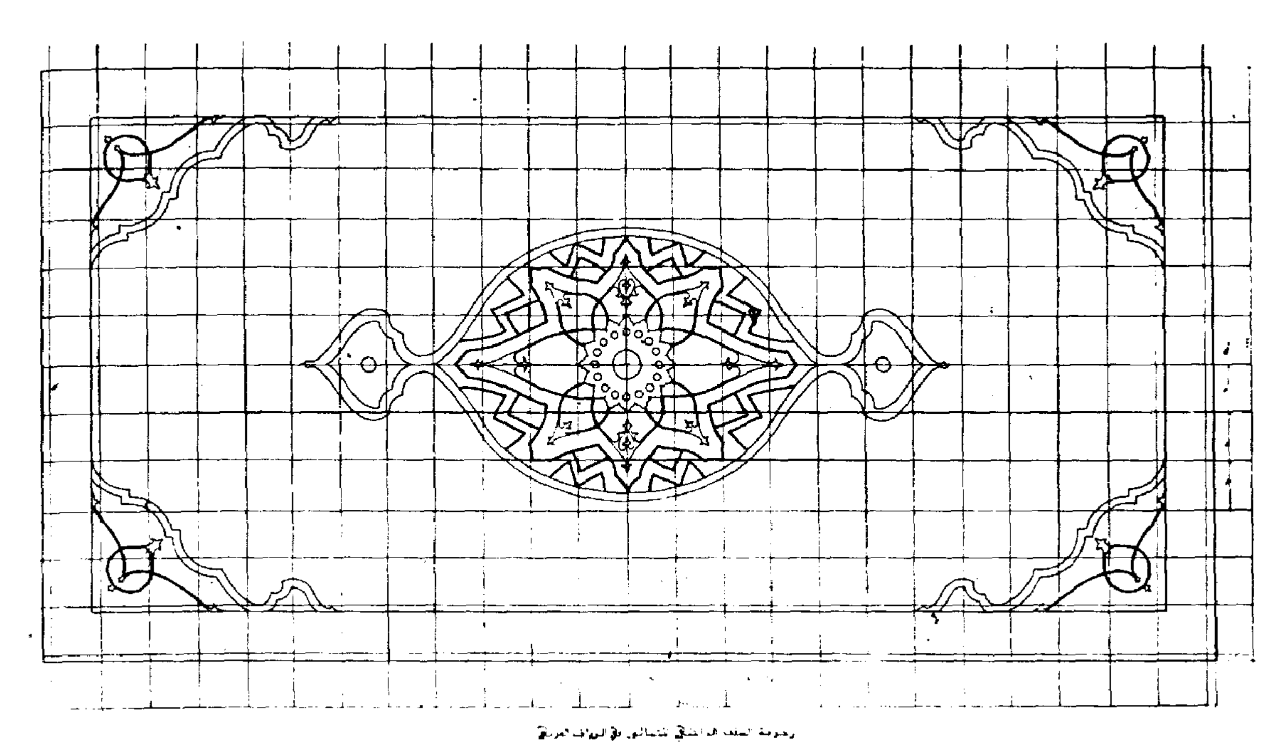
للمسجد مدخلان: المدخل الشمالي وهو المدخل الأساسي للجامع ويفضي مباشرة إلى صحن الجامع.

المدخل الشرقي مستحدث.

الإصلاحات والتوسعات

تعرض المسجد إلى إصلاحات وتوسعات كثيرة نأتي على أهمها باختصار:

(أ) في عهد السلطان عبد الحميد عام ١٢٦٥ هجرية أجرى بعض الترميمات والتوسعات على بهو الجامع.



□ زخرفة السقف الداخلي للصالون في الرواق الغربـي.

(ب) في عهـد السلطان عبـد العـزيـز جـرت إصلاحات قامت بها خوشيار هانم والدة حديوي اسماعيل باشا في عام ١٢٧٨هـ ١٨٧٠م.
(ج) في عهد السلطان عبد الحميد خان عام ١٣١٢هـ ١٨٩٣م أعيد بناء القسم الغربـي من المسجد بعد أن طغـى البحر عليه.
(د) عام ١٩٧٥ قامت دائرة الأوقاف في صيدا بـالتعاون مـع وزارة السيـاحة بقشر الورقـة الترابية من الحجر الرملي وأزالت بركة الوضوء وغرفة الاستقبال.

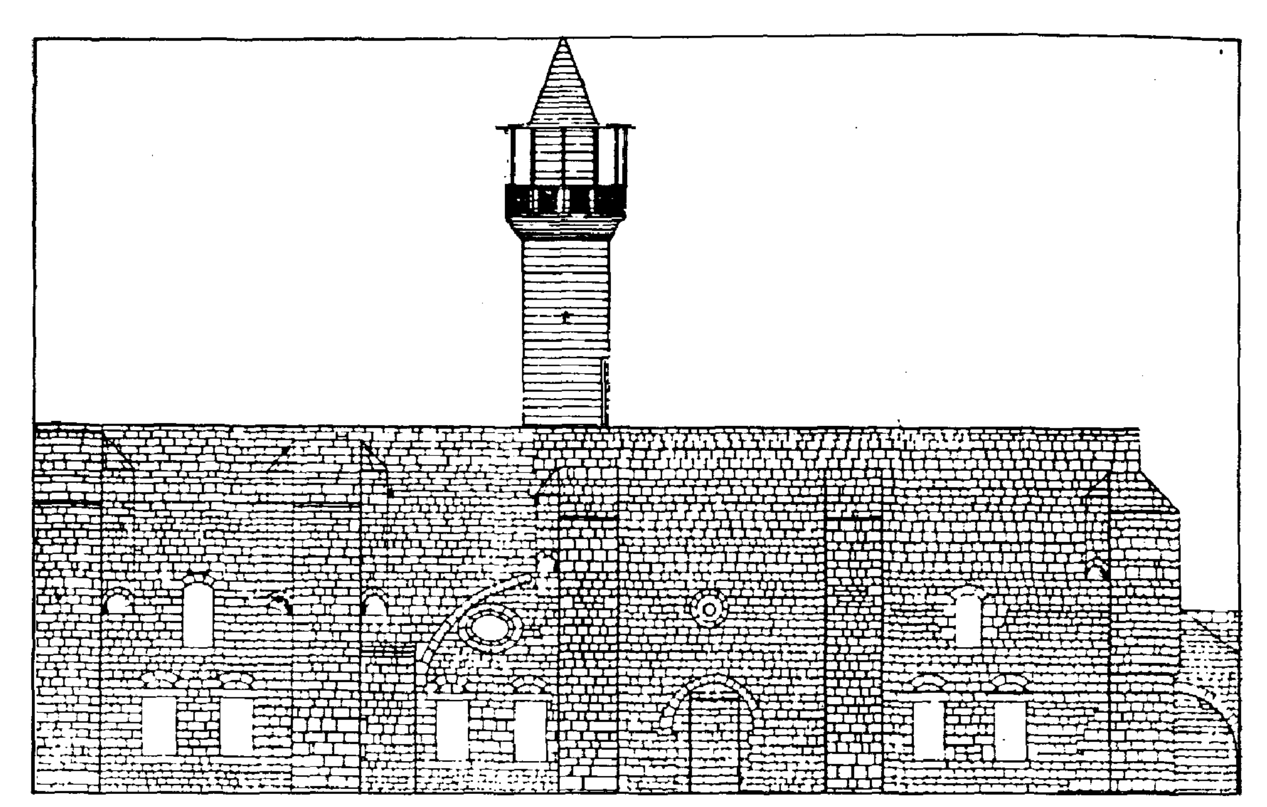
وفي حزيران ١٩٨٢ تهدم قسم من الجامـع من جراء القصف الاسرائيلي أثناء الاجتياح. وفي ١٩٨٣/٣/٣ وجه المحسن الكبير الشيـخ رفيق الحريري كتاباً إلى المديرية العامة للآثار أعلن فيها عن رغبته بإعادة ترميم الجامـع العمري الكبير على نفقته الخاصة وكهبة غير مشروطة.

وفي ١٩٨٣/٥/٢٣ بدأت ورشة العمل بعد أن اتفقت شركة أوجيه لبنان:
ـــ مـع المهندس الخبير الدكتور صالـح لمعي مصطفى لإعداد الدراسـات المطلوبـة للترميم وإعادة البناء.
ـــ مـع المهندس الصيداوي عبد الواحد شهاب للقيام بالتنفيذ.

الأصول التاريخية لمبنى المسجد

اختلفت المصادر التاريخية حول أصل بناء المسجد العمري الكبير وتاريخه، فمنهم من قال أنه كان معبداً لعبادة الشمس بناه بكر كنعان، ومنهم من قال أنه كان كنيسة، وآخرون قالوا أنه كان حصناً عسكرياً بناه فرسان الاسبارتية عام ١٢٦٠ ميـلادية. والراجـح وكمـا سمعته من والدي أن الجامـع العمري الكبير كان معبداً لعبادة الشمس من عهد الكنعانيين وعندما دخل الإسلام إلى صيدا أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حوله إلى مسجد.

وجـاء في مشروع إعـادة تـرميم الجـامـع العمري الكبير، صفحة ٤، عندما دخل الإسلام إلى مدينة صيدا حول المعبد الذي كان كنيسة إلى مسجد بعد أن أجريت عليه بعض التغييرات المناسبة ليكون المسجد الجامـع في مدينة صيدا، وعندما دخل الصليبيون مدينة صيدا، اتخذوا من هذا المسجد حصناً لهم. وأقاموا فيه غرفة



□ الواجهة الجنوبية للجامع.

للإقامة، وصالة للأكل وكنيسة صغيرة، وإسطبلاً للخيول وأماكن للخدمة، بعد أن أجْروا بعض التوسيعات وزادوا على بنائه وأجروا بعض التغييرات الداخلية لإقامة الكنيسة، ولبناء غرف للإقامة، وقد عاد البناء مسجداً في أواخر العهد الأيوبي بعد أن حرروا صيدا من الصليبيين.

حماماتها الأثرية

حمام الأمير ويعرف بحمام المير ويعود إنشاؤه إلى عهد الأمير فخر الدين الثاني المعني الكبير ــ أتت على معظم بنائه القذائف الاسرائيلية عام ١٩٨٢ اجتياح لبنان ــ حمام السوق، حول إلى مخبز ــ حمام الشيخ ــ حمام الورد ــ الحمام الجديد.

الأماكن الأثرية

١ ــ القلعة البحرية ــ تذكر المصادر التاريخية التي تعود إلى العهد الصليبي أن قلعة البحر في صيدا أسسها جماعة من الصليبيين الفرنجة والإنكليز والإسبان، مع أن البرج الضخم في هذه القلعة هو برج إسلامي، ويوجد أيضاً فيها مسجد كان له إمام يؤدي فيه الصلوات الخمس بتوجيه من دائرة الأوقاف الإسلامية في زمن العثمانيين.

٢ ــ قلعة المعز «القلعة البرية»

كانت تعرف هذه القلعة لدى أهالي صيدا باسم قلعة المعز نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمي الذي حصن القلعة ورممها.

لكن بعض المصادر تعيد بناءها إلى لويس التاسع أثناء فترة إقامته بعكا وصيدا فيما بين ١٣ أيار ١٢٥٠ إلى ٢٤ نيسان ١٢٥٤.

٣ ــ خان الفرنج ــ بناه الأمير فخر الدين وهو بناء من الحجر تبلغ مساحته حوالي خمسة آلاف متر مربع، يتوسطه صحن مربع الشكل أيضاً، في وسطه حوض تحيط به الأشجار، ويدور حول الصحن أربع محنيات كل منها يتألف من سبعة عقود منكسرة مطولة مكونة بوائك تطل على غرف وتستند ما بين العقود ركائز مستطيلة الشكل تنتهي من أعلى بمسطحات مائلة.

صيدا الحديثة

كان السكان في النصف الأول من القرن العشرين يقيمون داخل المدينة القديمة المسورة بسور له ثلاث بوابات، إلا قليلاً منهم كان يقيم

خارجها في أحياء صغيرة.

وفي بداية النصف الثاني من القرن العشرين ومع ازدياد عدد السكان الذي أصبح ثلاثماية ألف نسمة ووجود ثمانين ألفاً من الفلسطينيين في المخيمات، أخذت المدينة تتوسع شرقاً وجنوباً وبدأ بعض السكان يقيم في المناطق الواقعة شرقي المدينة، وبخاصة في الهلالية والبرامية وعبرا ومجدليون وكلها تلال تشرف على صيدا القديمة والبحر.

أما من الجهة الجنوبية الشرقية فقامت مجموعات سكنية يغلب عليها الطابع العمالي والشعبي منها: مدينة العمال والتعمير — الفيلات — السيروبية الملاصقة والمطلة على مخيم عين الحلوة — المية ومية وجوارها.

صيدا في الاجتياح الاسرائيلي

لقد أحدث الاجتياح الإسرائيلي في مدينة صيدا عام ١٩٨٢ أضراراً فادحة في الأبنية والمؤسسات إلى جانب الخسائر الجسيمة في الأرواح والممتلكات والاضطراب في حياة السكان الاجتماعية والاقتصادية والحرفية.

فبادر خادم الحرمين الشريفين إلى ترميم المؤسسات والدوائر الرسمية والمدارس وسارع رجل الأعمال ابن صيدا الشيخ رفيق الحريري إلى نجدة مدينته وإخوانه.

وكان من جراء الاجتياح الاسرائيلي هدم قسم من المسجد العمري الكبير، الأثر الإسلامي الخالد الذي رمم وأعيد بناؤه.

وقد أثر احتلال القوات الإسرائيلية على حياة السكان وأصيبت الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالشلل من جراء القيود التي فرضها الاحتلال والحواجز التعسفية التي أقامها، والمعابر المؤدية إلى العاصمة بيروت والجبل التي سدها وأقفلها والاعتقالات التي طالت الشباب والرجال والنساء وأخضعتهم إلى التعذيب والتنكيل وتركت عائلاتهم وذويهم بدون معيل. ولكن تلك الممارسات والأساليب التعسفية ظلت دون جدوى، بل أيقظت في الأهالي روح الصمود والتصدي والمقاومة.

صيدا بعد خروج المحتل الإسرائيلي

بعد خروج القوات الإسرائيلية من صيدا وجوارها عادت الحياة إلى المدينة بجميع أشكالها، وأخلد الناس إلى أعمالهم ومصالحهم، وقامت ورشة البناء بشكل لم يسبق له مثيل، وتحولت بلدية صيدا إلى ورشة عمل، وشق طرقات، وتوسيع شوارع وأحدثت البولفار الشرقي.

لقد حققت صيدا بعد انسحاب القوات الإسرائيلية منها الكثير من مشاريع البناء وشق الطرقات، وتوسيع الشوارع وإنجاز البولفار الشرقي والكورنيش، وإحداث الساحات في مناطق متعددة وعادت إليها الحياة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية والحرفية رغم الأحداث الأليمة، والمعارك المتواصلة، وإنه ليسعدها أن تدعوكم لزيارتها لتتعرفوا على شعبها الوديع، والمناضل الصابر، والمقاوم العنيد، وتتحققوا من عيشه الوطني المشترك وتشاهدوا ما تضمه من آثار متنوعة، وما خصها الله تعالى من طبيعة جميلة ومناظر خلابة. ●

☐ ربَّ همة أحيت أمة.

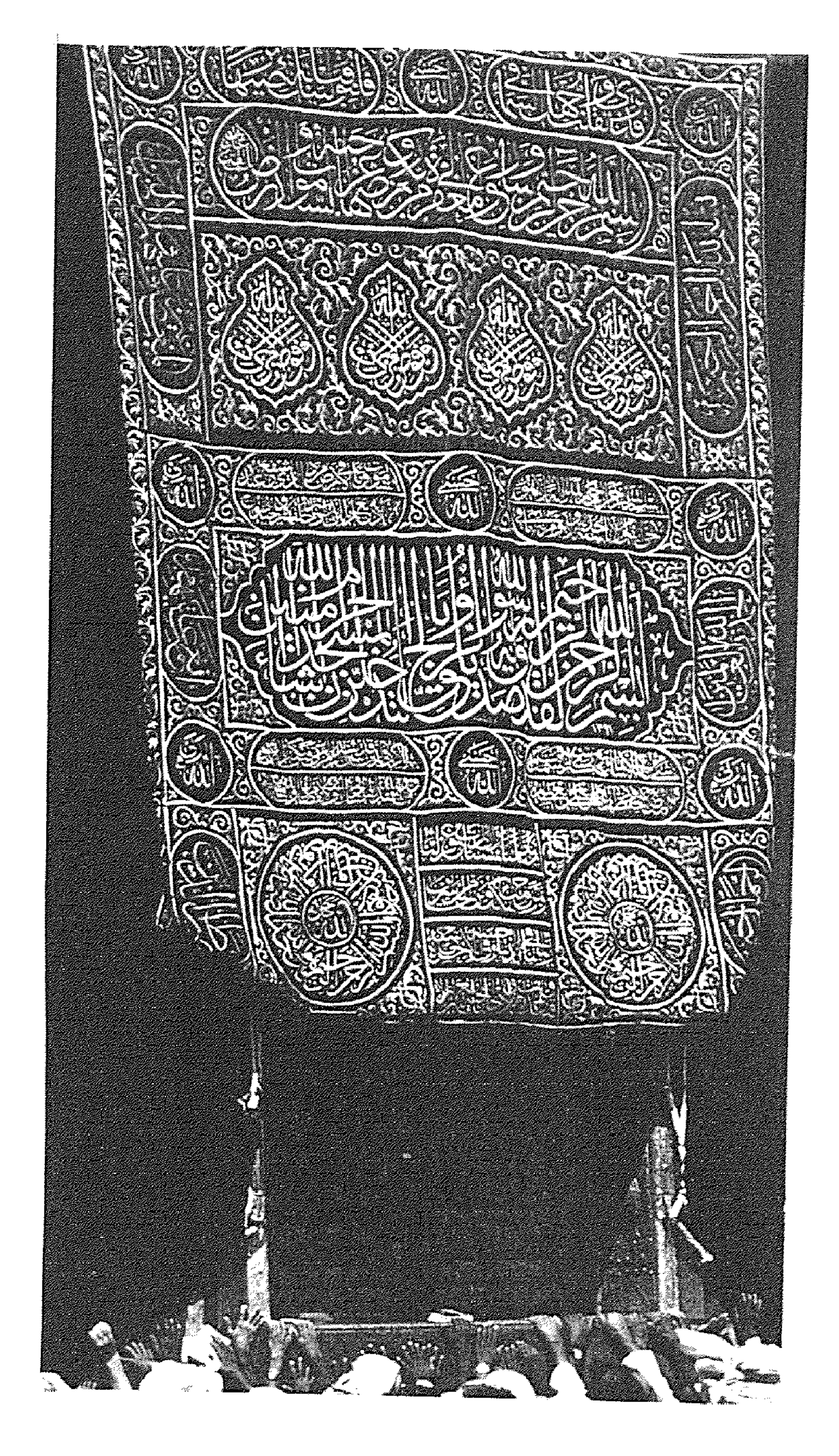
«الإمام علي»

☐ كونوا وطنيين وعلموا أبناءكم الوطنية، ولا تستمعوا قول الذين يقولون اشتغلوا بدروسكم فقط ولا تشتغلوا بالوطنية، بل اجعلوا الوطنية أساس أعمالكم واقبلوا على علومكم فحصلوها فإننا محتاجون العلم والعلماء، ولكن لا خير في العالم إذا لم يكن وطنياً.

«سعد زغلول»

طريق الحج في عصر المماليك

بقلم
د. نقولا زيادة



تاريخ العرب والعالم — ١١

بين أواسط القرن السابع (الثالث عشر) وأوائل القرن العاشر (السادس عشر) كان سلطان المماليك يشمل مصر وديار الشام والحجاز وبرقة (شرق ليبيا) وكانت القاهرة عاصمة هذه الدولة الواسعة. ومعنى امتداد هذه الدولة واتساعها أنها كانت تسيطر على الطرق الرئيسية التي تصل الشرق بالغرب. ويجب أن نذكر أنفسنا بأن الطرق التي كان الحجاج يتبعونها في انتقالهم إلى الديار المقدسة هي أربع: أولاها الطريق البحرية التي كانت تحمل الحجاج بحراً من الهند وما إليها عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر. وثانيتها طريق الحج العراقي الإيراني وما إلى ذلك وكانوا ينتقلون عبر صحراء النفوذ. وثالثتها طريق سيناء وهذه كانت للحاج المصري والمغربي ورابعتها طريق الشام فالحجاز وكانت هذه سبيل الحاج الشامي والبلاد الواقعة إلى الشمال.

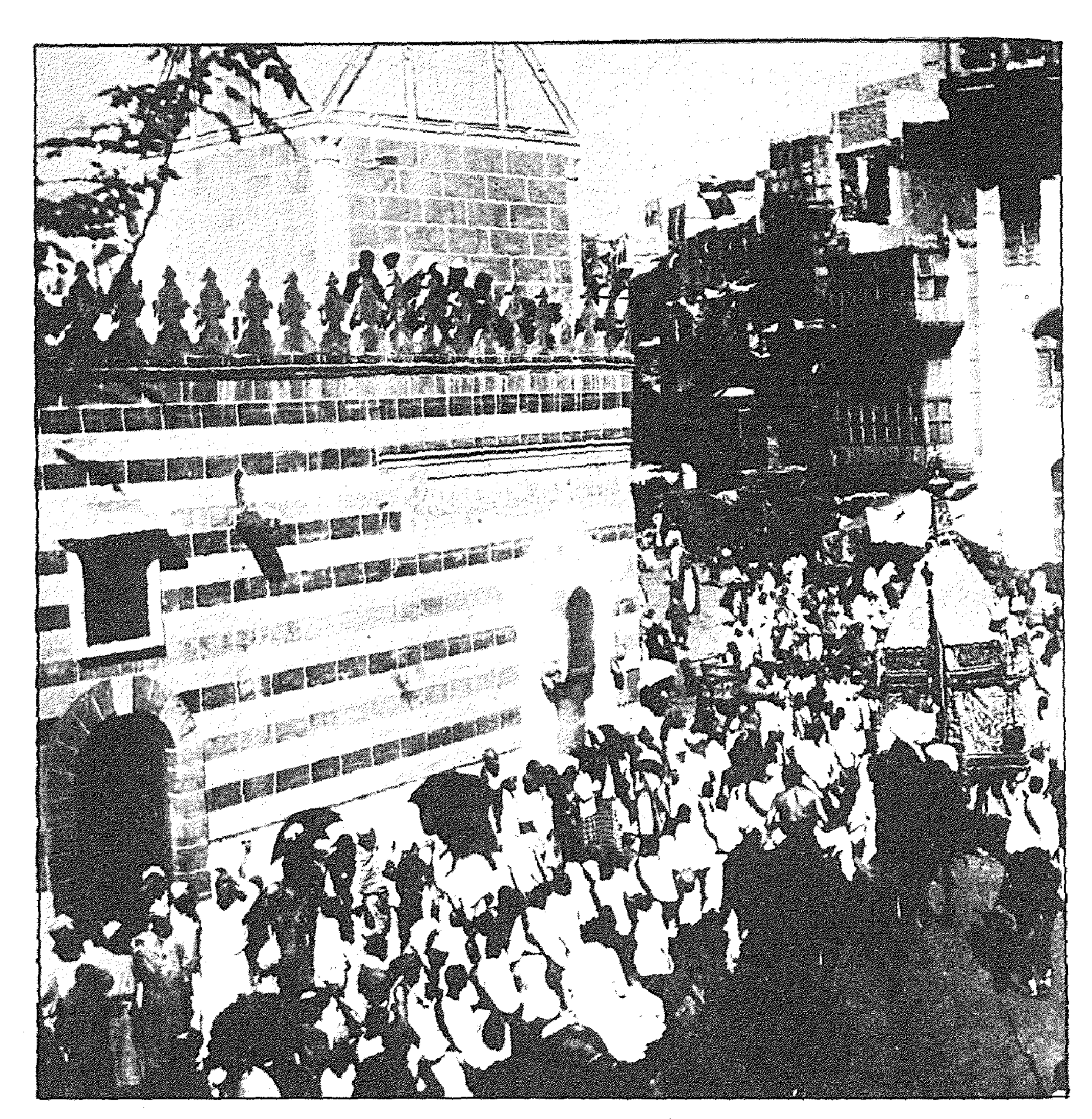
وفي أيام المماليك انتظمت مراسم الحج وعاداته الاجتماعية أكثر من ذي قبل. وكان سلاطين المماليك يحرصون الحرص كله على مراعاة المراسم والرسوم إلى أقصى الدرجات. ومن حسن الحظ أن حفظت لنا الكتب المعاصرة للماليك والرحالون الذين قاموا بفريضة الحج الكثير من هذه الأمور، بحيث أصبح بإمكاننا أن نحصل على صورة تكاد تكون وافية لما كان يتم في ذلك الوقت.

ونحن إذا تذكرنا أن القاهرة كانت عاصمة السلطنة المملوكية، توجب علينا أن نبدأ بمرافقة هذه الرسوم من هناك. وقد أورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى تفصيل دوران المحمل في القاهرة. وقدم لذلك بقوله إن كسوة الكعبة المشرفة كانت في الزمن الأول مختصة بالخلفاء. وكان تجهيزها يهتم به خلفاء بني العباس من بغداد في كل سنة. ولكن بعد زوال الخلافة العباسية أصبح تجهيز الكسوة يقع على عاتق ملوك الديار المصرية. وقد وقع استبداد بعض ملوك اليمن فجهزوا الكسوة في بعض السنين. إلا أن سلاطين المماليك هم الذين كانوا يهيئونها. وكانت الكسوة تنسج بالقاهرة بمشهد الحسين من الحرير الأسود مطرّزة بكتابة بيضاء في نفس النسج فيها «إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للّذي ببكّة» (الآية). ثم تبدل ذلك فأصبحت الكتابة صفراء مشعرة بالذهب. وكان للكسوة ناظر مخصوص، كما كانت لها أوقاف خاصة بها في أرض يسوس من ضواحي القاهرة يصرف منها على تحضيرها.

وينتقل القلقشندي بعد ذلك إلى التحدث عن دوران المحمل فيخبرنا أنه كان له دورتان. الأولى في رجب، بعد النصف منه والثانية في شوال. ففي الدورة الأولى كان يحمل وينادى لأصحاب الحوانيت التي في طريق دورانه بتزيين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام. ويكون الدوران إما في يوم الاثنين أو في يوم الخميس. ويحمل المحمل على جمل وهو في هيئة لطيفة من خركاه وعليه غشاء من حرير أطلس أصفر، وبأعلاه قبة من فضة مطلية. ويبيت في ليلة دورانه داخل باب النصر بالقرب من جامع الحاكم. ويحمل بعد الصبح على الجمل المذكور، ويسير إلى تحت القلعة. فيركب أمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم. ويركب جماعة من المماليك السلطانية الرماحة ملبسين المصفات الحديد المغشاة بالحرير الملون. وكانوا يلعبون تحت القلعة كما في حالة الحرب. ثم يذهب المحمل إلى الفسطاط فيمر في وسطه، ثم يعود إلى تحت القلعة، ثم يحمل إلى جامع الحاكم ويوضع هناك إلى شوال.

وقد أخرج الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور إن دوران المحمل الرجبي، وهو من الرسوم التي وضعها الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٧٥ (١٢٧٤)، كان الغرض منه «هو إعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن، وأن من شاء الحج فلا يتأخر ولا يتخوف من الطريق».

وكان الاحتفال بدوران المحمل، على ما ذكر أبو المحاسن، يخرج الناس إليه من كل مكان للفرجة، ويتغالون في اكتراء البيوت والحوانيت



□ وصول «المحمل» إلى مكة المكرمة عام ١٩١٠.

مغالاة كبيرة. وأضاف المقريزي أن الناس ربما قضوا ليلتهم في الطريق حتى النساء كن «يبتن في الحوانيت حتى ينظرن المحمل من الغد».

وقد شهد ابن بطوطة الرحالة المغربي الكبير، دوران المحمل في القاهرة فمما جاء في وصفه قوله:

وهو... يوم مشهود... يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب... ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة... ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل... والحداة يحدون أمامهم، ويكون ذلك في رجب. فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الأشواق وتتحرك البواعث ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده.

أما الدورة الثانية فكانت في شوال. فإذا احتفل الناس بعيد الفطر، وانصرفوا إلى شؤونهم، كان يحتفل بدوران المحمل وسفره. فيدور المحمل في احتفال كبير كالاحتفال في الدورة

الرجبية. ويكون على رأس المحمل أمير الحج وباشاوات المحمل ويتبعهم الحاج مع أمتعته ودوابه. وإذا تذكرنا أن القاهرة كانت النقطة التي يلتقي عندها الحاج المغربي للانضمام إلى الحج المصري أمكننا أن نتصور الأعداد الكبيرة التي كانت تشترك في ذلك الاحتفال.

فإذا انتهى المحمل إلى القلعة، على ما ذكر سابقاً، استمر من هناك إلى الريدانية للسفر إلى الحجاز. والطريق كانت تجتاز سيناء إلى شمال الحجاز.

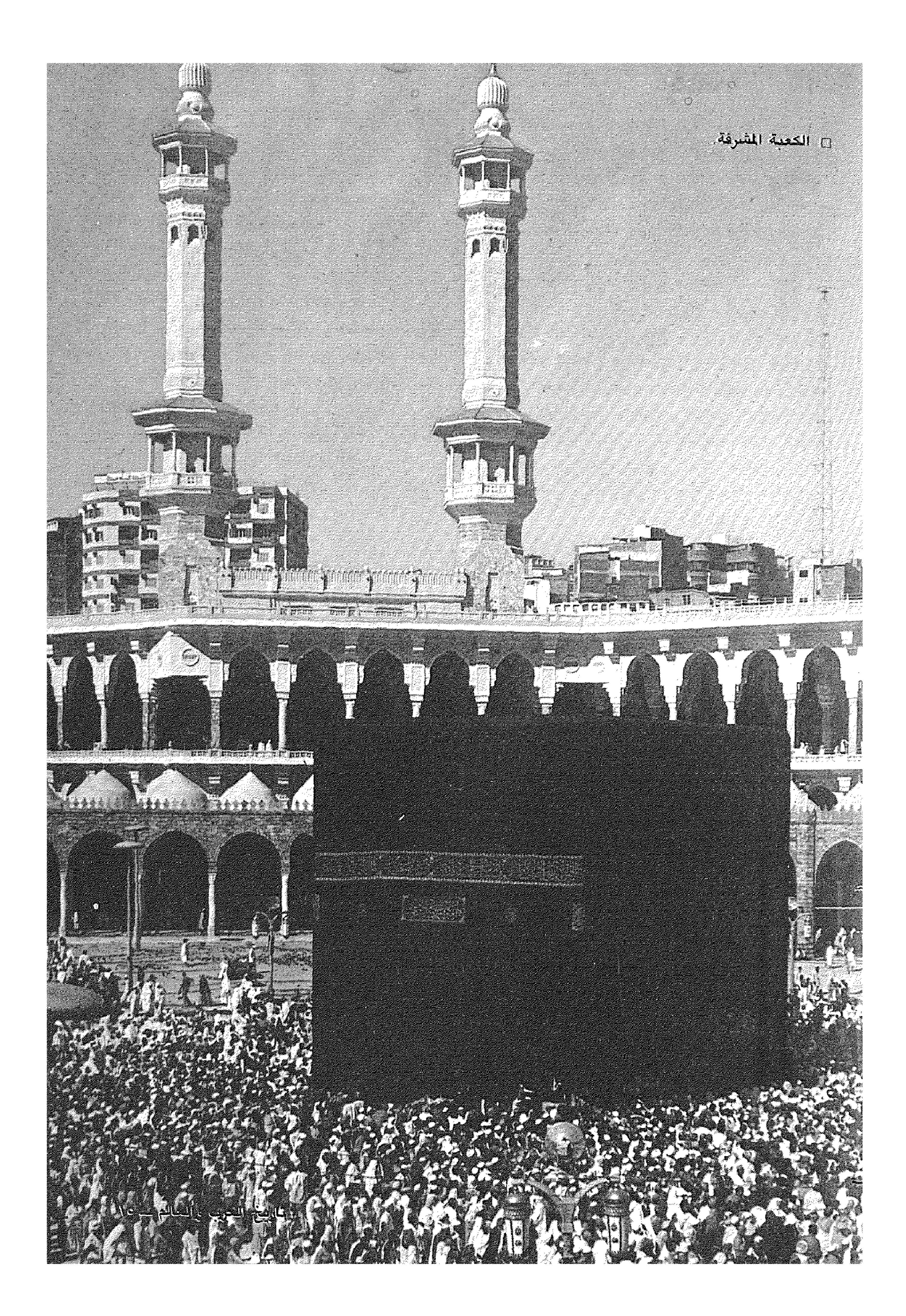
وكان الحاج الشامي يخرج من دمشق متجهاً إلى الحجاز. وكان على نائب السلطنة، أي الوالي، في دمشق أن يؤمن الطريق للحجاج إلى شمال الحجاز تقريباً. وقد رافق ابن بطوطة الحاج الشامي وعدد المحطات في الطريق من دمشق إلى تبوك، كما أنه ذكر الكثير من اختباره وتجاربه. وها نحن أولاً ننقل وصفه لذلك لما فيه من فائدة. قال:

ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازي إلى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة. فأخذت في الحركة معهم، وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الأمراء، وقاضيه شرف الدين الذرعي الحوراني، وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري، وكان سفري مع طائفة من العرب تدعى العجارمة، أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الأمراء، وارتحلنا من الكسوة إلى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زرعة، وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها، ثم ارتحلنا إلى مدينة بصرى وهي صغيرة، ومن عادة الركب أن يقيم بها أربعاً ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه... ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلون إلى بركة زيزة (زيزا) ويقيمون عليها يوماً ثم يرحلون إلى اللجون وبها الماء الجاري، ثم يرحلون إلى حصن الكرك، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها، ويسمى بحصن الغراب، والوادي يطيف به من جميع جهاته، وله باب واحد قد نحت المدخل إليه في الحجر الصلد، ومدخل دهليزه كذلك، وبهذا الحصن يتحصن الملوك وإليه يلجأون في النوائب. وأقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية وتجهزوا لدخول البرية. ثم ارتحلنا إلى معان، وهو آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها: داخلها مفقود وخارجها مولود، وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهي حسيان لا عمارة بها. ثم إلى وادي بلدح ولا ماء به. ثم إلى تبوك، وهو الموضع الذي غزاه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء، فلما نزلها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتوضأ منها جادت بالماء المعين، ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ومن عادة حجاج الشام، إذا وصلوا منزل تبوك أخذوا أسلحتهم، وجردوا سيوفهم، وحملوا على المنزل، وضربوا النخيل بسيوفهم، ويقولون: هكذا دخلها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم، ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال، واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك.

كان الحجاج يجتمعون على مقربة من حي الميدان (جنوبي دمشق) للخروج إلى الحج. وإلى هناك كان يصل الحاج عائداً من الحجاز. وقد زار دو لا بروكييه دمشق في القرن التاسع (الخامس عشر) وشاهد عودة الحاج الشامي فكتب في وصفه ما ترجمته:

وفي اليوم التالي لوصولي شاهدت قافلة الحجاج عائدة من مكة. وقد قيل أنها كانت تتألف من ثلاثة آلاف من الإبل. وفي الواقع استغرق دخول الحاج المدينة يومين وليلتين. وقد كانت هذه الحادثة، على مألوف القوم، يوماً بالغاً في الحفاوة. وقد خرج والي دمشق، يحف به مقدمو المدينة، لاستقبال الحجيج إجلالاً للقرآن الذي كانوا يحملونه... وكان ملفوفاً بغلاف من الحرير، عليه كتابة عربية، وكان الجمل الذي يحمله مجللاً بالحرير. وكان يتقدم الجمل أربعة من حملة المزمار والطبول والدربكات الكثيرة وكلها تدق. وكان يحيط بالجمل نحو ثلاثين رجلاً يتنكب بعضهم الأقواس، ويشهر آخرون السيوف، ويحمل غيرهم البنادق ويطلقون النيران بين الفينة والفينة. وكان يتلو الجمل ثمانية رجال



□ الكعبة المشرفة.

أجـلاء، يعلون إبلاً سـريعة العـدو، وخيولهم المجنوبة مجللة بالقماش المزركش تعلوها سروج مزخرفة، على عادة القوم هناك. وقد تلا ذلك هودج مغطى بالقماش الجميل يحمله جملان، وفيه سيدة هي قريبة للسلطان. وقد كان ثمة عـدد كبير من هـذه الدواب المجللة بـالقصب المذهب. أما الحجيـج فقد كانوا عرباً وأتراكاً وبرابرة ومغولاً وفرساً وغير ذلك من المسلمين.

ولا شك في أن تقديم كسوة الكعبة الشريفة كان، بالنسبة إلى الحاج المصري، من أهم ما يتم في مكة المكرمة. وقد وصف ابن بـطوطة ذلك بقوله:

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم، فوضعت في سطحه، فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في أسبالها على الكعبة الشريفة، وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبـطنة بالكتاب وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً. الآية، وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن، وعليها نور لائـح مشرق من سوادها.

ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدي الناس. والملك الناصر هـو الذي يتولى كسـوة الكعبة الكريمة، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمـع والزيت في كل سنة.

وفي هذه الأيام تفتـح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مـع الركب العراقي، وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام، فيكثرون فيها الصدقـات على المجـاورين وغيرهم ولقـد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليـلاً، فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثيـاب، وكذلك يعـطون للمشاهـدين الكعبـة الشريفة، وربما وجدوا إنساناً نائماً فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق. ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيراً وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة.

●



الشرطة في الصدر الأول من الإسلام

● كانت الشرطة خادمة للقضاء في الصدر الأول، لأنها تساعد مساعدة لها شأن على إثبات الذنب على فاعله، وتساعد الحكومة أيضاً على تنفيذ الحكم، فصاحب الشرطة يقيم الحدود على الزنادقة، وشاربـي الخمر، ويعذر ويؤدب من لا ينتهي عن الجرائم، وينظر في أحكام العامة وأهل السوق، وعليه في زمننا هذا تقرير الأمن، وحفظ النظام، والرقابة على ما يحدث في الأسواق ومجال الاجتماعات من الخلل والتعدي، وقطـع دابر القمار والمفاسد، ومنـع اعتداء الناس بعضهم على بعض صغاراً أو كباراً.

كلمة لبعض الحكماء

● الرجل الذي يكون غرضه من الحياة سعادة نفسه هو رجل سوء والرجل الذي يكون غرضه من الحياة حسن رأي الناس فيه هو رجل ضعيف والرجل الذي يجعل غرضه من الحياة مساعدة إخوانه من بني الإنسان وإسعادهم هو رجل خير. والرجل الذي يجعل غرضه من الأعمال لوجه الله هو الرجل العظيم.



أكثرُ الناس يقرأها بالفتــح

● قـرأ الخليفة المتـوكل يـوماً، وبحضـرتـه وزيـره الفتـح بن خاقان: (ومـا يُشْعِرُكُم أَنَّهـا إذا جاءت). فقال له الفتـح:

يا سيدي، (إنّها إذا جاءت) بالكسر.

ووقعت المشاجرة، فتراهنا على عشرة آلاف دينار، وتحاكما إلى يزيد بن محمد المهلّبي الشاعـر ــ وكان صديقاً للمبرّد[1] ــ فلما وقف يزيد على ذلك خاف أن يَسْقُطَ احدهما، فقال:

والله ما أعرف الفرق بينهما. وما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم.

فقال المتوكل:

فليس ها هنا من يُسـأل عن هذا؟

قال:

مـا أعرف أحـداً يتقدم فتى بالبصرة يُعرف بالمبرّد.

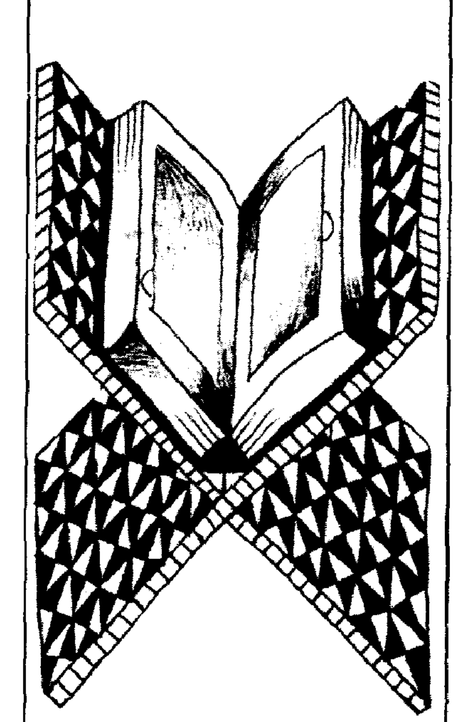
فقال: ينبغي أن يُشْخَص.

فـلمـا أُدْخِـل المبـرّد عـلى الفتـح بن خاقان، قال له:

يـا بصريّ، كيف تقـرأ هذا الحـرف (وما يُشْعِـرُكم إنها إذا جـاءت لا يـؤمنــون) بـالكسر، او (أنها إذا جاءت) بالفتـح؟

قال المبرد:

(إنها بالكسر). وذلك أن أول الآية: (وأقْسَموا بالله جَهْد أيمانهم لئن جاءتهم آية لَيُـؤْمِنُنَّ بها، قُل إنما الآيات عند الله وما يُشْعِرُكم)،



ثم قال تبارك وتعالى: يا محمـد (إنّهـا إذا جـاءت لا يـؤمنـون) باستئناف جواب الكلام المتقدم.

قال الفتـح: صدقت.

ثم ركب إلى دار أمير المؤمنين، وعرّفه بقدوم المبرّد، وطالبه بدفـع ما تخاطرا عليه. فأمـر المتوكـل بإحضاره المبرد. فلما وقعت عينه عليه قال:

يـا بصريّ، كيف تقـرأ هذه الآيـة: (وما يُشْعِـرُكم إِنهـا إذا جـاءت) بـالكسر، أو (أَنهـا إذا جاءت) بالفتـح؟

قال المبرّد:

يا أمير المؤمنين، أكثر الناس يقرأها بالفتـح.

فضحك المتوكل وضرب برجله اليسرى، وقال:

أحضر يا فتـحُ المال.

فقال: إنه والله يا سيدي قال لي خلاف ما قال لك.

فقال المتوكل:

دعني من هذا. أحضر المال!

وخرج المبرّد. فلم يصـل إلى الموضـع الذي كان أُنْزِلَه حتى أتته رُسُل الفتـح. فلما أتاه قال له:

يا بصريّ، أوّل ما ابتدأنا به الكذب!

قال المبرّد: ما كذبتُ.

فقـال: كيف وقد قلتَ لأمـير المـؤمـنـين إن الصـواب: (ومـا يُشْعِرُكم أنهـا إذا جاءت) بالفتـح؟

فقال:

أيهـا الوزير، لم أقـل هكذا، وإنما قلت: أكثر الناس يقرأهـا بـالفتـح. وأكثرهم عـلى الخـطأ. وإنمـا تخـلَّصتُ مـن اللائمـة، وهو أمير المؤمنين.

فقال الفتـح: أحسنت!

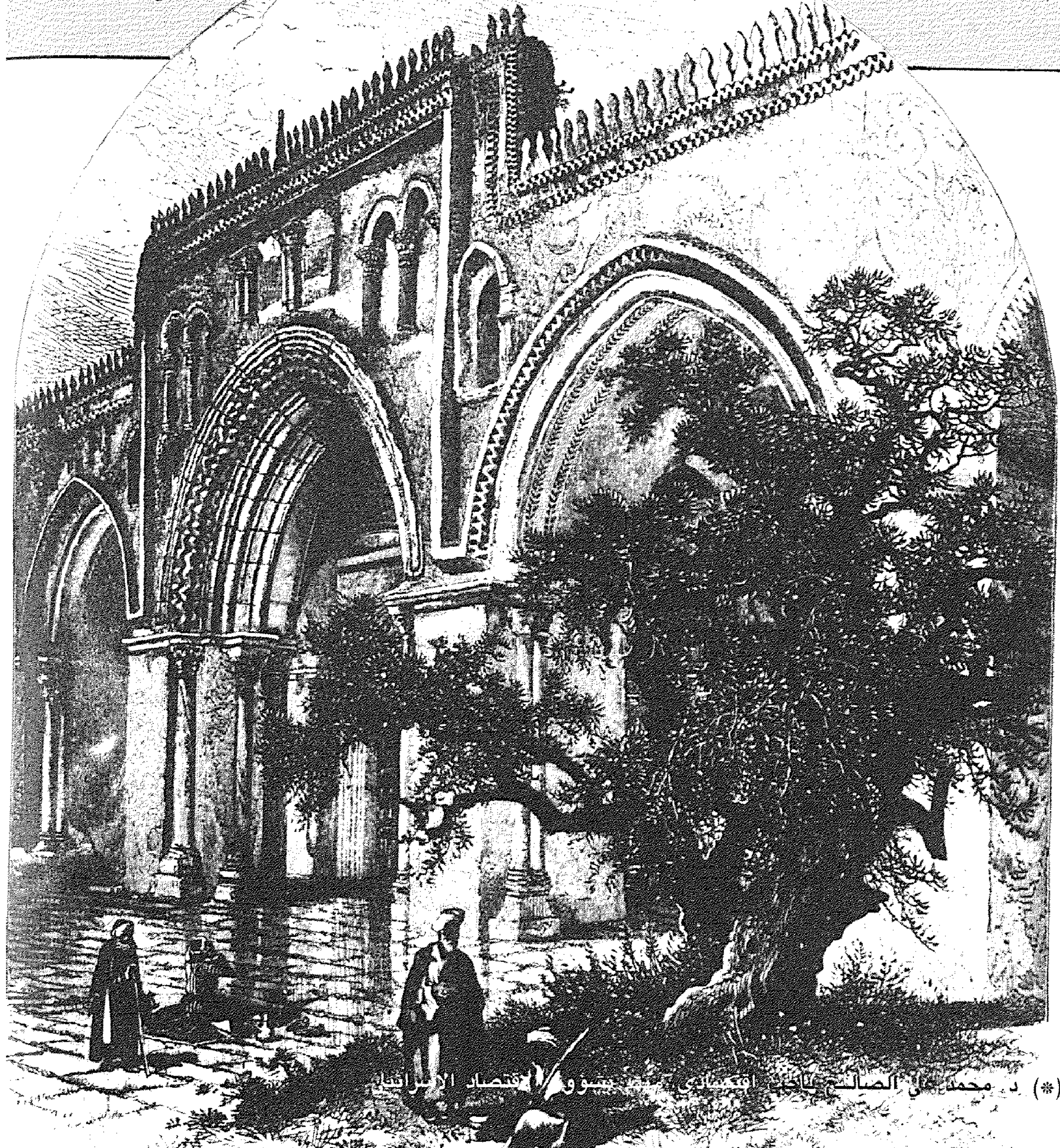
1) المبرد: (٨٢٦ ــ ٨٩٨م) من اكبر النحويين العرب وصاحب كتـاب «الكامل».

من كتـاب «طبقـات النحـويـين واللغويين» للزُّبيدي الأندلسي.

نتائج الصدمة الاقتصادية لغزو الفرنجة ١٠٩٩م - ١١٨٧م

بقلم
د. محمد علي الصالح (*)

□ المسجد الأقصى
(القرن الثامن عشر)



(*) د. محمد علي الصالح باحث اقتصادي [illegible] بشؤون الاقتصاد الإسرائيلي

في اليوم الخامس عشر من شهر تموز عام ١٠٩٩ ميلادية سقط بيت المقدس في أيدي الصليبيين. حزيران آخر في تاريخ الكفاح الطويل لأمتنا.

تموز عام ١٠٩٩، شاهد ميلاد عصر جديد، عصر الحروب الصليبية ومعركة تحرير دامت قرابة قرنين من الزمن.

وتموز عام ١١٨٧، شهد الانتصار الفاصل في حطين وبدء الانحدار النهائي للصليبيين وانحسارهم التدريجي عن البلاد الشامية وأفول طموحاتهم وخيبة آمالهم.

وسأتناول هنا تأثير التطورات السياسية والعسكرية للغزو الصليبي على الحالة الاقتصادية لبلاد الشام، وذلك منذ سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين وحتى هزيمتهم في حطين. كما سأحاول من خلال الصفحات القليلة القادمة وصف البنية الاقتصادية لبلاد الشام خلال الحقبة المشار إليها.

١ ــ الوضع الاقتصادي لبلاد الشام عشية الغزو الفرنجي

يبدو أن بلاد الشام كانت ما تزال في مطلع القرن الحادي عشر بلاداً غنية. يؤكد ذلك وصف أحد الرحالة الفرس المعاصرين وهو ناصري خسرو لحال المدن الشامية التي زارها يومها. كذلك ما كتبه مؤرخو هذه الحقبة العرب عن حجم الأموال الكبيرة التي كان يبتزها الحكام الفاطميون من الأهالي، مما يشير إلى أن البلاد كانت ما تزال يومها تملك بعض الرمق[١]! بالرغم من حالة الفقر التي بدأت تنتشر في فلسطين خلال الثلثين الأخيرين من القرن الحادي عشر عشية الغزو الصليبي، خاصة بسبب التقلبات والنزاعات السياسية الداخلية الشديدة التي شهدتها بلاد الشام خلال القرن المذكور[٢]. مع ذلك، تكلم الجغرافيون والرحالة العرب الذين زاروا البلاد الشامية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، عن المساحات الواسعة التي زرعت بالأشجار المثمرة في طول البلاد وعرضها. كما شكلت زراعة القمح دوماً المصدر الرئيسي للزراعة في البلاد الشامية، وكذلك زراعة الزيتون. حتى أن البلاد كانت تتمكن حتى في فترات الكساد الاقتصادي التي كانت تنتابها بين الحين والآخر من تصدير كميات كبيرة من الزيت إلى البلاد المجاورة. كذلك، كانت تصدر كميات كبيرة من الأثمار، والعنب والزبيب إلى مصر. كما عرف سكر بلاد الشام بجودته. وكانت مزارع قصب السكر تمتد على طول الساحل وفي الجليل وغور الأردن[٣]. أما فلسطين، فكانت تصدر الجبن في القرن الحادي عشر إلى مصر، حيث كان يشكل مادة غذائية مهمة ورخيصة لسواد الشعب. كما عرفت فلسطين يومها بتقليد قديم في تربية النحل، وكانت ما تزال تصدر في القرن الحادي عشر كميات من العسل والشمع إلى البلدان المجاورة، كذلك القطن، فقد كان يشكل أحد أهم الزراعات والصادرات لبلاد الشام في ذلك الحين[٤]. هكذا كان وضع الزراعة.

أما وضع الحرف في المدن الشامية فقد أشار إليه كثير من الكتاب العرب في القرون الوسطى. إلا أنه يجب الابتعاد عن المغالاة في تقدير وزن «الصناعة» يومها في اقتصاد بلاد الشام. ما عدا فرع النسيج الذي كان يصدر قسماً كبيراً من منتجاته، كالمصنوعات القطنية من شمال بلاد الشام وفلسطين، والشاش الموصلي وغيره من المصنوعات الكتانية من أنطاكية، والرصافة والباب في شمال سورية، والمصنوعات الحريرية وعلى رأسها البروكار الدمشقي[٥]. وكانت المنتجات النسيجية في ذلك الوقت متعددة الأنواع وأغلى من أيامنا هذه. وكانوا يدفعون فيها أسعاراً مرتفعة وخاصة لذلك النوع المعروف بالأعلاق. كذلك تم تصنيع الصابون من زيت الزيتون وصدرت كميات منه إلى مصر وباقي

البلدان. أما معامل الورق فكانت منتشرة في كل من دمشق وطبرية وطرابلس[٦]. وصدرت منه كميات كبيرة إلى مصر.

أما علاقات بلاد الشام التجارية مع الدول الأخرى في آسيا الغربية، فلا توجد بشأنها سوى معلومات قليلة تخص القرن الحادي عشر عشية الغزو. فقد تاجرت سورية منذ القدم مع الجزيرة العربية والعراق. وكانت حلب تشكل المحطة الأخيرة للقوافل الآتية من العراق وفارس. كما كانت في القرنين العاشر والحادي عشر مركزاً ومعبراً مهماً للتجارة الآسيوية مع الدولة البيزنطية. تشير إلى ذلك الاتفاقية التجارية التي عقدها حكام القسطنطينية مع أمراء حلب في نهاية القرن العاشر ميلادي بعد أن أعاد البيزنطيون احتلال أنطاكيا من أيدي العرب[٧]. ووصف الطبيب العربي ابن بطلان الذي مر بشمال سوريا عام ١٠٤٨م تجارة النسيج الواسعة هناك[٨].

أما دمشق، فكان حظها أقل من شقيقتها حلب في تجارة الغرب الآسيوي. فقد كان أثر التطورات السياسية على العاصمة «التاريخية» لبلاد الشام أشمل. وأعمق. ويرى اليسيف Elisseeff، أن المدينة بعد انهيار الحكم الأموي في القرن الثامن وحتى مجيء نور الدين زنكي في القرن الثاني عشر، لم تعرف سوى مدد قليلة من الانتعاش الاقتصادي[٩].

وبالرغم من التقلبات السياسية التي سادت القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، نرى التجار من الساحل السوري يعودون للإبحار في المتوسط بعد تراجع السيطرة البحرية البيزنطية أمام ضربات العرب المغاربة الذين كانوا قد احتلوا الجزر المركزية في الأبيض المتوسط وهي جزر كريت، وصقلية، ومالطا وجزر البليار، وفرضوا سيطرتهم على طول البحر وعرضه[١٠]. إلا أن دائرة نشاط التجار السوريين بقيت محصورة قياساً بأقرانهم المغاربة، واتجهت رحلاتهم في أغلب الأحوال إلى مصر والقسطنطينية. فعاد الانتعاش مجدداً إلى المرافىء السورية كطرابلس، وبيروت وصور.

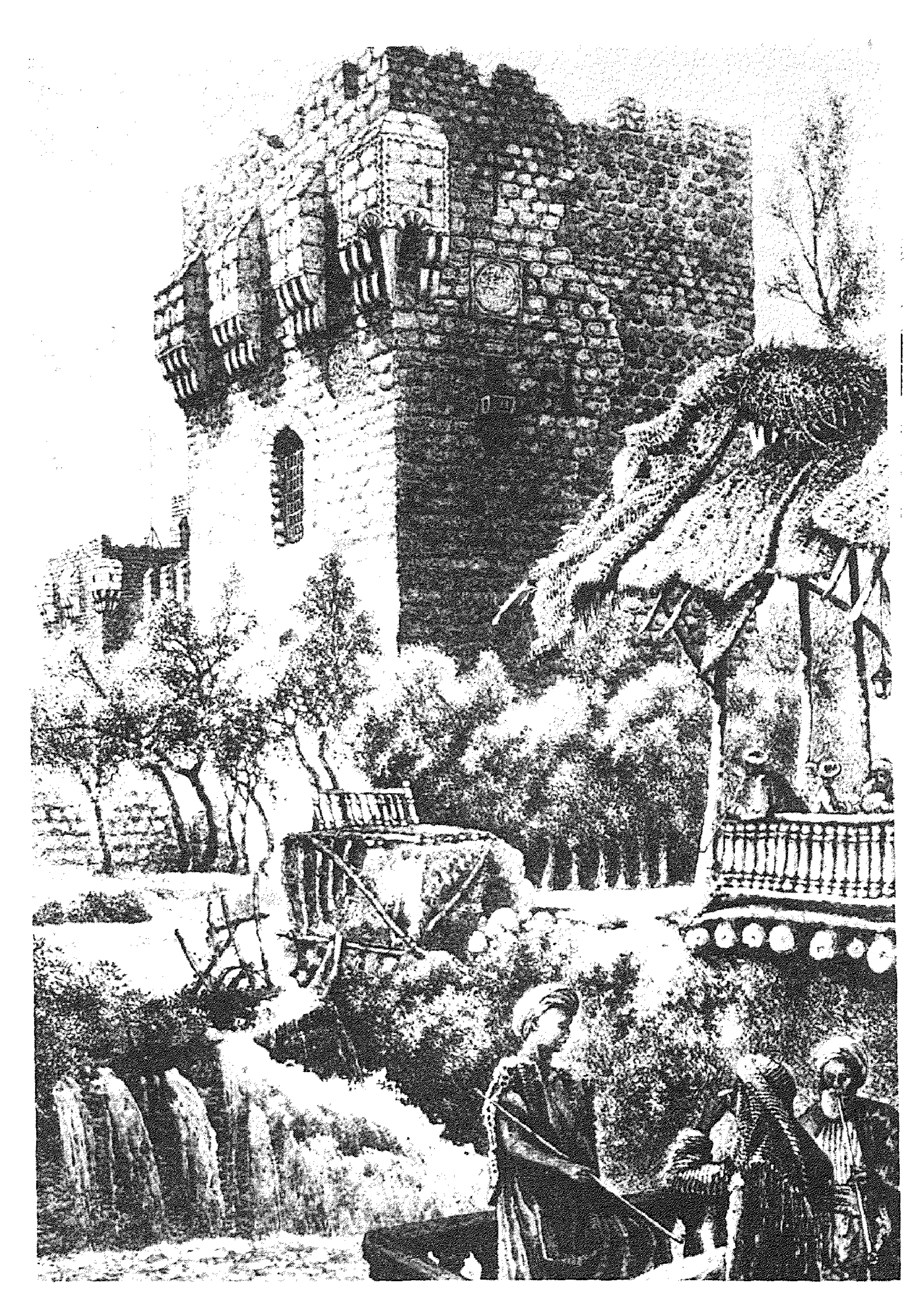
ومع أن السيطرة البحرية الإسلامية في الأبيض المتوسط بدأت تضعف رويداً رويداً خلال الفترة بين أواخر القرن العاشر ومنتصف القرن الحادي عشر، إلا أن هذه الفترة شاهدت انتعاشاً للعلاقات التجارية إلى ما وراء البحار لم تعرفه حتى خلال العهد الروماني. فنرى ميناء المهدية في تونس يتاجر بشكل مكثف مع الساحل السوري ومصر من ناحية ومع الأندلس في الغرب من ناحية أخرى.

أما طرابلس الغرب في ليبيا، فكانت مصدراً مهماً للتجارة الآتية من أفريقيا وأوروبا باتجاه المشرق. كما زار التجار من القسطنطينية، وأسبانيا المسلمة، وصقلية، وغرب أوروبا، طرابلس الشام التي كان ينطلق منها الأسطول التجاري الخاص بالخليفة الفاطمي في القاهرة، والمتوجه إلى القسطنطينية، وصقلية وأفريقيا الشمالية[١١].

هناك تحول خطير يتعلق بالتجارة فيما وراء البحار بدأ يتبلور ويشتد خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي أي مباشرة عشية بدء الحروب الصليبية. فقد اغتنم التجار الإيطاليون من رعايا المدن الإيطالية التجارية النشطة والواقعة على ساحل الأبيض المتوسط عودة السيطرة البحرية البيزنطية وعودة البيزنطيين إلى احتلال شمال الساحل السوري، لكي يقوموا بعملية «استطلاع» دقيقة على طول السواحل السورية والمصرية، أعقب ذلك تمركزهم في أنطاكيا واللاذقية وحصولهم عام ١٠٧٠م على صكوك امتيازات وحق إقامة مستودعات لبضائعهم في المدينتين المذكورتين[١٢].

وابتدأت الجولة الأولى من الغزو الفرنجي، التي كانت شديدة على الأمراء المسلمين والمستقلين، فنرى صغارهم في مدنهم المختلفة يسعون إلى مهادنة الفاتحين الجدد طمعاً في اعترافهم بهم ويقيمون معهم علاقات الأمر الواقع.

وقد كان لفظائع الصليبيين الخراب والدمار اللذين حلّا بالبلاد، صدمة تركت أثرها على الحياة الاقتصادية. ويشير ابن القلانسي، أنه جرى تحت حكم أتابك دمشق طُغتكين (١١٠٤ ــ ١١٢٨). إعادة زراعة الأراضي التي لم يعد لها أصحاب نتيجة الغزو، وأن الحكومة قامت بموافقة الخليفة المسترشد العباسي ببيع أراضٍ أميرية لتمويل



عملية استصلاح وسقاية هذه الأراضي البور[١٣].

ونتيجة للأسفين الفرنجي الذي دق في قلب بلاد الشام، رأت مدن ومناطق داخلية عدة كانت تبعث بفائضها من الإنتاج الزراعي إلى المدن الساحلية ومصر، نفسها فجأة وقد انقطعت خطوط اتصالاتها السابقة. لكن سرعان ما تغلبت المصالح الضيقة للأمراء العديدين على هول الصدمة. وتعكس اتفاقيات الهدنة المعقودة بين أمراء مدن طرابلس، ودمشق وحلب من جهة والصليبيين من جهة أخرى في الأعوام ١١٠٤ و١١٠٩ و١١١٣ و١١١٤ و١١٢٣ ميلادية، هموم الأمراء المحليين للحفاظ على سلامة الحياة الاقتصادية لمقاطعاتهم التي تشكل المبرر الأساسي لاستمرار حكمهم، أمام حملات السلب والنهب التي كان يقوم بها الفرنجة لاستغلال تفوقهم العسكري وتأمين موارد مالية مهمة لهم[١٤]، وحروب الاستنزاف هذه قامت بها على الأخص مملكة القدس الصليبية وإمارة الرها في الشمال.

النشاط الاقتصادي للإمارات اللاتينية في بلاد الشام

شكل احتلال المدن الساحلية على طول سواحل بلاد الشام الشرط الأساسي والحيوي لاستمرار بقاء الإمارات الصليبية. إذ أن ذلك كان يكفل لهم بقاء اتصالهم مع قواعدهم التي انطلقوا منها في أوروبا. كما أنهم كانوا يحتاجون لهذه المدن لإكمال سيطرتهم البحرية ومنع العرب في مصر وشمال أفريقيا من نجدة أخوانهم عرب الشرق. وهكذا بدأ عام ١١٠٠م الاستعراض البحري الضخم لأساطيل كل من البندقية وجنوا وبيزا على امتداد الساحل السوري. وكان يعني هذا الاستعراض البحري أيضاً أن السيطرة البحرية وبالتالي السيطرة على التجارة البحرية في شرق الأبيض المتوسط كانت في سبيل الانتقال إلى أيدي البنادقة والجنوية والبيازنة. وتبعهم في ذلك أيضاً تجار مدينة مرسيليا الفرنسية. فمساعدة أساطيل المدن المذكورة للإمارات الصليبية لم تكن لوجه الله بل نراهم يشترطون بعد فتح كل مدينة أو ميناء على ساحل البحر، الحصول على امتيازات تجارية وأقليمية وقضائية فيها لقاء مساعدتهم الثمينة. وبهذه الوسيلة نشأت مستعمرات عدة لمواطني المدن الإيطالية ضمن الإمارات الصليبية، شكلت قواعد لهم ونقاط ارتكاز يديرون منها مصالحهم التجارية وينطلقون منها للسيطرة على التجارة مع الشرق. أما القاعدة المادية لكل من هذه المستعمرات فكانت تتمثل بالممتلكات التي حصلت عليها داخل كل مدينة، من مستودعات لتخزين البضائع، ومنافذ للبيع، وورش صيانة، ومطاحن، ومخابز.

تعبئة الموارد من أجل المعركة

ساعد تفتت السلطة السلجوقية في فارس والعراق، وصعود الزنكيين وظهورهم في الشام، على انتقال مركز ثقل الإسلام إلى البلاد الشامية في مواجهة الصليبيين طوال ثلاثين سنة، وذلك بعد أن بقي بعيداً عنها منذ انهيار الدولة الأموية.

وقد انعكس استقرار الوضع السياسي الداخلي خلالها على وضع البلاد الاقتصادي وحجم التبادل التجاري. يؤكد ذلك النفقات الكبيرة للدولة الزنكية على المجهود الحربي التي استندت بالدرجة الأولى على الريع المتوفر من الزراعة. كما أن نور الدين لجأ في مرحلة أولى خلال مرحلة تدعيم حكمه في بلاد الشام، وليؤمن الاستقرار على حدوده الجنوبية خلالها، إلى الاستمرار في دفع الجزية إلى ملك القدس الفرنجي كما كان يفعل أمراء دمشق السابقون. إلا أن محاولاته لتحرير بعض الموانىء على البحر ليضمن لمملكته متنفساً فقد باءت بالفشل[١٥].

إضافة إلى ذلك، أحدث ظهور نور الدين ومن بعده الأيوبيين تغييراً عميقاً في المشرق العربي، كان له أبعد الأثر على تطور الأسس الاقتصادية التي كان يقوم عليها. فقد أدى نشوء دولة مركزية قوية من جديد على أنقاض الإمارات والممالك المتنازعة في بلاد الشام، واعتماد هذه الدولة المركزية على جيش أكثره من الأغراب الذين لا تربطهم علاقات بالسكان المحليين إلا ما ندر، ودعم «أصحاب العمائم» من علماء

وقضاة ومتصوفين لأصحاب هذه الدولة المركزية، شجعهم على ذلك التطورات السياسية المستجدة وعلى رأسها التحدي الصليبي الذي لم يكتف باحتلال ثاني الحرمين الشريفين بل أخذ يهدد حتى باحتلال قبر الرسول الأعظم، إلى قمع وخنق النواة البورجوازية التي بدأت تترعرع وتزدهر في المدن السورية المختلفة، مستفيدة من حالة التفتت السياسي، وضعف سلطة الأمراء السياسية المتربعين على عروش المدن الشامية المختلفة، وغياب دولة مركزية قوية قبل نشوء الدولة الزنكية. لهذا السبب، نرى أن تمرداً كتمرد ابن الصوفي، أحد ممثلي هذه البورجوازية الناشئة عام ١١٤٩م في دمشق وبدعم من أحداث المدينة (أي الميليشيا المحلية)، قد أصبح تحت حكم نور الدين وخاصة من بعده غير وارد(١٦).

إلا أن النظام «الاقطاعي» لم يكن قد أصبح متين الجذور بعد، بالرغم من ان الاقطاع العسكري (إقطاع ريع الأرض وليس ملكيتها) أصبح بعد هزيمة نور الدين في معركة البقيعة عام ١١٦٣م وراثياً. إضافة إلى أن نور الدين اتبع سياسة لينة مع أهالي المدن الشامية، واعترف لهم بنوع من الحكم الذاتي، مكافأة لهم على مساعدته في تقويض سلطة حكامهم السابقين، مما سمح للعديد من أبناء البورجوازية المحلية (التجار) بتقلد مناصب هامة في إدارة هذه المدن، وحتى في الحكومة المركزية والجيش، طوال مدة حكمه(١٧).

بعد مجيء صلاح الدين إلى السلطة وإزاحته لورثة نور الدين من الحكم، حدث تحول مهم آخر في مصير بلاد الشام. فقد انتقل مركز الدولة الجديدة إلى القاهرة. ومن هناك قاد صلاح الدين معركته ضد الصليبيين في بلاد الشام. بعد أن عمل على إنشاء جيش بري قوي من أجل معركة التحرير هذه، والذي مكنه من النصر الحاسم في حطين.

أما في البحر، فلم يستطع صلاح الدين كسر احتكار أساطيل الإيطاليين والنورمانديين بالرغم من محاولاته المتصلة. وكان صلاح الدين قد بذل جهداً عظيماً من أجل إعادة تعمير الأسطول الفاطمي القديم، لمواجهة الظهور البحري المسلح لأساطيل بيزنطة، ونورماندي صقلية، على طول الشواطىء المصرية في الفترة ١١٦٩ — ١١٧٩م، وكذلك لدرء محاولات الفرنجة البحرية في البحر الأحمر(١٨).

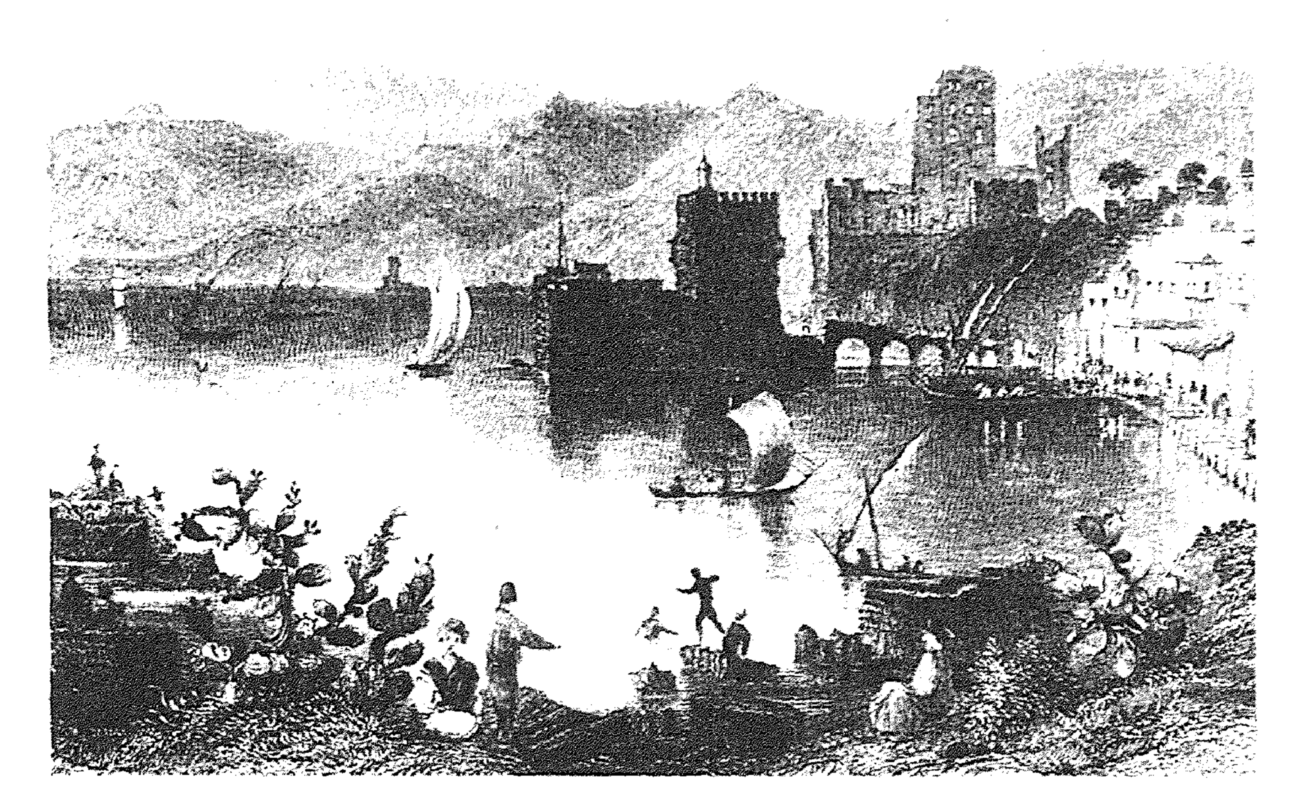
ومن أجل هذه المواجهة، عقد صلاح الدين مع بعض جمهوريات المدن الإيطالية اتفاقيات تجارية، منحهم بموجبها امتيازات في الموانىء المصرية على أن يمدوه بما يلزمه لبناء وتجهيز وتسليح السفن التي يحتاجها من أجل تدعيم سياسته البحرية(١٩).

وبأسطوله الحديث هذا، بدأ صلاح الدين في الفترة ١١٧٩ — ١١٨٧م، هجوماً بحرياً معاكساً مكنه من تطهير البحر الأحمر من الفرنجة، وإعادة سيطرة مصر الاحتكارية على التجارة مع الهند في البحر الأحمر والبحر العربي. بل وقام الأسطول الأيوبي انطلاقاً من مصر بفرض حصار بحري خلال الفترة المذكورة على موانىء بلاد الشام المحتلة(٢٠).

إلا أن نتائج هذه الانتصارات في الأبيض المتوسط لم تثمر في نهاية الأمر. فقد اشترط الصليبيون في اتفاقية استسلام ميناء عكا لهم عام ١١٩١م، تسليم الأسطول المصري المحاصر في الميناء والمؤلف من خمسين شونة(٢١).

ويعتبر صلاح الدين آخر حاكم مسلم في القرون الوسطى، عرف أهمية حيازة أسطول حربي لحماية خطوط إمداد الدولة السورية المصرية. وقد أهمل الأيوبيون من بعده، وخاصة المماليك، عمارة الأسطول، مما أدى في نهاية الأمر إلى فقدان دولة المماليك لسيطرتها على تجارة المحيط الهندي أمام البرتغاليين.

لكن صلاح الدين بالمقابل لم يظهر دراية ومعرفة جيدة بشؤون دولته المالية مثلما برع في فنون القتال. وقد انعكس الإنهاك الاقتصادي بسبب حالة التعبئة والحروب المتواصلة مع الفرنج، على استقرار الدينار المصري المتعامل به في أنحاء البلاد. كذلك انعكس هذا الإنهاك، في القروض الإلزامية التي فرضت على الأهالي ولم تستطع الدولة أيام صلاح الدين والذين أتوا من بعده ردها إلى أصحابها. ويعود الشح في توفر الأموال ليس فقط بسبب الأعباء العسكرية، لكن أيضاً بسبب السياسة الضرائبية السيئة للدولة الأيوبية(٢٢). ولإعطاء فكرة عن قوة الدفع



□ مرفأ بيروت — بارتلت ــ ١٨٣٤.

النقدية لكلا الفريقين المتحاربين، وبالتالي فكرة عن رؤوس الأموال المتداولة، نذكر بأن صلاح الدين كان مستعداً عند تحرير بيت المقدس أن يفتدي فقراء الفرنجة بـ ١٠٠,٠٠٠ ألف دينار. كما أعفى الأديرة والكنائس من مصادرة ممتلكاتها المنقولة، وغير المنقولة، والتي قدرها الأصفهاني يومها بـ ١٠٠,٠٠٠ ألف دينار أخرى ذهباً. وقد أثار هذا التسامح من قبل صلاح الدين اللغط في معسكر السلطان! أما أمير عكا من قبل صلاح الدين، فعرض على الفرنجة أن يفتدي المدينة بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ ألف دينار أخرى[٢٣].

خلاصة القول، إن السياسة الاقتصادية التي اتبعها صلاح الدين، جاءت انعكاساً للأحوال السياسية والاقتصادية المختلفة لكلا الاقليمين السوري والمصري، والتي كانت سائدة فيهما عشية إنشاء الدولة الأيوبية، وتوحيد الاقليمين المذكورين في إطارها. فمنذ القرن العاشر الميلادي، انتقل مركز الثقل التجاري والاقتصادي للعالم الإسلامي، من العراق والخليج العربي، إلى مصر الفاطمية. ولم يكن بمقدور صلاح الدين منطقياً بعد استيلائه على السلطة في القاهرة عام ١١٧١م، وتفويته الفرصة على الصليبيين لبسط نفوذهم هناك، سوى متابعة السياسة الفاطمية بهذا الشأن. من جهة أخرى، كان صلاح الدين يعي تماماً مبلغ الفوائد التي يمكن أن يجنيها من وراء إقامة علاقات تجارية مع الدول الأعظم الأوروبية البحرية، وخاصة من أجل حصوله على مواد ومعدات يمكن أن تخدم مجهوده الحربي[٢٤]. لذلك نراه يتبع سياسة اقتصادية مختلفة بالنسبة لمصر وبلاد الشام. فبينما نراه يمنع التجار الفرنجة من ارتياد البحر الأحمر وداخل مصر، بعكس ما كانوا يفعلونه خلال الحكم الفاطمي، يسمح لهم بالمقابل بارتياد ثغور بحرية مصرية محددة على الأبيض المتوسط لممارسة نشاطاتهم التجارية هناك[٢٥].

وبينما يحد من دائرة نشاط تجار الفرنجة في مصر بشكل عام، نراه يتصرف تجاههم في بلاد الشام بمرونة أكبر، مما أثار حفيظة الرحالة ابن



□ مرفأ صور   دافيد روبرتس ــ ١٨٣٩.

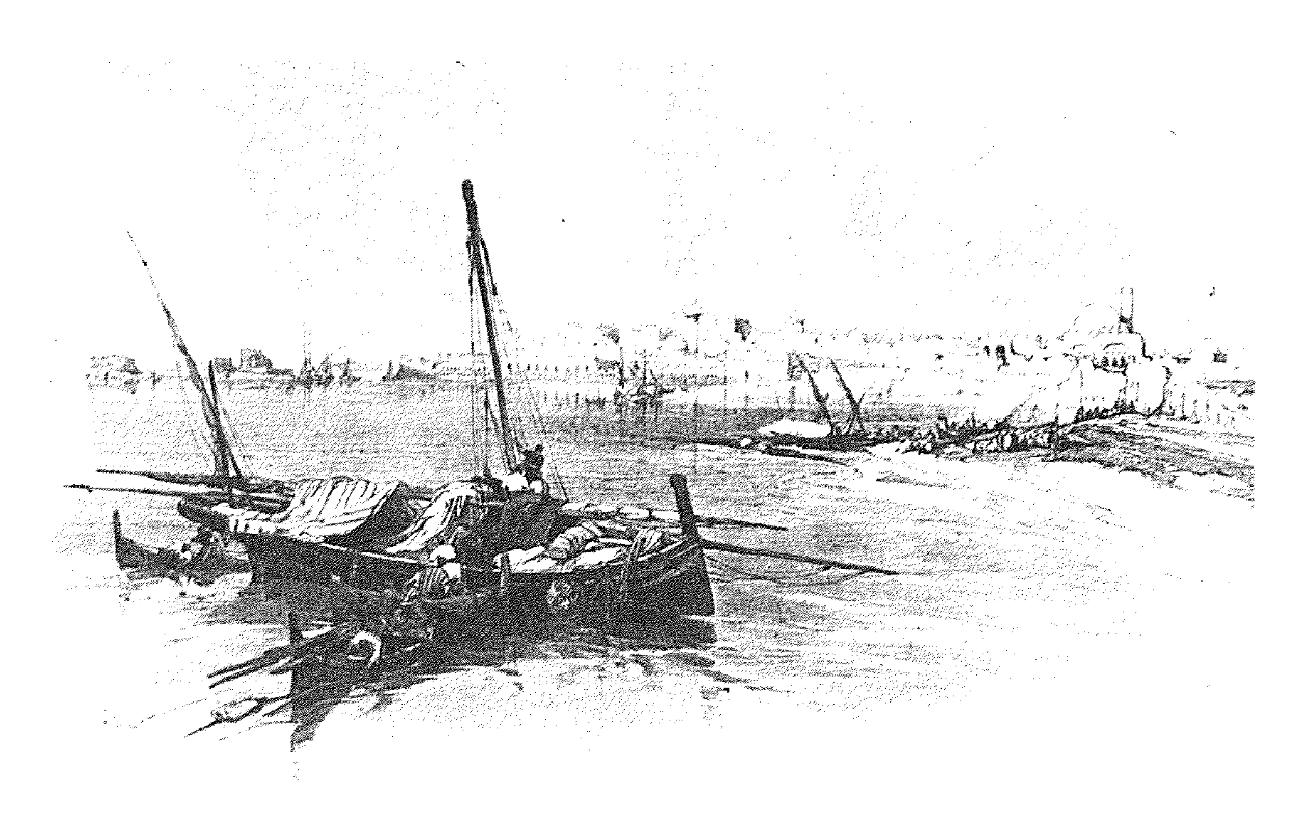
جبير الذي لم يستطع أن يستوعب مجريات الأمور في البلاد الشامية، حيث العلاقات التجارية قائمة على قدم وساق بين الفريقين المتخاصمين، والقوافل تتنقل بين المنطقتين بينما الحرب سجال(٢٦). وقد ارتكزت سياسة الدولة الأيوبية الاقتصادية في بلاد الشام، على تشجيع حرية التجارة لتأمين انسياب البضائع بين مصر وسوريا، وباتجاه الشرق مع العراق وفارس عبر المنطقة المحتلة من قبل الفرنجة. وذكر العيني أنه غالباً ما كان يذكر في بنود اتفاقيات الهدنة المختلفة التي كانت تعقد بين الأيوبيين والفرنجة، من أن مجرد تهديد أمن وحياة التجار المصريين المسافرين عبر المنطقة الفرنجية المحتلة، يمكن أن يشكل في حد ذاته سبباً لنقض اتفاقيات الهدنة(٢٧).

بكلمات أخرى، ارتكزت مجمل استراتيجية الأيوبيين، ومن بعدهم المماليك، على دعم مركز القاهرة السياسي والاقتصادي في ذلك الحين وتطويره.

تأثير ازدهار تجارة المشرق الأوروبية على الوضع الاقتصادي لبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية

مع أننا لم نقم من خلال بحثنا إلا باستعراض الفترة منذ بدء الحروب الصليبية وحتى معركة حطين، إلا أنه يمكن الإشارة، إلى أن النصر الساحق في حطين الذي هدد لأول مرة بسحق النفوذ الفرنجي، وإزالة مختلف آثاره، أظهر في الوقت نفسه للدول الأعظم البحرية في أوروبا الأهمية الخاصة لمستعمراتها التجارية التي أنشأتها على الساحل السوري، في تطوير تجارة المشرق لصالحها. فسارعت إلى نجدتها، وفرضت شروطها في نفس الوقت، من أجل تأمين خطوط مواصلات الحملة الصليبية الثالثة وما تلاها.

ومن العبث ترديد القول ما للحروب الصليبية من أهمية كعامل منشط للعلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ومن أن نتائج الحروب



□ مرفأ عكا في فلسطين المحتلة — دافيد روبرتس ـ ١٨٣٠م.

الصليبية قد طبعت كل التغيرات التي حصلت في مجتمعات القرون الوسطى. ونعود هنا إلى التذكير، من أن الحروب الصليبية جاءت تتويجاً لعملية كانت قد بدأت من قبل، ولم تشكل هذه الحروب في حد ذاتها بدءاً لتلك العملية. فالتجار الإيطاليون رواد «الثورة التجارية» في أوروبا، توجوا محاولاتهم السابقة بمساعدة وبدون مساعدة الحروب الصليبية، لبسط سيطرتهم المطلقة على البحر الأبيض المتوسط وإنشاء المستعمرات التجارية ليس فقط على طول الشواطىء الشامية، بل في أماكن أخرى من الشرق الأوسط. وقد مكنهم تواجد الفرنج في «الأراضي المقدسة» من توسيع دائرة علاقاتهم التجارية بهذه الطريقة باتجاه المواطن الأصلية لهؤلاء الفرنجة!

أما توسعهم في البلاد الشامية فلم يلعب سوى دور ثانوي في دعم مركزهم التجاري في آسيا وأفريقيا. فبالرغم من كل الامتيازات التجارية التي حصلوا عليها في الإمارات الصليبية، نراهم يعقدون صفقات تجارية أهم وأوسع مع الاسكندرية على الساحل المصري. إذ أنه في حقيقة الأمر، فإن القسطنطينية تليها من حيث الأهمية الاسكندرية، بقيتا بالرغم من الحروب الصليبية عاصمتي التجارة العالمية وليست عكا على الساحل الفلسطيني[٢٨].

لذلك، يطرح السؤال نفسه عن مدى تأثير الحروب الصليبية على الوضع الاقتصادي لبلاد الشام؟ وعن مدى تأثير ازدهار تجارة المشرق الأوروبية بسبب هذه الحروب، وتطور العلاقات التجارية بين الشرق والغرب على هذا الوضع؟ سبق وذكرنا، أن التجارة الخارجية للإمارات الصليبية في البلاد الشامية مع الغرب كانت

تدار في أغلبها بواسطة التجار الإيطاليين. لذلك يمكن القول، أن التجارة البحرية للإمارات الصليبية في الشام لم تكن تجارة مستقلة، كان يمكن أن ينشأ عنها وضع اقتصادي مستقر لهذه الإمارات. بل لم تكن في حقيقة الأمر سوى تجارة بين المدن الإيطالية في الغرب ومستعمراتها التجارية في شرق الأبيض المتوسط التي استخدمت التسهيلات التجارية الممنوحة لها على الساحل السوري لتنشيط تجارة الترانزيت باتجاه المستودعات التي أقامها التجار الإيطاليون، لتجميع المنتجات الآسيوية، والمحلية التي يريدونها فيها قبل نقلها باتجاه الغرب. أي أن سوريا «الصليبية» و«المسلمة» على حد سواء لم تلعبا في حركة ازدهار هذه التجارة سوى دور سلبي وليس دوراً فاعلاً في توسع العلاقات التجارية بين الشرق والغرب.

بالطبع، فإن حجم التجارة الدولية قد ازداد بفعل الحروب الصليبية وأن هذه التجارة تشجعت وتنوعت. كما ازدهرت المدن الداخلية في بلاد الشام، كدمشق، وحلب خلال هذه الفترة. لكن هذا الازدهار جاء قبل كل شيء نتيجة ظهور أهمية بلاد الشام السياسية كخط الدفاع الأول أمام الهجمة الصليبية، ومن بعدها المغولية على المشرق العربي، والحضارة العربية الإسلامية. لذلك لا يجب أن نهول من حجم الآثار التي تركها ازدياد حجم تجارة المشرق على الوضع الاقتصادي لبلاد الشام. فتجارة المقايضة، والترانزيت التي ازدهرت خلال عصر الحروب الصليبية، لم تعن بالضرورة دعم القوة الإنتاجية لبلاد الشام، بقدر ما كانت تخفي في حقيقة الأمر الانهيار التدريجي للقاعدة الإنتاجية، بفعل النزيف المستمر لموارد البلاد، نتيجة تعرضها لهجمات الأعداء، عبر قرون متتالية من الحروب والمصائب والآفات عدا الإهمال خلال فترات تأرجح أهميتها السياسية، في إطار العالم الإسلامي الذي كان قائماً في ذلك الحين.

وإذا أضفنا إلى ذلك، أنه جرى في نهاية الأمر عند تحرير البلاد من الصليبيين، تدمير كل الموانىء السورية التي بقيت مزدهرة تجارياً منذ القدم وحتى ذلك الحين، وتسويتها بالأرض من قبل المماليك لمنع استخدامها مجدداً كموطىء قدم لهجمات جديدة تأتي من البحر، في غياب أسطول بحري قوي لحماية السواحل الشامية، فللمرء أن يتساءل عندها عما كسبه اقتصاد بلاد الشام والتجارة فيها بفعل الحروب الصليبية من مكاسب دائمة. ●

الهوامش

(١) Nasir-i Hosrau: Sefer Nameh, ed. Schefer, p.64
Lammens, H.: La Syrie I, p.148.

(٢) Goitein S. D.: A Mediterraneen Society I, p. 121.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم طبعة de Goeje ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٥ ــ ١٨٠
Nasir-i Hasrau, Sefer Nameh, p. 35, 40, 44, 61
Le Strange: Palestine under the Moslems, p. 295f.

(٤) Goitein, S. D.: A Mediterraneen Society I, p.
Cahen, Cl.: La Syrie d Nord, p. 473.

(٥) المقدسي، ص ١٨٠.
الادريسي، طبعة Gildemeister، ص ١٤.

(٦) المقدسي، ص ١٨٠ ــ ١٨١.

(٧) Lewis, A. R.: Naval Power and Trade, p. 213.

(٨) إبن بطلان، رسالة إلى ابن المحسن مذكور في كتاب Rohricht, R. S. عن تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ص ٢٤٢ وما بعدها.

(٩) Elisseeff, N.: Déscription de Damas, p. XVIII.

(١٠) Eickoff, E.: Seekrieg and Seepolitik, p. 173ff.

(١١) Lewis, R.: Naval Power, p. 183-224.

(١٢) Heyd, W.: Histoire du Commerce du Levant au moyén-Age ed. Raynand, p. 127, 133, 138.

(١٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، طبعة Amedroz ص ١٤٥، ٢١٩.

(١٤)
Ibn al-Qalanisi: Chronicle, ed. Gibb, P. 68, 91ff.

(١٥) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الأول، ص ١٦٠.

(١٦) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، طبعة Amedroz ص ٣١١.
Ashtor-Strauss, E.: Administration urbaine en Syrie, in Revista 31, 1956 p. 121-128.

(١٧) ابن الأثير في Recueil, Historiens, Orientaux الجزء الثاني، ص ١٣٧، ١٤٢، ٣٠٥، ٣٠٨ وما بعدها.
Cohen, Cl.: L'Evolution de L'Ikta, Annales ESC, 1953, p. 45f.

(١٨)
Ehrenhreuz, the Place of Saladin in the Naval History, in JAS 75. 1955, p. 100-115.
سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، طبعة Jewett ص ١٧٧.
أبو شامة، كتاب الروضتين في Recueil الجزء الرابع، ص ١٦٥، ١٨٠.

(١٩) Heyd I, p. 387، الطبعة الفرنسية.

(٢٠) ابن الأثير، الكامل، طبعة Tornberg، الجزء ١١، ص ٣٢٤.
المقريزي، كتاب السلوك، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٦، ص ٧٩، ٨٨، ٩٠.
أبو شامة، Recueil, Hist. Or. IV, p. 235.

(٢١) بهاء الدين، سيرة صلاح الدين Recueil, Hist. Or. III ص ٢٣٧.

(٢٢) Ehrenkreutz, A. S.: Contribution to the Knowledge of the Fiscal Administration of Egypt, in BSOAS, 15«3, 1953, AND 16«3, 1954.

(٢٣) الأصفهاني: الفتح، طبعة Landberg ص ٦٠.

(٢٤) أبو شامة، الروضتين، الجزء الأول، ص ٢٤٣.

(٢٥) ابن المماتي: قوانين الدواوين، طبعة عطية، ص ٣٢٩.

(٢٦) ابن جبير، رحلات، طبعة Demombynes، ص ٣٣٤ ــ ٣٣٥، ٣٤٨ ــ ٣٤٩، ٣٥٢.

(٢٧)
Labib, Handelsgeschichte, p. 37.

(٢٨)
Lopez, R. S.: Les Influences Orientales, p. 616.

مراجع البحث

(أ) المصادر الأولية

١ ــ أبو الفدا: تقويم البلدان، طبعة Reinaud باريس ١٨٤٠.
٢ ــ أبو شامة: كتاب نزهة الروضتين، جزءان، القاهرة ١٨٧١ ــ ١٨٧٥.
٣ ــ الادريسي: كتاب نزهة المشتاق، طبعة Jaubert جزءان، باريس ١٨٣٦ و ١٨٤٠.
٤ ــ ـــــــ: كتاب روجار، طبعة Gildemeister لايبزيج ١٨٨٥.
٥ ــ الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة ١٩٠٤.
٦ ــ المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة الدول والملوك، ترجمة فرنسية Quatremère جزءان، باريس ١٨٤٥.
٧ ــ المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة Goeje لايدن ١٩٠٦.
٨ ــ ابن بطوطة: رحلات ابن بطوطة، طبعة Defremery الجزء الأول، باريس ١٨٥٣.
٩ ــ ابن جبير: رحلة ابن جبير، طبعة حنفي، القاهرة.
١٠ ــ ـــــــ: رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٦٤.
١١ ــ ـــــــ: رحلة، طبعة Demombynes الأجزاء ٤ و ٧، باريس ١٩٤٩.
١٢ ــ ابن المماتي: قوانين الدواوين، طبعة عطية، القاهرة ١٩٤٣.
١٣ ــ Burchard of Monte Sion: Voyages, Palestine Pilgrims Text Society, London 1896.
١٤ ــ ابن الأثير: كتاب الكامل في التاريخ، طبعة Tornberg ١٤ جزءاً، لايدن ١٨٥١ ــ ١٨٧٦.
١٥ ــ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، طبعة زريق، الأجزاء ٧ ــ ٩، بيروت ١٩٣٦ ــ ١٩٤٢.
١٦ ــ ابن الجوزي: سبط مرآة الزمان، طبعة Jewett، شيكاغو ١٩٠٧.
١٧ ــ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، طبعة Amedroz بيروت ١٩٠٨.
١٨ ــ ـــــــ: The Damascus Chronicle of the Crusade, ed. Gibb, London 1932.

١٩ _ ابن واصل: مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، ثلاثة اجزاء، القاهرة ١٩٥٣ _ ١٩٦٠.
٢٠ _ ياقوت الحموي: معجم البلدان، خمسة أجزاء، بيروت ١٩٥٥ _ ١٩٥٧.
٢١ _ Les Assises de Jérusalem, ed., Comte Beugnot, 2 vol. Paris 1843.
٢٢ _ Nasiri Hosrau: Sefer Nameh, ed. Shefer, Cl., Paris 1881.
٢٣ _ Recueil des Historiens des Croisades, publ. par les Soins de L'Academie des Inscriptions et des Belles-Letters, Paris.
Historiens Occidentaux, vol. I, 1 et 2, II, Paris, 1844-1895.
Historiens Orientaux, 5 vol, 1872-1906.

(ب) أبحاث ودراسات معاصرة

٢٤ _ Ashtor — Strauss, E. : L'Administration Urbaine en Syrie Médiévale, in Revista Degli Studi-Orientali, 31, 1956, p. 71-128.
٢٥ _ Aubin, J.: Ruine de Siraf, Cahiers de Civilisation Médiévale, Poitiers 1952.
٢٦ _ Cahen, Cl.: La Syrie du Nord à L'Epoque des Croisades et de la Principauté Franque D'Antioche, Paris 1940.
٢٧ _ ———,: L'Evolution de L'Ikta de IX au XII s., Annales, Economies, Sociétés, Civilisations 8, 1953.
٢٨ _ Doehaerd, R.: Méditérannée et Economic Occidentale pendant le Moyen-Age, in Cahiers D'Historie Mondiale, ed. I, 3 January 1954.
٢٩ _ Ehrenkreutz, A.S.: Contribution to the knowledge of the Fiscal Administration of Egypt, in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 15-3, 1953; 16-3, 1954.
٣٠ _ ———,: The Place of Saladin in the Naval History, in Journal of the American Oriental Society, 75, 1955.
٣١ _ Eickhoff. E.: Seekrieg und Seepolitik Zwischen Islam u. Abendland, Berlin 1966.
٣٢ _ Elisseeff, N.: La Description de Damas, Damas, 1959.
٣٣ _ ———,: Nur ad-Din, 3 Vol. Damas 1967.
٣٤ _ Goitein, S.D.: A Metiteranean Society, vol. I, Berkely 1967.
٣٥ _ Grousset, R.: Histoire des Croisades et du Rayaune Franc de Jerusalem, 3 vol., Paris 1948.
٣٦ _ Heyd, W.: Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, ed., Raynaud, Amsterdam 1959.
٣٧ _ ———,: Geschichte des Levantehandels in Mittelater, 2 Bde, Stuttgart, 1879.
٣٨ _ Labib, S.Y.: Handelsgeschichte Agyptens in Spatmittelater (1171-1517) in Vierteljahrschrift für Sozial — u. Wirtschaftsgeschichte, Beiheft 46, Wiesbaden 1965.
٣٩ _ Lammens, H.S.J.: La Syrie, Precis Historique, 2 vol., Beyrouth 1921.
٤٠ _ Le Strange, Guy: Palestine under the Moslems, Beirut 1965.
٤١ _ Lewis, A.R.: Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D. 500-1100, Princeton, N.J. 1951.
٤٢ _ Lopez, R.S.: Les Influences Orientales et L'Eveil économique de L'Occident, in Cahiers D'Histoire Mondiale 1, 1953-1954.
٤٣ _ Prutz, H.: Kulturgeschichte der Kreuzzüge, Berlin 1883.
٤٤ _ Rohricht, R.: Geschichte des Ersten Kreuzzüge, Innsbruck 1901.
٤٥ _ Schaube, A.: Handelsgeschichte der Romanischen Völker des Mittelmeergebitetesbiszum Ende der Kreuzzüge, Berlin, 1906.
٤٦ _ Waas, A.: Geschichte der Kreuzzüge, Bd. I, Freiburg 1956.

(*) تقديراً في مجلة «تاريخ العرب والعالم» لندوة «حطين» التي عقدت في دمشق، تموز عام ١٩٨٧، فقد أعدّ «قسم التوثيق والأبحاث» في المجلة ملخصا عن بعض الأبحاث التي القيت في المؤتمر، وكانت على جانب كبير من الأهمية.

وفيما يلي البحث القيّم الذي قدمه الدكتور محمد علي الصالح بعنوان «نتائج الصدمة الاقتصادية لغزو الفرنجة (١٠٩٩ _ ١١٨٧م)».



عِلم التّاريخ خلال القرن الثّامن عشر

بقلم د. يوسُف عاد



□ ابن خلدون
بريشة جبران خليل جبران.

نبدأ بحثنا بتساؤل حول الاهتمامات التي عالجها القرن الثامن عشر، فهل كان من الممكن إيجاد مؤلفات مميزة في التاريـخ في القرن المذكور؟

وإذا وجدنا هذه المؤلفات، فبأي مستوى كتبت، وبأي لغة كان يحصل ذلك؟

وهل كان في القرن مؤلفون يستحقون أن يطلق عليهم اسم مؤرخين؟

من الراجـح القول أنه في وسعنا العثور على فنون أدبية مبتكرة في هذا القرن، لأن الذين قُيِّض لهم مستوى معين من الثقافة، توجهت أنظارهم إلى المألوف من التصانيف الشائعة في العصور القديمة. وكان فن التاريـخ، وانصرافهم إليه مستوحين من الأجواء التقليدية آنذاك. وهذه الظاهرة شائعة في معظم البلدان العربية، حتى لنكاد نلمسها أحياناً لدى كتّاب القرن. ولا شك في أن اللبنانيين الذين اجتذبهم التاريـخ قد استوحوا في مؤلفاتهم الأساليب الشائعة آنذاك، وتقيّدوا بها، ولم يحـاولوا التجديد فيها. وهم في نظرة شاملة تُلقى عليهم من مطلـع القرن إلى نهايته، على نوعين متميزين.

(*) د. يوسف عاد: الجامعة اللبنانية ـــ كلية الآداب ـــ الفرع الرابـع.

المؤرخون المحليون



الأول يتألف من الجماعة المحلية، المحدودة الثقافة والطموح، والمتغذية مما تجده بين أيديها من مصادر ومراجع ووثائق، فتتمثلها، على طريقتها الخاصة، وتخرجها حسب أسلوبها، وفي هذا القسم ترد أسماء كل من عبد الله الطرابلسي (؟ ــ ١٧٤١م / ١١٥٤هـ) وله «العقود الدرية في رحلة الديار المصرية»[١] وعبد الله قرألي (؟ ــ ١٧٤٢م / ١١٥٥هـ)، الذي ألف كتاب «تاريخ أساس الرهبنة الحلبية اللبنانية»[٢]، وموسى جرجس أبي نوفل (١٧٢٧م / ــ ؟ / ١١٤٠هـ) الذي ألف تاريخ العجم الأفغان[٣]. وأما أحمد علي المنيني (١٦٧٨ ــ ١٧٥٩م / ١٠٨٩ ــ ١١٧٢هـ) فقد وضع كتابه «الإعلام بفضائل الشام»[٤] وكتب توما اللبودي (١٦٨٧ ــ ١٧٦٩م / ١٠٩٩ ــ ١١٨٣هـ) سيرة «عبد الله قرألي»[٥] ومن آثار المطران يواصاف الدبسي (؟ ــ ١٧٦٩م / ١١٨٣هـ)، ترجمة حياة عبد الله قرألي»[٦]. وليواكيم المطران (١٦٩٦ ــ ١٧٧٢م / ١١٠٨ ــ ١١٨٦هـ) مخطوط «مختصر خبر رجل الله الفاضل والعالم الفيلسوف الكامل، الشماس عبد الله زاخر الحلبي»[٧]، أما محمد حسن شكر (؟ ــ ١٧٩٣م / ١٢٠٨هـ) فقد ألّف «كتاب الروضتين في أخبار بني بويه والحمدانيين»[٨]، وزين خليل الزين (١٧٤٧ ــ ١٧٩٦م / ١١٦٠ ــ ١٢١١هـ)، ألّف في تاريخ بلاده، كتابه «القبائل الداخلية على جبل عامل»[٩]، وليوسف مارون الدويهي، رسالة في تاريخ بطاركة الطائفة المارونية حتى وفاة البطريرك فيلبّوس الجميّل سنة ١٧٩٥م / ١٢١٠هـ[١٠]. وترجم خطار الدحداح وسليم البستاني كتاب «تاريخ فرنسا الحديث»[١١]، ثم جرجس زغيب (؟ ــ ١٧٩٩م / ١٢١٤هـ) وله «تاريخ عود النصارى الى جرود كسروان»[١٢]، والخوري مخائيل بريك الذي عاش في القرن الثامن عشر، وألف كتاب «تواريخ الزمان وزهرة أعاجيب الكون والأوان» ثم كتاب «الخلاصة الوافية في تاريخ بطاركة الكنيسة الأنطاكية من ١٥٣٢ ــ ١٧٦٧م / ٩٣٩ ــ ١١٨١هـ». وكتاب «حوادث زمانه في مدينة دمشق من ١٧٢٠ ــ ١٧٨٠م / ١١٣٣ ــ ١١٩٥هـ»[١٣]. وقسطنطين الطرابلسي، ومن آثاره «تاريخ دير رومية المعروف بنافجيلا من ١٧٢٩ ــ ١٧٧٢م / ١١٤٢ ــ ١١٨٦هـ»[١٤]، والبطريرك ديونيسيوس جروه (؟ ــ ١٨٠٠م / ١٢١٥هـ) وله «ترجمة حياته وأخبار رحلته من الموصل إلى بغداد»[١٥]، وسلوم الدحداح (؟ ــ ١٨٢٠م / ١٢٣٦هـ) وله «وصف رحلة الأمير بشير إلى مصر»[١٦]، وعبد الله طراد (؟ ــ ١٨٢١م / ١٢٣٧هـ) وله مخطوط بعنوان «تاريخ أساقفة بيروت»[١٧]، وحيدر الركيني (١٧١١ ــ ١٨٢١م / ١١٢٣ ــ ١٢٣٧هـ)، الذي ألف، في التاريخ المحلي، كتاب «جبل عامل في قرن»[١٨]. أما حنانيا المنير (١٧٥٧ ــ ١٨٢٤م / ١١٧١ ــ ١٢٤٠هـ) فله «رسالة في الاحتلال الفرنسي لمصر وسوريا»[١٩] و «تاريخ نشأة الرهبانية الشويرية»[٢٠]، «والدر المرصوف في حوادث الشوف»[٢١]، ولنقولا الترك (١٧٦٣ ــ ١٨٢٨م / ١١٧٧ ــ ١٢٤٤هـ)[٢٢] «تاريخ الحملة الفرنسية على مصر»[٢٣]، «وحوادث الزمان في جبل لبنان»[٢٤]، «وقصة أحمد الجزار»[٢٥]. والأمير حيدر (١٧٦١ ــ ١٨٣٥م / ١١٧٥ ــ ١٢٥١هـ) الذي ألّف كتابه «الغرر الحسان في تواريخ الزمان»[٢٦].

كانت معظم كتبهم في التاريخ المحلي والحوادث المعاصرة أو في التاريخ خارج بلادهم، وعُنوا بأخبار الأسر والحالة الاقتصادية والاجتماعية، واهتموا بالتاريخ العام. والملاحظ أننا أنزلنا بين هذه الأعلام من امتد به العمر إلى بداية القرن الثامن عشر لأن تكوُّنَ شخصيتهم حدثت في المرحلة التي تعنينا في هذه الدراسة، ومن المحال التوقف عند حد حاسم في أية دراسة أدبية.

المؤرخون المتخرجون من المعهد الماروني الروماني

أما القسم الثاني فيتألف من الجماعة التي تخرجت من المعهد الماروني الروماني، وعُنيت بكتابة التاريخ، كما عالجت فنوناً وعلوماً أخرى، تتراءى لنا من خلال دراستنا هذه، وتميزت هذه

الفئة بثقافة رفيعة بالنسبة إلى اللبنانيين المقيمين وإن لم تكن بالفعل ثقافة رفيعة بالنسبة لمضمون الكلمة، وبرز أثر اطلاعها في كل ما كتبته ولا سيما في الصفحات التاريخية، وأشهر الأسماء هي: أسطفان الدويهي (١٦٣٠ ــ ١٧٠٤م / ١٠٤٠ ــ ١١١٦هـ)[٢٧]، ومن مؤلفاته «تاريخ الأزمنة»، و «سلسلة بطاركة الطائفة المارونية»، و «تاريخ المدرسة المارونية»[٢٨] وجرمانوس فرحات (١٦٧٠ ــ ١٧٣٢م / ١٠٨١ ــ ١١٤٥هـ)[٢٩]، ومن مؤلفاته «تاريخ الرهبانية اللبنانية» وسلسلة بطاركة الطائفة المارونية[٣٠]، والخوري بطرس التولاوي (١٦٥٧ ــ ١٧٤٥م / ١٠٦٨ ــ ١١٥٨هـ) ومن آثاره كتاب «السيرة الرهبانية[٣١]، وسيرة توما الكمبيسي»[٣٢]. والخوري أغناطيوس نعمة (في أواسط القرن الثامن عشر) وله «ترجمة كيرثا وفيطس مطران صيدنايا» (١٤٣١ م / ١١٤٤ هـ) [٣٣]. ولسمعان عواد الحصروني (١٦٨٣ ــ ١٧٥٦م / ١٠٩٤ ــ ١١٧٠هـ)[٣٤] «بطاركة الشرق» بالاشتراك مع يوسف سمعان السمعاني[٣٥] ولهذا الأخير (١٦٨٧ ــ ١٧٦٨م / ١٠٩٩ ــ ١١٨٢هـ)[٣٦] «نبذة في بطاركة مدينة الله أنطاكية»[٣٧]. وترجم تاريخ ابن الراهب إلى اللاتينية[٣٨]. ويوسف لويس السمعاني (١٧١٠ ــ ١٧٨٢م / ١١٢٢ ــ ١١٩٧هـ) وله «تاريخ بطاركة الكلدان النساطرة»[٣٩]، وأسطفان عواد (١٧١١ ــ ١٧٨٢م / ١١٢٣ ــ ١١٩٧هـ) وله ترجمة «تاريخ ابن العبري» باللاتينية، وترجمة «سير القديسين الشهداء من شرقيين وغربيين» إلى اللاتينية[٤٠]، ويوحنا عجيمي (١٧٢٤ ــ ١٧٨٥م / ١١٣٧ ــ ١٢٠٠هـ)، ومن آثاره «تاريخ الكنيسة الأنطاكية»[٤١] والأب يوسف أشقر (القرن الثامن عشر)، ترجم من العبرية إلى اللاتينية كتاب «تاريخ سوريا للمطران الدبس»[٤٢]، وأتيان ورد (القرن الثامن عشر)، وله «أصل الموارنة» ألفه سنة ١٧٣٢م / ١١٤٥هـ، و «تاريخ عام» سنة ١٧٣٣م / ١١٤٦هـ، و «رحلة العباد» في ١٧٣٤م / ١١٤٧هـ[٤٣]، وأرسانيوس شكري (؟ ــ ١٨٠٢م / ١٢١٧هـ) الذي ألف «تاريخ الرهبانية اللبنانية»[٤٤]، ومما يجدر ذكره أن رجال هذه الفئة لم تكتف باللغة العربية في التأليف، بل اعتمدت أيضاً اللاتينية والإيطالية والسريانية في تآليفها، وغلب على كتاباتها الطابع الديني، فكتبوا في تاريخ الأديار والرهبانيات والسيرة الذاتية وأحداث الكنيسة والرحلات وترجمة الكتب العربية إلى لغات أخرى.

التنويه بالمؤلفات المفقودة

إن بعض مؤلفات هؤلاء العلماء ما يزال مخطوطاً، وبعضه الآخر مطبوع لكنه مفقود كـ «العقود الدرية في رحلة الديار المصرية» الذي أشرنا إليه و «كتاب الروضتين في أخبار بني بويه والحمدانيين «لمحمد حسن شكر» و «رسالة في أصل الرهبان في جبل لبنان» ليوسف سمعان السمعاني، وكتاب في «حوادث» (١٦٩٥ ــ ١٧٠٤م / ١١٠٧ ــ ١١١٦هـ)[٤٥] ليوحنا وهبي الدويهي، وعدد من المصنفات التاريخية محفوظ في المكتبات العالمية مثل «كتاب في عرب الجاهلية وأصلهم وتاريخ أحوالهم» ليوسف شمعون السمعاني (١٧٥٢ ــ ١٨٢١م / ١١٦٦ ــ ١٢٣٧هـ)، و «تاريخ الرهبانية اللبنانية» لأرسانيوس شكري.

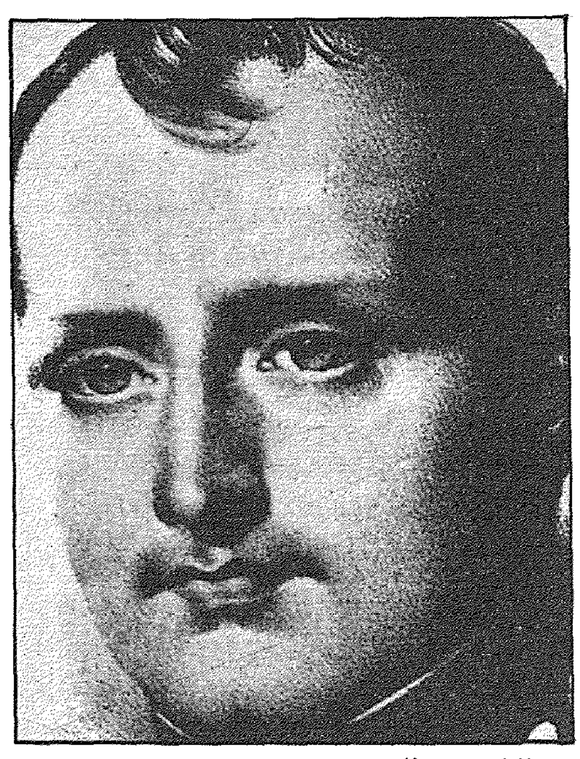
لقد فقد عدد كبير من الكتب في تلك العصور، لأن الطباعة لم تكن بعد رائجة، ولأن الظلم الذي كان يعم معظم أنحاء البلاد، لم يكن ليسمح للأدباء أن تبصر كتبهم النور لأنهم خبأوها خوفاً أن تتلفها يد الغباء والظلم. لكن كيف ذكرها المؤرخون والأدباء؟ لقد كان ذلك نقلاً عن كتاب رآه واصفه فخلده لنا في أحد مصنفاته، أو نقلاً عن رواية أحدهم. أو ذكره دون أن يذكر المصدر الذي أخذ منه. أما هؤلاء المؤرخون فقد عنونوا معظم مؤلفاتهم بما يدل على محتواها، ألفوا في الرهبانيات والكنيسة والدين لأن معظمهم من الكهنة الذين وردت أسماؤهم آنفاً، وكانت أخبارهم بعناوين «سير» و «تاريخ» و «أخبار» و «حوادث» ومعظمها أرخ حسب السنوات، فكان أحدهم يؤرخ ما يريد عن سنة معينة وعندما ينتهي منها يعقبها بالسنة اللاحقة، فيدون أخبارها، وهكذا حتى ينتهي من تأليفه، كما في «نبذة في بطاركة مدينة الله انطاكية» للسمعاني او «تاريخ نشأة الرهبانية الباسيلية الشويرية»

لحنانيا المنير. أو حسب الموضوعات كما في كتاب «شرح اليميني» لأحمد المنيني إذ اعتمد فيه على موضوع كتاب قديم، هو «تاريخ العتبي»، وكان بعضها في الحقبة التي سبقت المؤرخ، فأرخها معتمداً على المصادر والمراجع المتوافرة قديمة ومعاصرة، والآخر في الفترة التي عايشها معتمداً على المشاهدة أو الرواية والمراجع، وظهرت الرغبة في الاقتصار على جزء محدد أو موضوع معين، كسيرة شخص، أو نبذة عن بطاركة، أو تاريخ منطقة.

استنتاج

لقد كتبوا التاريخ لتخليد الذكر أو الأثر أو حباً بالتاريخ منحرفين عن الأدب إليه، فسد مسده مما زاد أهمية هذا العلم. من هنا وجب على المؤرخ أن يبتعد عن الهوى أثناء المعالجة لتصور كتابته الواقع، وكثيراً ما ارتبط التاريخ بالأدب، فلم يميز الكتّاب بين هذين الفنين، وتضمنت المؤلفات معلومات تعتبر مصدراً مهماً لمعرفة القرن معرفة صحيحة، كذكر الأحداث والروايات، والقصص، وافتقرت غالباً إلى الفهارس والهوامش التي توضح بعض الكلمات، وهذه خلّة تجعل من المتعذر الاطلاع عليها بسهولة، كما كرروا ما قيل بأسلوبهم في بعض الأحيان.

وأما مؤلفاتهم الدينية فهي صدى للمؤلفات الكنسية، والتعاليم الدينية المنتشرة خلدت حوادث وأخبار القرن بمختلف اتجاهاته. لقد افتقرت هذه الكتب إلى التعبير السليم في معظمها، لأنها كتبت بلغة مشحونة بالأخطاء، كما في «سيرة حياة عبد الله قرألي» لتوما اللبودي، وليس هذا فحسب، إنما كانت الكتابة بالعامية المحلية، مما جعل من المتعذر على القارىء، فهمها في منطقة أخرى. وامتازت مؤلفات خريجي المعهد الروماني الماروني بالأسلوب العلمي، الواضح، غير المعقد كما في كتاب «نبذة تاريخية في مدينة الله أنطاكية» ليوسف السمعاني، وطعّموا الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية، من خلال إتقانهم اللغات المختلفة، واطلاعهم على المؤلفات باللغات المذكورة، فبدا ذلك جلياً في إنتاجهم.



□ نابليون بونابرت

قد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن هذه الكتب ما تزال حتى اليوم مرجعاً صالحاً للطلاب والمتعلمين ينهلون منها بعض معارفهم، لدعم بعض آرائهم، أو للاطلاع على آثار السلف، فأغنوا التاريخ الحاضر متخذين من الماضي عبرة لتجنب الأخطاء ولإغناء التراث.

وسنعرض لواحد من هذه المؤلفات، مفصلين ما جاء فيه، محللين، مناقشين، مبدين الآراء، علّنا بذلك ننير كوّة منسية في تاريخنا، وهذا الكتاب هو: «جبل عامل في قرن» لحيدر رضا الركيني.

موضوع الكتاب ومضمونه
مراجعه
أسلوبه
خلاصة

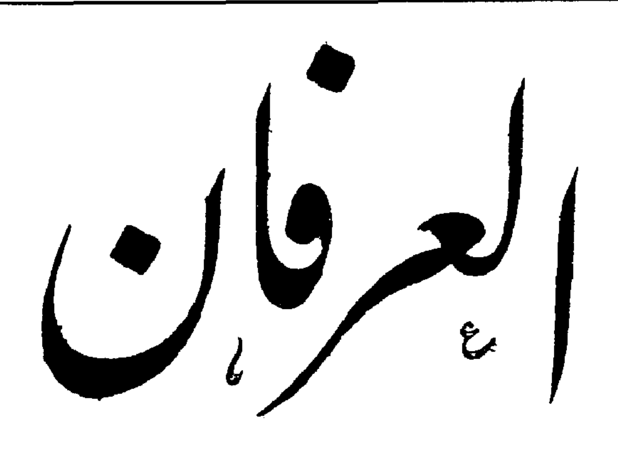
موضوع الكتاب ومضمونه

يضم الكتاب صورة عن حالات انتشرت خلال ذلك القرن كالأمراض والوفيات والحروب وسرقة القرى، ويتكلم على تآمر الحكام على أهل البلاد لإذلالهم، وقتل الأولاد بلا سبب، وسبي النساء(٤٦)، والأعراس والنزوح(٤٧)، واستقبال العلماء وتكريمهم(٤٨)، والاغتيال(٤٩)، وخنق

الناس وشنق آخرين[٥٠]، وتأثير الخرافات في الناس[٥١]، ووقوف المسيحيين والمتاولة صفاً واحداً ضد السارقين، والأعياد عند المسيحيين والمسلمين، والحج في رمضان[٥٢]، وبناء قرى جديدة والخوف[٥٣] والجوع[٥٤]، وذكر الأنبياء كمحمد وشعيب[٥٥] ويشير إلى الحوادث الطبيعية كالزلازل والصواعق والخراب وزحف الجراد وتلف المواسم[٥٦]، والحرائق، وخسوف القمر[٥٧]، ثم السياسية والحربية، مثلاً، هدم القلاع، والمعارك بين المناطق[٥٨]، وتحصيل الضرائب، وتولية الحكام وعزلهم، وعزل الأمراء[٥٩]، وأسر بعض الوجوه ونزول الافرنج في الموانىء، وقدوم الفرنسيين، وحصار عكا، وحصار الجزار ليافا[٦٠]، وعادة إطلاق المدافع عند رؤية الهلال في الأعياد، وعزل الأمير ملحم شهاب، وذكر ظاهر العمر وأبو الذهب[٦١]، وتولية يوسف الكنج على الشام، وتسلطن مصطفى عبد الحميد، وانتصار يوسف باشا على النصيرية، ومحاصرته لبربر آغا، ومجيء (عرب الوهاب)، إلى حوران، وسليمان باشا إلى الشام ومعه الدروز والمتاولة، وانتصارهم على يوسف باشا، وذكر محمد علي[٦٢]، وطرد الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط من الجبل، واللحمة بين عائلات جبل عامل وبعلبك، وعلاقة الجنوب مع عكا والشام[٦٣].

من خلال عرض المضمون لاحظنا أن بعض الموضوعات مهمة، تستحق الذكر وأخرى تافهة. وما ذكره الصبر والإيمان والابتعاد عن الرذائل إلا لأنها قضايا انتشرت خلال القرن الثامن عشر لانصراف الناس عن العمل إلى القعود لعدم وجود الأشغال، وقد يكون سبب ذلك الخوف والحروب التي غطت أغلب فترات القرن، فانصرف الناس إلى التأمل والتفكير فيما يفعلون، فدعوا إلى عبادة الخالق، والعزوف عن الأعمال السيئة إذ كيف يدعو الإنسان إلى الصبر والإيمان ولا يدعو إلى اجتناب الرذائل. أما ذكره للأمراض والوفيات فيرويها ضارباً الأمثلة عليها دون أي تعليق آخر لكنه يذكر قتل الأشخاص وشنق بعضهم الآخر دون إعطاء الأسباب، مما يضفي على النص صبغة السرد، كذلك الحديث عن الاجتماعيات كالأعراس، فحصولها يدعو إلى التفكير بالحالة الهادئة، لكن هذا عكس ما يعرف عن القرن، أما الحالات الأخرى كسبي النساء والنزوح، والاغتيال والسرقة، فمردّها إلى كثرة الحروب والغزو والضائقة المعيشية التي كانت تنزل بالناس، فالسرقة إن لم تكن لحاجة ماسة فهي آفة اجتماعية، وقد حلّلت الأديان أخذ حاجة الإنسان عند الضرورة دون اعتبارها سرقة، والنزوح آفة خطرة لكنه يصبح ضرورة عندما لا تعود مقومات العيش موجودة. يطلعنا المؤلف على كل هذه الأمور دون أن يتعرض للأسباب التي تدعو إلى هذه النتائج، لكننا من خلال هذا الاطلاع، ومن قراءتنا خلال السطور، ومن السرد يتبين لنا أن كل أسبابها الحروب، وفي الحروب ينعدم الأمن فيلجأ الناس إلى مكان أمين لحماية أنفسهم، من هنا كان النزوح الذي يُعدُّ أكبر مصيبة في خراب أي بلد كما يقول ابن خلدون في مقدمته، أما الخرافات، فتلك آفات اجتماعية تنتشر في المجتمعات المتخلفة التي يسودها الجهل، لأنها، لا تنتشر في البيئات المتقدمة، فيلجأ البسطاء إلى كشف «بختهم» لمعرفة ما سيحل بهم، خصوصا أنهم يعيشون في عصر انتشر فيه الفساد وانعدام الأخلاق. لكن بعض الحالات الأخرى تلفت النظر، وتدعو إلى التفاؤل، وذلك ليس لوقوف المسيحيين والمتاولة بعضهم إلى جنب بعضهم الآخر بل لمحاربتهم السارقين، إذ يوحي هذا الكلام أنهم يتعاونون، ولولا ذلك لما وقفوا ضد السارقين، والسارق يأتي عادة أثناء الليل، وهذه دلالة واضحة على التعاون والسهر للحفاظ على حياتهم وأمنهم معاً، وهذا نوع من الأمن الذاتي لفقدان الحكم العام الذي تتولاه الدولة. كذلك الحديث عن الأعياد عند الفريقين، وهذا دليل رخاء لكن كيف يفسر هذا الكلام مع وجود السرقة، أما الحج في رمضان فيشير فيه إلى الإيمان وصحة المعتقد، إذ ما هذا الإيمان والحروب تنتشر والناس تحج، إننا نستنتج من هذا أن الحروب لم تكن مستمرة إنما كانت تتوقف أحياناً فيستعيد الناس حياتهم الطبيعية، وما ذكر الأنبياء سوى دليل قاطع على الإيمان، أو لعله هروب من الواقع. وللحوادث الطبيعية نصيب وافر في كتابه كالزلازل والصواعق وزحف الجراد والحرائق وخسوف القمر، وهذه أمور

يتعرض لها كل شعب في مراحل الحياة، وليست وقفاً على جبل عامل. من هنا كان المثل القائل «عند انتشار الحروب تنتشر الآفات وتكثر المصائب». أما عزل الأمراء فشيء طبيعي، إذ إن بقاء الأمير يتوقف على دفعه الأموال المفروضة عليه، وإذا ما تقاعس أغضب الحاكم فأرسل له من يخلعه أو يخلعه بمرسوم، ويولي غيره، وهنا تحصل المزايدات في شراء الإمارة أو المنطقة، فيقع الشعب تحت ضغط الضرائب الباهظة التي كثيراً ما عجز عَنها، فثار على الحكام، وقليلاً ما كان يثور الشعب في تلك الأيام، فاضطر الحكام إلى تغيير الأمراء ولو إلى حين، أما الحرب بين المتاولة والدروز، فصراع دائم على النفوذ في منطقتين متحاذيتين، وكان للحاكم في



مجلة علمية أدبية اخلاقية اجتماعية

تصدر كل شهر عربي

لمنشئها

احمد عارف الزين

في صيدا

قيمة اشتراكها في صيدا ريال مجيدي واحد وفي الخارج ربع ليرة افرنسية

السنة الاولى ١٣٢٧

اغلب الأحيان ضلـع في هذا الخـلاف، فكان يحرِّض العائلات بعضها عـلى بعضها الآخـر ليتدخل في الصلـح فيفرض الضرائب، أو ليتحكم بالكل عندما يضعف الفـريقان، أمـا تحصيل الضرائب من الناس من قبل حاكم غريب فهو الدليل القاطـع على انقسام الناس وخلافاتهم، إذ لماذا يدفـع الناس لحاكم غريب عن البلد، ولمصلحة من تجبـى الأموال؟ لقد كان يأخذها الحكام الغرباء، ويتحكمون بالشعب الذي قرف الحالة، وكره الحياة، من هنا كان تضرعه لله، وهروبه من الواقـع الذي لا مفر منه. أما حصار المدن فهو تكتيك عسكري، هذا الحصار الذي كانت له نتائـج مهمة في التاريـخ، لأن انكسار نابليون، يدل على انحسار مدنية الفرنسيين عن بلد بكامله، وتغيير سياسة كانت مرسومة للشرق، لكن الكاتب يكتفي بالخبر كالصحافي الذي يأخذ صورة لمشهد من المشاهد، فيضعها في الصحيفة دون أن يعلق عليها، أما تذلل الأمير للحاكم، فيعني ذلك تذلل الشعب بكامله.

نستنتـج مما طالعناه أن الركيني وضـع كتابه ليصف أبناء بلده ومعاناتهم من آلام وآمال، آلام من الحكام وآمال إلى التخلص منهم مهما كانت الأسباب حتى ولو أدّت إلى نزوحهم عن بلادهم. وبصف إيمان أبناء بلاده وحبهم للحرية والتفاخر بالحروب والكرم، وبعض النواحي الاجتماعية.

من خلال هذه المعلومات المستفيضة نتساءل عن مصادر معلوماته وما مدى تطابقهـا مـع الحقيقة.

مراجعه

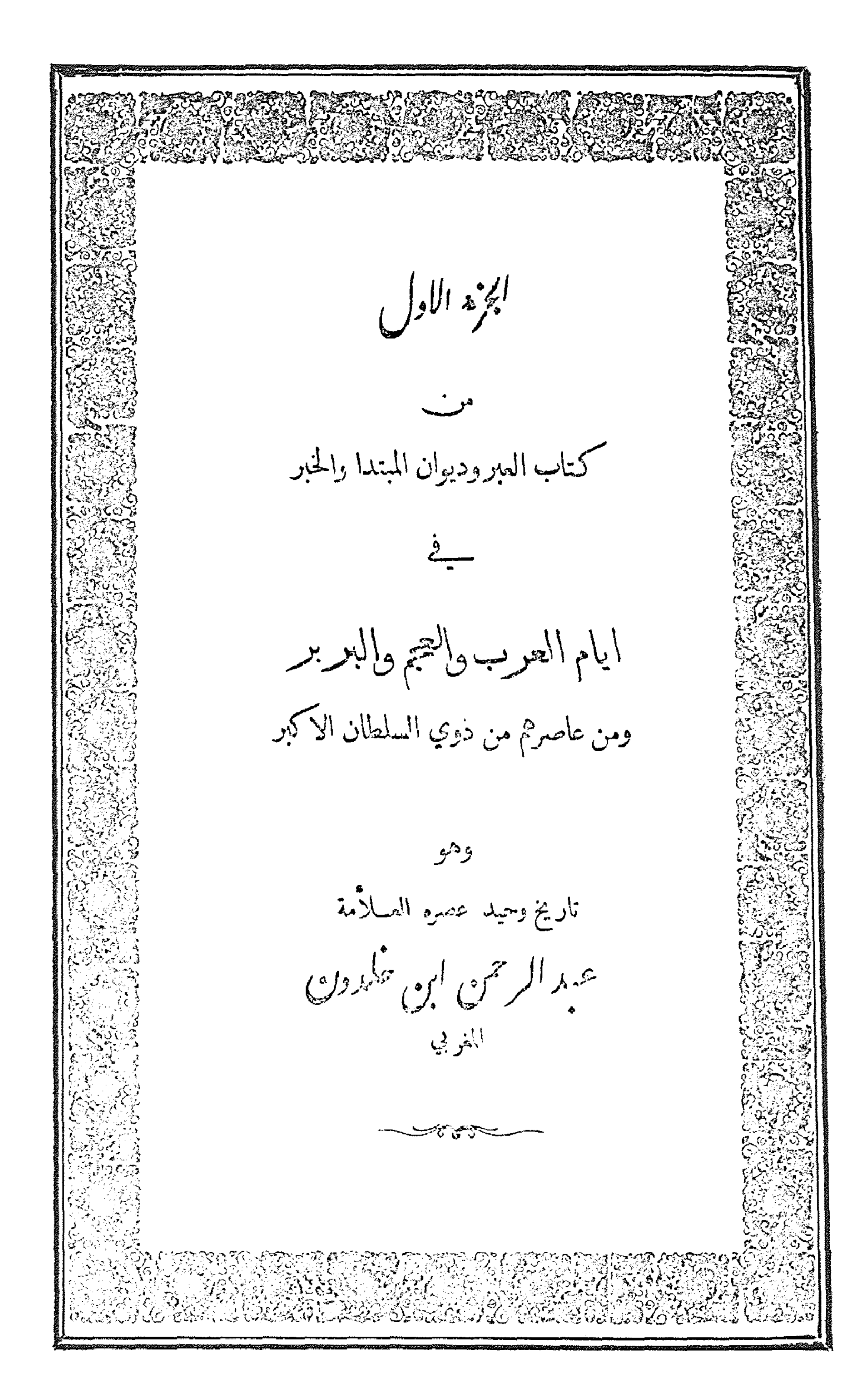
أما مراجعه فكانت اعتماده على الرواة[٦٤] وأحاديث الوجهاء[٦٥] والمشاهدة الذاتية[٦٦].

ويتبين لنا أن موضوعاته مستقاة من الواقـع، فهي تشرح حياة شعب مظلوم انتزعت حريته وعوامل معاملة سيئة فاضطر إلى هجرة قراه وتعمير أخرى آمنة، فالحروب التي لم تبق إنساناً في مكانه، إذ شتتت العائلة الواحدة، وفرّقت الأخ عن أخيـه، عـدا ذكـر بعض الخـوارق التي لا تصدق كما في قوله: «وقف رجل صدفة في مكان فأحس شيئاً يتحرك تحته، وسمـع صوتاً ينبعث، فحفر الأرض، فوجد فتاة حيّة فحملها إلى أهلها[٦٧]، أو ذكر البَرَد الذي تساقـط بحجم رأس الجمل[٦٨]، أو الريـح الأسود الذي كسر أغصان الشجر.

والكتاب لا يخلو من فوائد كتسجيل الأثـر وخلوده، والاطلاع على مستوى القوم وتفكيرهم وعاداتهم ومعتقداتهم وحكمتهم، وهو سجل حافل لحياة شعب بما يدور حوله من قيم أخلاقية كالقسم بالله، والتفاخر بالمواقف والحروب والكرم والاعتزاز بالماضي وانتصار فريق على آخر. ثم مساعدة المعوزين والضعفاء. كذلك الأمثال التي تحض على العمل الصالـح ويغلب عليها الطابـع الديني، وهي في مجملها بدائية، مثلاً تشبيـه النجم بالجمل. ونأخذ عليه تلك التفاصيل التي لا قيمة لها[٦٩]، وإيراد ما تقشعر له الأبدان، كذبـح الإنسان[٧٠]، ونعت بعض أهالي القرى بأنهم غافلون[٧١]، هذا عدا الانتقال فجأة من موضوع إلى موضوع آخر دون تمهيد. وعندما يبدأ بحوادث ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م يغلب عـلى كتابته الإيجاز الشديد، فقد كان أكثر ما كتبه من هذه السنة كفاتورة حساب، فلقد ملأ كتابه منذ التاريـخ المذكور بالموضوعات المقتضبة، وبالرغم من ذلك يبقى الكتاب نموذجاً عن تلك الفترة في التـاريـخ الذي مـا يـزال حتى الآن يكتنفـه الغموض لأن أغلبه ما يزال مفقوداً، وما تزال صورته مشوهة، إلا إذا جاء يوم عثرنا فيه على كتابات جديدة توضـح التاريـخ العـاملي عـلى حقيقته، ويعود هذا الغموض إلى أن العاملي كان يخاف أن تظهر مؤلفاته فيخبئها في الأرض أو في زوايا المنازل، أو يضطر أحياناً إلى الهرب، مما طمس حقائق كثيرة لو وُجدت مؤلفات عنها لقلبت الأوضاع رأساً على عقب، وما اتّباعهم الأمثال على السنة الحيوانات[٧٢] مقلدين ابن المقفـع، على الرغم من البعد الزمني، سوى دليل واضـح على ما نقوله.

لقد انحرف هؤلاء المؤلفون عن الأدب إلى التاريـخ، وبلـغ حبهم له حداً جعـل الركيني يـؤرخ مؤلَّفـه بالسنـوات الهجريـة والغربيـة والرومـيـة (١١٩٣هـ / ١٧٧٩م / ١١٩٢ روم)[٧٣].

أسلوبه



الجزء الاول

من

كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر

في

ايام العرب والعجم والبربر

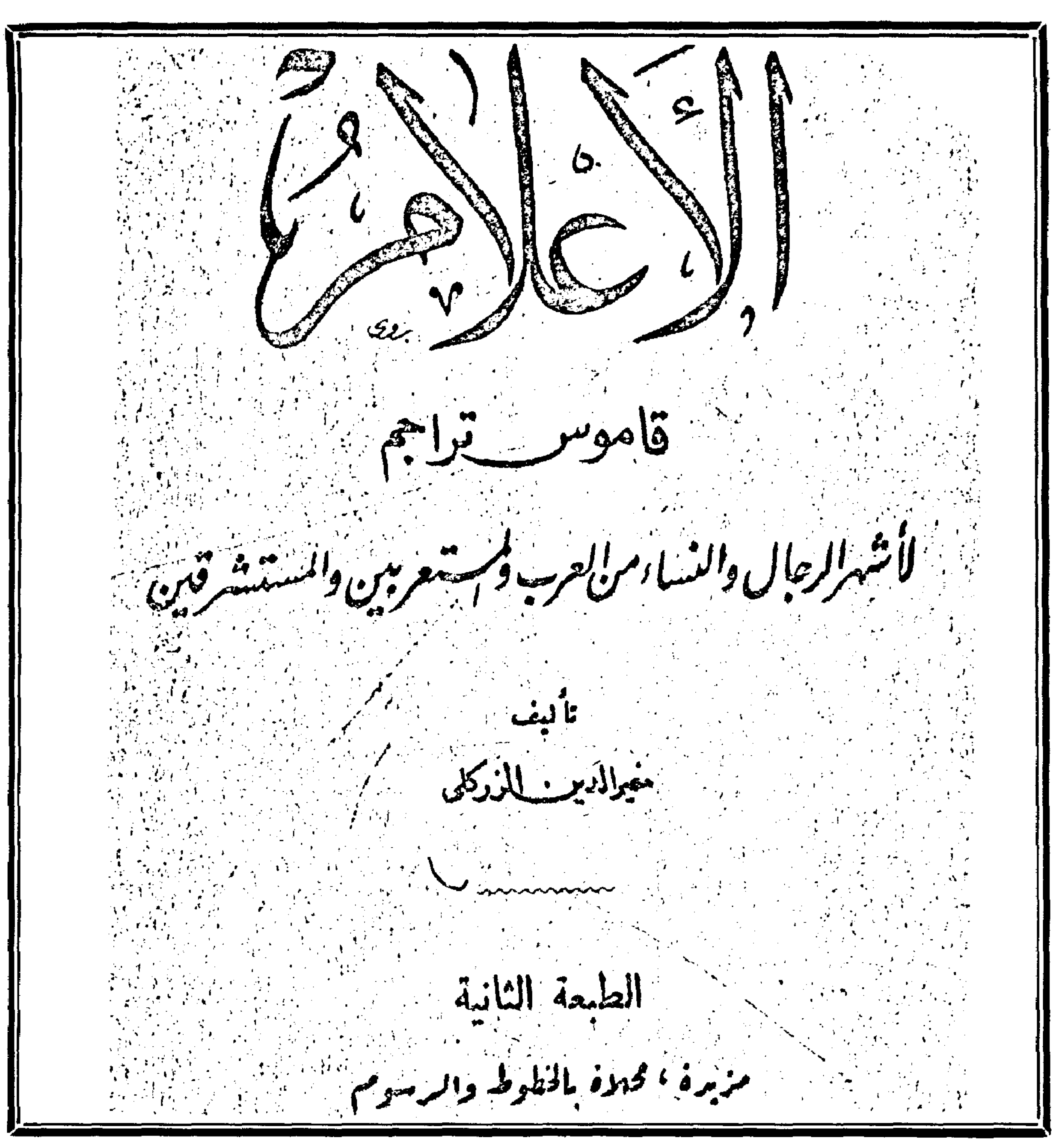
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر

وهو

تاريخ وحيد عصره العلامة

عبد الرحمن ابن خلدون

المغربي


الأعلام

قاموس تراجم

لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين

تأليف

خير الدين الزركلي

الطبعة الثانية

مزيدة، محلاة بالخطوط والرسوم

لم يكن المؤلّف مطبوعاً على الأساليب الفصيحة لأنه وجد في قرن لم يعرف الاستقرار، فغلب على تأليفه الطابع العامي المفصّح، المشحون بالأخطاء والتكرار المسجّع، المتأثر بالأسلوب القرآني، فكان اهتمامه منصباً على إيصال الفكرة إلى الناس، وكانت عبارته مقصّرة. في هذا المجال، مثلاً: «انتقال الحاج محمد حرب إلى رحمة الرب»(٧٤)، أو: «وصار الناس من الدولة يهربون، وفي كل واد يهيمون»(٧٥)، هذا عدا بعض العبارات التي أفسدت المعنى، وطبعت الأدب في ذلك العصر، مثلاً: «والغرارة العدس بقرشين إلا ربع، وغليت الأوطار حتى صار الوطر بربع قرش»(٧٦)، ومن خصائص أسلوبه التكرار الذي يظهر فيه التعبير المحلّي بوضوح: «وكبست الافرنج إلى مينة صور، فأخذوا ١٥ نفساً رجالاً ونساء»(٧٧)، أو «وفي هذه السنة جاء باشا الشام.... وفي هذه السنة ليلة الخميس.... وفي هذه السنة طلع سعد الدين»(٧٨).

خلاصة

وحتى الآن، وحسب المعلومات المدونة يمكن اعتبار هذا الكتاب، إلى حد ما، مثالاً على كتب

التواريخ المتوافرة في المكتبات التي تناولت القرن الثامن عشر. فقد أعطى فكرة واحدة عن كتب التاريخ المنتشرة في ذلك الحين، إذ سجّل الأحداث على اختلافها، في المناطق، عدا المفاخرة بين الناس، ثم تصوير جشع الحكام، وكشف ذلك للناس، وتصوير الحالة الاجتماعية والاقتصادية، وكأن هذه الكتب روزنامات عما كان يحصل، فهو مثال رائع عما كان يدور في زمن غُلّ فيه الفكر، وتحجّرت فيه عقول الحكّام ضد المتعلمين، لكن المؤلفين بالرغم مما كان يحصل، أعطوا ما ساعد على كشف الصورة الحقيقة بالوسائل والأساليب المتوافرة. ●

الهوامش

(١) الزركلي (خير الدين)، الأعلام ٤، ط ٣، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٤٩.
أديب، شاعر، ولد في طرابلس، ورحل إلى مصر، تنقل في بلاد الشام وسكن دمشق حتى وفاته.
الزركلي (خير الدين)، الأعلام ٤، ص ٢٤٩.

(٢) عانوتي (أسامة)، الحركة، المكتبة الشرقية، بيروت، ١٩٧١، ص ٢١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.
تعلم في طرابلس، واتقن اللغة العربية، تتلمذ على البطريرك سليبسترس سنة ١٧٤٢م / ١١٥٥هـ، ودرس عليه اليونانية نوفل (عبد الله)، كتاب تراجم علماء طرابلس، م مطبعة الحضارة طرابلس، ١٩٢٩، ص ٣٩، ٤٠.

(٤) Catalogue des manuscrits de la bbliothéque orientale, 176.
طرابلس الأصل، عالم، شاعر، كاتب، مؤرخ: المنيني (أحمد)، شرح اليميني المسمّى بالفتح الوهبي على تاريخ العتبي، ص ١ و٢، المطبعة الوهبية، ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م، ص ١.

(٥) المشرق ١٠، ص ٦٢٥، ٦٩٥، ٧٣٠، ٧٩٨، ٨٠٣.
هو تلميذ عبد الله قرألي، ترهب في ١٧٠٦م / ١١١٨هـ، وانتخب رئيساً عاماً في ١٧٣٥م / ١١٤٨هـ: المشرق ١٠، ٦٢٥.

(٦) فهد (بطرس)، تاريخ الرهبانية اللبنانية ٤، مطبعة الكريم، جونيه، ١٩٦٦، ص ٣٦٧، ٣٦٨.

(٧) عانوتي (أسامة)، الحركة، ص ٢١٥.
شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، مطبعة الآباء البوليسيين، بيروت، ١٩٢٤، ص ١٩١.

(٨) كحالة (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٩، مكتبة المثنّى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧، ص ٢٠٢.
الزركلي (خير الدين)، الأعلام ٦، ط ٣، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٢٣.
مؤرخ، من قرية قانا العاملية، قتله أحمد باشا الجزار، وأحرق كتبه: الزركلي (خير الدين)، الأعلام ٦، ص ٣٢٣.

(٩) فقيه، مؤرخ، ولد في قرية شحور، قضاء صور، تعلم بالنجف، قتله احمد باشا الجزار: كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٤، ص ١٩٢.

(١٠) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ١٠٣.

(١١) المشرق ٢٩، ص ٢٨٣.

(١٢) نشره وعلق حواشيه الخوري بولس قرألي.

(١٣) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ٦٠.
الكتاب معروف «بتاريخ الشام»: (١٥٢٠ — ١٧٨٠).

(١٤) كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٨، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧، ص ١٣٢.
الشويري، مؤرخ، توفي في أواخر القرن الثامن عشر: كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٨، ص ١٣٢.

(١٥) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ٨٣، ٨٤.
كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ١٣، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧، ص ٥٩.

(١٦) كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٤، ص ٢٤١.

(١٧) مخطوط موجود في المكتبة الشرقية.

(١٨) عانوتي (أسامة)، الحركة، ص ٢٠٨.
العرفان ٢٧، ٥٢٥.

(١٩) سيم كاهناً في دير ما يوحنا الصابغ (المشرق ٤، ص ٩٦٩).
المشرق ٢٩، ص ٢٨٢.

(٢٠) مخطوط موجود في المكتبة الشرقية تحت رقم ٢١.

(٢١) المشرق، ص ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١.
عانوتي (أسامة)، الحركة، ص ٢٠٠.

(٢٢) ولد في دير القمر، شاعر، مؤرخ.
كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ١٣، ص ١٨.

(٢٣) المشرق ٤٣، ص ٧٢.
المشرق ٢٩، ص ٢٨٥.
مخطوط موجود في المكتبة الشرقية تحت رقم ١٦٢.

(٢٤) عانوتي (أسامة)، الحركة، ص ٢٠١.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٢١٢.

(٢٦) نشره البستاني ورستم.
(٢٧) بطريرك، مؤرخ، ولد في إهدن، درس بروما، ودرّس بحلب: كحالة (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٢، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧، ص ٢٤٣.
(٢٨) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية ١، ص ١٠٢.
(٢٩) أديب، شاعر، لغوي: المنجد، الأعلام، ص ٥٢٢.
(٣٠) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ١٦١، ١٦٢.
(٣١) ولد في تولا، وتعلم في روما: المنجد، الأعلام، ص ١٩٦.
(٣٢) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ٧١، ٧٧، ٧٨.
(٣٣) المشرق ٢٢، ص ٨٨.
(٣٤) من طلاب المعهد الماروني: كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٤، ص ٢٧٩.
(٣٥) كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٤، ص ٢٧٩.
(٣٦) مؤرخ، من طلاب المعهد الماروني: كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ١٣، ص ٣٠٣، ٣٠٤.
(٣٧) عانوتي (أسامة)، الحركة، ص ٢١٧.
طبع بمطبعة انتشار الإيمان، سنة ١٨٨١م.
(٣٨) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ١١٧.
(٣٩) المرجع نفسه، ص ١١٨.
(٤٠) فهد (بطرس)، يوسف سمعان السمعاني، مطابع الكريم الحديثة، جونيه، لبنان، ١٩٧٣، ص ٥.
(٤١) ولد في جون، درس في مدرسة البروباغندا في رومية: سركيس (يوسف اليان)، معجم المطبوعات، مطبعة سركيس، مصر، ١٩٢٨، ص ١٣١١.
كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ١٣، ص ٢٦١.
المرجع نفسه، ص ٣٦١.
(٤٢)
Raphaêl (pierre), le rôle, Beyrouth, 1950, 151.
(٤٣)
Raphâl (pierre), le rôle, 171.
(٤٤)
Graf (George), Geschichite de christlichen, arabischan literatur, Citta del vaticana, Billi, Ap-v-1949, 146.
(٤٥) ذكر في كتابه الحوادث الشهيرة التي حدثت من سنة ١٦٩٥م / ١١٠٧هـ إلى ١٧٠٤م / ١١١٦هـ، قال: «إن النار اشتعلت ذات يوم في وادي قنوبين، وامتد لهيبها من تحت الحدث إلى بريسات، واستمر سعيرها سبعة أيام متوالية فأحرقت الأشجار، وتشققت الصخور، وأخذت تتدكرب، وفي أحد الأيام خرج البطريرك ينظر الحريق وبجانبه المطارين وبعض الكهنة والشمامسة وجمهور أناس، وبينما هم ينظرون انفصل صخر كبير من الشير الذي تحت بريسات وسقط نحو الجزيرة»
شبلي (بطرس)، أسطفان الدويهي، ص ٢٣٦، ٢٣٧.
(٤٦) العرفان ٢٧، ص ٥٢٧.
(٤٧) المرجع نفسه، ص ٨١٤.
(٤٨) المرجع نفسه، ص ٨١٥.
(٤٩) العرفان ٢٨، ص ٤٥٣.
(٥٠) العرفان ٢٩، ص ٦٨٠.
(٥١) العرفان ٢٨، ص ٩٥٣.
(٥٢) العرفان ٢٧، ص ٧٥٣.
(٥٣) العرفان ٢٨، ص ٨٣٢.
(٥٤) العرفان ٢٩، ص ١٨٧.
(٥٥) العرفان ٢٨، ص ٨٣١.
(٥٦) العرفان ٢٧، ص ٦٢٧.
(٥٧) المرجع نفسه، ص ٦٢٨.
(٥٨) المرجع نفسه، ص ٦٢٧.
(٥٩) العرفان ٢٩، ص ٣٠٤.
(٦٠) المرجع نفسه، ص ٦٨٠.
(٦١) العرفان ٢٧، ص ٨١٥.
(٦٢) العرفان ٢٩، ص ٦٨١.
(٦٣) العرفان ٢٩، ص ٦٨٢.
(٦٤) «وقتل من عسكر طرابلس قدر أربعماية على ما ذكر الذاكرون»:
العرفان ٢٨، ص ٤٥٤.
(٦٥) «أما أصحاب الكلام فهم من أكابر الشوف»:
العرفان ٢٨، ص ٨٣١.
(٦٦) العرفان ٢٩، ص ٩٥٤.
(٦٧) العرفان ٢٨، ص ٤٥٣.
(٦٨) العرفان ٢٧، ص ٨١٥.
(٦٩) المرجع نفسه، ص ٦٢٧.
(٧٠) المرجع نفسه، ص ٧٢٨.
(٧١) العرفان ٢٩، ص ٧٥.
(٧٢) المرجع نفسه، ص ٧٤.
(٧٣) العرفان ٢٨، ص ٤٥٤.
(٧٤) العرفان ٢٧، ص ٤٥٤.
(٧٥) العرفان ٢٩، ص ٧٥.
(٧٦) المرجع السابق، ص ٥٢٥.
(٧٧) العرفان ٢٧، ص ٥٢٦.
وفي سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م «لفا الوزير الأعظم إلى الشام مع جملة باشوات على قتال النصارى، وفي هذه السنة أروت الأرض» (العرفان ٢٩، ص ٦٨٠).
(٧٨) العرفان ٢٧، ص ٥٢٧.





إسرائيليات

«ان. بي. سي»: اسرائيل تساعد بريتوريا في إنتاج صاروخ نووي!



بثّت مؤخراً شبكة «ان. بي. سي» الأميركية للتلفزيون، ان اسرائيل تساعد جنوب أفريقيا في إنتاج صاروخ نووي طويل المدى. مقابل الحصول منها على يورانيوم مخصب لإنتاج رؤوس نووية، في حين نفت اسرائيل نفياً قاطعاً هذه المعلومات.

وذكرت شبكة «ان. بي. سي» نقلاً عن مصادر في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية «سي. اي. ايه»، أن إسرائيل أصبحت شريكاً كاملاً لبريتوريا.

وتقول تقارير منذ فترة طويلة، إن الدولتين تعكفان على مشروعات سرية مشتركة لإنتاج أسلحة نووية. ولم توقع أي من الدولتين على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية.

وقد أفادت تقارير منشورة، إن إسرائيل وجنوب أفريقيا ربما تكونان قد جربتا قنبلة نووية منذ عام ١٩٧٩، حين التقط قمر صناعي أميركي وميضاً غامضاً من المحيط الهندي، ولم يتأكد أبداً أن ذلك الوميض كان ناجماً عن انفجار.

وأوردت الشبكة التلفزيونية أن البلدين جربا أول صاروخ طويل المدى لهما في الخامس من تموز. وأضافت قولها إن الـ «سي. اي. ايه» أطلقت عليه اسم صاروخ «ارنيستون»، نسبة إلى بلدة صغيرة في جنوب أفريقيا قريبة من منطقة التجارب التي قيل إن الصاروخ أطلق منها.

ونقلت الشبكة عن وثيقة لوكالة الاستخبارات المركزية قولها، إن صاروخ «أرنيستون» سار مسافة ٩٠٠ ميل في اتجاه الجنوب الشرقي نحو جزيرة برنس ادوارد. وأضافت أن الوثيقة ذكرت أن شركة «أرمسكور»، وهي شركة لصناعة الأسلحة في جنوب أفريقيا، هي التي صنعت الصاروخ.

وقالت الشبكة إن شركة «أوردان» الصناعية، وهي شركة إسرائيلية يوجد مقرها خارج تل ابيب، وصفت بأنها الشركة التي لعبت الدور الأول في نقل التكنولوجيا التي استخدمت في صنع الصاروخ.

وتابعت إن مهندسين إسرائيليين يعملون منذ سنوات عدة في منطقة أوفربرغ للتجارب قرب بريتوريا. وأوضحت أن منطقة التجارب تضم مصنعاً للتجميع «أقيم وفقاً للنموذج الإسرائيلي لتستخدمه الدولتان». ولم توضح الشبكة ما إذا كان صاروخ «أرنيسون» قد أطلق من منطقة أوفربرغ للتجارب.

وقالت شبكة «ان. بي. سي»، إن وزير الخارجية الأميركي السيد جيمس بايكر على علم كامل بهذه الصفقة بين إسرائيل وجنوب أفريقيا، لكنه لم يحتج حين قابل وزير الخارجية الإسرائيلي موشي أرينز في ٢٧ أيلول الماضي، حتى على الرغم من أن نقل مثل هذه التكنولوجيا ينتهك العقوبات التي تفرضها الولايات المتحدة والأمم المتحدة على جنوب أفريقيا.

وأعلنت شبكة «ان. بي. سي» إن إسرائيل تحصل مقابل مساعدتها لجنوب أفريقيا، إضافة إلى الإمداد المستمر باليورانيوم، المخصب، على حق استخدام موقع منعزل لتجارب الصواريخ الطويلة المدى لتجربة رؤوسها النووية. ونقلت الشبكة عن مصادر في وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» قولها إن إسرائيل لديها الآن مخزون يتألف من ٢٠٠ رأس نووي. ●

مؤامرة لخلع نابليون بونابرت عن العرش

بقلم: لوسيان باكو　　　ترجمة: د. رياض العالي

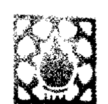


□ معركة «واترلو» كانت النهاية لنابليون بونابرت.

خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر التي اتسمت بازدياد قوة نابوليون بونبارت، كان عدد من رجال فرنسا البارزين يعقدون اجتماعات سرية في باريس. الغاية منها تحرير فرنسا من ظلم حاكمها المستبد. وكان يتزعمهم الجنرال سرفان، وهو وزير حربية سابق في عهد لويس السادس عشر وشخصية بارزة خلال الثورة.

وقد استبعدت هذه المجموعة فكرة محاولة زحزحة نابوليون عن عرشه باعتبارها غير عملية طالما أنه في ساحات حرب العالم لا يقهر. وقد اعتقدوا، على كل حال، بأنه لابد أن يأتي يوم لا يمكن لعبقرية نابوليون أن تصمد في وجه القوة المتزايدة للاتحاد أوروبي ــ وهم يريدون أن يكونوا على استعداد لمثل ذلك اليوم.

خطط سرفان وشخصية ماليه



كان الجنرال سرفان قد رسم الخطط لشكل الحكومة التي ستوحي بها جماعته الشعب في الوقت المناسب. ولكن سرفان توفي فجأة ووقع هذا المستند السري في يد الجنرال ماليه، وهو رجل مغامر ومجرد من المبادىء الخلقية. وقد شكل ذلك أساساً لحوادث ١٨١٢ التي هزت أقوى امبراطورية في أوروبا.

لم يكن هنالك ما يستحق الانتقاد في برنامج الجنرال سرفان ذاته. إنه يستند إلى شكل معتدل لحكومة برلمانية تضمن حرية حقوق الشعب وانتخابات حرة لمجلس نيابي. وسوف تحترم الحريات الفردية وتسترد حرية الصحافة. ولتحقيق كل هذا كان ينوي سرفان اقتراح إصدار مرسوم خاص من مجلس الشيوخ وإنشاء حرس وطني. فلو وقع هذا المستند في أيدي أشخاص مسؤولين لربما كان قد ساعد على أن يكون أساساً لجمهورية فرنسية حديثة. ولكن ماليه لم يكن رجلاً مسؤولاً.

لقد كان ماليه دائم التردد، شكس الأخلاق، راغباً أبداً في إصدار الأوامر، لا يحب إطاعتها، ويستغل مركزه بدون ضمير ليؤمن لنفسه السلطة والحصول على المال بأسهل الطرق معتقداً بأن ذلك من حقه. وعندما كان عام ١٨٠٥ آمراً لفرقة تحت قيادة الماريشال ماسينا ومركزه في روما، جمع ثروة من حماية مؤسسات غير شرعية تمارس ألعاب القمار أقامتها جماعة من المضاربين من أهالي مدينة نابولي. فقد كان يتقاضى ١,٤٠٠ كروناً رومانياً في الشهر بالإضافة إلى ٥٠ كروناً تدفع إلى زوجة أحد ضباطه. وكانت الشرطة المحلية التي تحاول بجد إقفال مثل هذه الأوكار غير قادرة على ذلك بسبب معارضته.

وعلى أثر نجاحه في عملية المقامرة، فقد حول ماليه اهتمامه إلى قطاع الشحن، وبدون أن يتلقى أي نوع من التفويض، فقد أمر جميع الربابنة الفرنسيين الذين يحمّلون بواخرهم في مرفأ يقع ضمن الولاية البابوية بأن يدفعوا له رسماً قبل مغادرتهم إلى فرنسا. ولما انكشف الأمر عينت الحكومة لجنة خاصة للتحقيق في هذه الفضيحة. وقد ثبت ذنب ماليه فأعفي من خدماته ريثما تتم التحقيقات التالية.

وعندما وصل إلى باريس في آب ١٨٠٧ ليجيب على الاتهامات التي اتصفت به كان ماليه يعلم أن وضعه ميؤوس منه. حتى أن الحكم عليه مهما كان خفيفاً كصرفه من الجيش، سوف يدعه بلا مال. فكان قد بذّر الأموال التي حصل عليها بالغش في روما. وبعد أن اتخذ شقة صغيرة في ٧٥ شارع سان بيير له ولزوجته وولده.كان معه بضعة ليرات ذهبية فرنسية فقط ليواجه بها مستقبلاً مجهولاً.

وبينما كان يفتش عن حل لمشاكله التقى بضعة أصدقاء قدماء من مسقط رأسه «دول». كان هؤلاء الرجال على شاكلته من المغامرين والمحتالين، وأعضاء في جمعية سرية تدعى «الفيلادلف». لم يكونوا جمهوريين ولا يعقوبيين، ولا يدركون حتى أهمية عملهم، وكان جل قصدهم، بأي وسيلة كانت، عادلة أو مشينة، الإطاحة بالامبراطورية النابوليونية. كان ذلك مؤاتياً لماليه. فقد عرف عن نابوليون بأنه يعتبر ماليه لصاً عادياً يستحق القصاص بدون رحمة ــ فكلما كان ذهاب نابوليون سريعاً كلما كان ذلك أفضل.

المؤامرة

فهذا إذن هو الرجل الذي وقعت بين يديه أوراق الجنرال سرفان الخطيرة ــ تلك المستندات التي أراد ماليه أن يحرفها لغاياته الشخصية. فالبرنامج نفسه يصلح لكي يكون طعماً لذيذاً للشعب. ويمكن تزوير مرسوم مجلس الشيوخ الذي يحتاج إليه لشرعية تغيير الحكومة وسيعلن فيه بأن نابوليون خارج على القانون وتلغى اللائحة التي صدرت معلنة أنه أصبح امبراطوراً، وبموجب هذا القانون نفسه يعهد إلى حكومة دكتاتورية تتألف من تسعة أعضاء تفوّض إليهم موقتاً حماية المصالح الفرنسية في الوطن وخارجه إلى حين يعرض على الشعب دستور جديد لإقراره. واعتقد المتآمرون بأن إعلان هذه الوثيقة المزيفة في الوقت الملائم على اعتبار أنها صدرت خلال جلسة سرية، تعطيهم الفرصة

للاستيلاء على السلطة قبل انكشاف خدعتهم.

وعندما توجه نابوليون إلى بايون ليجعل إقامته في قصر ده موراك في ١٩ نيسان ١٨٠٨ ظن المتآمرون أن الوقت قد حان للتحرك. وبما أنه ليس من المستطاع نقل البريد من وإلى بايون في أقل من أربعة أيام اعتقدوا بأنه في مقدورهم أن يقوموا بضربتهم بنجاح حتى قبل وصول الأنباء إلى نابوليون.

فجرى اجتماع سريع، ولكن نشأت الآن مشكلة جديدة. فالجنرال غيّوم، وهو ضابط متقاعد، والذي انضم مؤخراً إلى المتآمرين قرأ لأول مرة لائحة مجلس الشيوخ المختلفة التي حضرها ماليه، فوجد فيها عيوباً فاضحة دعته إلى طلب التأجيل.

فقد صاح بغضب قائلاً «ما من غبيّ يهضم هذا ورمى بالمستند على الطاولة. كل شيء متوقف عليه. فرئيس المجلس، ومدير الشرطة، وحاكم باريس، قد يكونون كلهم أغبياء، ولكنهم يفقهون شكل المراسيم وربما يعرفون التهجئة. والتزوير لن يكون فعالاً إلا إذا كان متقناً».

قنط ماليه وعاد إلى العمل. إنما في الوقت نفسه كان قد بلغ الامبراطور بطريقة مبهمة بعض الشيء عن وجود مكيدة، وإذا بشكوكه قد تأكدت في النهاية. وكان ماليه قد اتصل بالجنرال لوموان، وهو ضابط محترم ترك الخدمة الفعلية في الجيش سنة ١٧٩٤، وعرض عليه القيادة الداخلية لجيش الحكومة الدكتاتورية الجديدة. فتظاهر هذا بالقبول؛ ثم انه في ٨ حزيران ١٨٠٨ ابلغ عن المؤامرة إلى مدير الشرطة متهماً ماليه وغيّوم بأنهما على رأسها. فقبض على غيوم الذي اعترف ووقع تصريحاً ملقياً الذنب على ماليه وعدد آخر من الضباط ذوي الرتب العالية بمن فيهم كورنيل، غوبيه وغاريو.

عندما سمع ماليه عن الموقوفين أمضى ليلته تحت اسم لابوليه في فندق الشرق، ولكن عندما عاد إلى منزله في اليوم التالي ليطمئن زوجته تم القبض عليه. وقد بدأت الأسماء تتناثر. فذكر ماليه غوبيو وجاكمون من بين رفقائه. هذان الرجلان كانا من الأشخاص المرموقين والمعتبرين في الأوساط السياسية، وخشي فوشيه، الوزير المسؤول عن الشرطة، أن يذكر أشخاصاً آخرين من ذوي المقامات الرفيقة كأداة لحماية نفسه.

إن مثل هذه الإفشاءات قد وضعت فوشيه، وهو الدوق روترانت، في مركز حرج. فقد كان لمدة من الوقت صديقاً لعددٍ من أعضاء مجلس الشيوخ ــ ومن بينهم جاكمون ــ الذين كانوا يظهرون علناً ولاءهم للامبراطورية، وفي الوقت نفسه يعملون سراً على زعزعة أركان سلطتها ويشوهون سمعة الامبراطور. وقد كان فوشيه يشاطرهم الرأي وخشي الآن إذا تعمق في التفتيش عن الحقيقة في قضية ماليه أن ينكشف نفاقه.

فبالتالي، قام بالإقلال من أهمية القضية وفي ١٢ حزيران كتب إلى نابوليون مؤكداً له بأنه بعد إلقاء القبض على ماليه لم تطرأ تطورات جديدة تستدعي اهتمام الامبراطور أو تبرر تدخله.

على كل حال، لم يكن نابوليون حديث العهد بالدسائس التي تحاك حول العرش. حتى في بايون ليلة إعلان الحرب على البرتغال كان يتابع عن كثب حوادث باريس. فقد قرأ شهادة الجنرال غيليه التي أدلى بها أمام لجنة التحقيق والتي صرّح فيها الجنرال أن فوشيه أسرّ له «بأن نابوليون غبي ولا يفقه شيئاً من السياسة أو الديبلوماسية ويجب الإطاحة به حالاً». وكان عنده من الأسباب الأخرى ما يجعله يشك في خيانة فوشيه وقد أقنعته رسالة الوزير له بنفاقه. ولم يتصنع الامبراطور في كلامه عند الإجابة.

«لقد تسلمت رسالتك وقرأت شهادات غيليه وجاكمون التي أدهشتني جداً. إنها تثبت بوجه قاطع اشتراكهما في المؤامرة، وإني لا أشاطرك آراءك بأن مثل هذه الخيانة من تلك الجهات لن تزيد الوضع سوءاً، هذا الوضع الذي هو الآن سيء ومخيف. لن أسمح بعد الآن لأولئك الذين ساعدتهم أن يستخدموا مثل هذه الوسائل لكي يعيبوني في عيون الأمة التي لا أزال أحتفظ بثقتها. فأياً كان أولئك المتآمرون، إن عاجلاً او آجلاً، سينكشف أمرهم وينالون العقاب الذي يستحقون، لن يطلق سراح أحد من المساجين ما لم يظهر دليل يبرىء ساحتهم.»

لم يظهر على فوشيه أي قلق من هذا التوبيخ القاسي، بل تابع سيره العادي المتعرج حتى أن نابوليون، رغم ذهنه الثاقب، قد اختلط عليه



□ نابليون بونابرت، للفنان «غروس».

الأمر. ومـع أنه صرف من الخدمة بعد بضعة أعوام ونفي، فقد ظل أثناء ذلك يستغل وظيفته كرئيس للاستخبارات لمصالحه الشخصية. وهكذا فقد علم من أحـد المخبرين الأيطاليين ويدعى سوربـي بان ماليه، رغم فشله الأول لا يزال جامحاً في طموحه ولم تثبـط همته. ففي سجن «دولافورس» حيث كان محتجزاً هو والعديد من المشتركين معه في المؤامرة كانت توضـع خطط للفتن للقيام بمحاولة ثانية.

المؤامرة الثانية:

طبعاً لا يمكن لمثل هذه الخطط أن تكـون خطرة طالما لا يـزال المتآمـرون الرئيسيون في السجن. إنما بدأت تبدو سهلة عندما مرض ماليه في كانون الثاني ١٨١٠ واعيد إلى باريس وأدخل إلى مستشفى خاص: «نزل دوبويسون» فوبورغ سانت انطوان، وهنا، بالرغم من كونه لا يزال سجيناً، إلا أنه كان يتمتـع بالكثير من الامتيازات



□ الملك لويس السادس عشر.

التي كانت ممنوعة عنه ــ فاستخدمها بكل نشاط. لقد علم بسرور صرف فوشيه ودوبوا، مدير الشرطة. لقد اعتمدت باريس لمدة طويلة على هذين الرجلين من أجل أمنها وسلامتها. واستبدالهما برجلين من النبلاء هما سافاري وباسكييه، اللذان تنقصهما شراسة طبع سلفيهما وخبرتهما في قمع الحركات الثورية كان فألاً حسناً لنجاح هذه المغامرة الجديدة.

ففي هذه الأثناء أخذ يجمع مخططاته العملية الجديدة وأصبح نزل دوبويسون نقطة تألب لكل من له مظلمة ضد نابوليون. فكان دوكاتيل، المجرم المعروف، يزوده بقائمة المساجين السياسيين الذين ينتظرون المحاكمة والذين يعتمد عليهم لدعم أية محاولة ضد العهد الحالي. وكان جان ــ أوغست راتو، الكابورال في الحرس الباريسي، يعد أسماء ضباطه مع إعطاء المعلومات عن آرائهم السياسية. وقام أندريه بوتروه، الأستاذ الرفيع المقام بإعداد القرار اللازم وفقاً للإجراء البرلماني وأصبح أمين سر ماليه الخاص.

كانت هذه التعزيزات الطارئة بفضل كاهن يدعى الأب لافون التقاه ماليه في نزل دوبويسون كسجين مثله. وقد كان لافون قبل اعتقاله على علاقة بحركة ملكية ودينية أسسها ألكسي دو نويل. وقد أنشأ في بوردو طائفة من الأبرشيين المستقلين وتعهدت بدعم البابا في محاوراته مع

نابوليون وفيما بعد اكتسبت الكثيرين من المرتدّين في سائر فرنسا، وعلى الأخص من بين رجال الاكليروس وتلامذة الجامعات. وكان بين هؤلاء الأتباع دوكاتيل، بوتروه، وراتو الذين أتينا على ذكرهم، وقد وضعوا بتصرف ماليه بالإضافة إلى مهارته الملتوية والتعصبية.

لقد سار ماليه شوطاً بعيداً منذ ١٨٠٨، وحين ذهب نابوليون إلى روسيا سنة ١٨١٢، أدرك أن اللحظة الحاسمة أصبحت بين يديه. وكان لرئيس المستشارين كامبا سيريس الذي بقي ليدير الحكومة سلطة محدودة جداً حتى أنه لم يخول توقيع أي مرسوم. وفوق ذلك كان ضعيف الشخصية وعصبي المزاج مما يسهل إزاحته جانباً على يد الذين يتولون زمام السلطة. ومن الأهمية كذلك، أن الامبراطور تبعده عن العاصمة مسافة خمسة عشر يوماً ولم تعد تصل أنباء روسيا إلى باريس. فلا يمكن تصور ظروف مجتمعة أفضل من هذه. فلو أذيع على الشعب الفرنسي أن جيوشهم في روسيا قد اندحرت وبأن الامبراطور قد قتل فمن يستطيع إنكار ذلك؟

ربما تلقى البعض هذه الأخبار بفرح، والبعض الآخر بحزن، ولكن القلق سيعم الجميع. وخلال هذا الذعر والفوضى الناجمين عن هذه الرواية لن يكون هنالك صعوبة لفرض حكومة جديدة — وعلى الخصوص حكومة تقدم نفسها على أنها كانت قد تشكلت شرعاً وببرنامج سياسي عريض وسخي يكفي لاكتساب عطف الشعب.

واتباعاً لهذه الخطة الجريئة جرى تزوير قرار من مجلس الشيوخ مرة ثانية. كان المفروض أن يكون هذا الوثيقة الرئيسية للمحاولة الجديدة وقد استُهلّ بمقدمة ذات وقع في النفوس هي التالية:

«جلسة ٢٣ تشرين أول ١٨١٢

افتتحت الجلسة الساعة الثامنة مساءً برئاسة العضو سيباس.

بناء لدعوة لجلسة خاصة استمع المجلس فيها لقراءة رسالة تعلن وفاة الامبراطور نابليون التي حدثت تحت أسوار موسكو في السابع من الشهر الحالي.

وبعد التداول بهذا الحادث غير المنتظر عين المجلس لجنة للتشاور في جلستها الحاضرة بالإجراءات التي يجب أن تتخذ لإنقاذ البلاد من الأخطار الوشيكة التي تهددها...»

وتبع ذلك توصيات اللجنة المشكّلة بالتسعة عشر مادة «التي سنتها وأمرت بها». هذه التوصيات تلغي الحكومة السابقة وجميع مؤسساتها وتشكل حكومة مؤقتة مؤلفة من ١٥ عضواً يطلب منها تحضير مشروع دستور يعرض على الشعب في أسرع وقت ممكن.

وتمنح بالتالي هذه المواد عفواً عاماً عن جميع المساجين السياسيين، بمن فيهم المهاجرون، وتعيد حرية الصحافة، وتعين الجنرال ماليه ليحل محل الجنرال هولان بصفة قائد عام لجيش باريس مع تفويضه تعيين ضباط أركان الحرب؛ وإعطاء المكافآت ومنح خمسة وعشرين وسام فروسية إلى أولئك المواطنين الذي أبلوا بلاءً حسناً خلال الحوادث الأخيرة في خدمة الوطن. ولهذه الغاية تقرر سحب أربعة ملايين فرنكاً من الأموال الموحدة ووضعها تحت تصرفه.

لم يجر في المرسوم أي ذكر لكلمة «جمهورية». ومن الواضح أن ماليه لم يعد ذلك الجمهوري المتحمس السابق، بل الانتهازي الذي يبغي أبداً، بدون أي اقتناع، اتباع السبيل الأقل مقاومة. فقد دار بوجهه بعيداً نحو اليمين، وباختياره أعضاء حكومته المؤقتة، قد أعطى الأفضلية لعدد كبير من الملكيين الذين يستحسنون جهراً لفرنسا شكل الملكية المحدودة.

ولم يهمل ماليه الواجبات التي يجب على الجيش القيام بها. وفي أمره اليومي الذي وقعه بنفسه بصفته قائد جيش باريس أعطى أسماء الجنرالات المعينين للقيادات المختلفة. ومن بين هؤلاء الجنرال لاهوري والجنرال غيدال، وكان على كليهما أن يلعبا أدواراً كبيرة في المؤامرة، الأول كوزير للعدلية، والثاني كمدير للشرطة. فقد أُعطيا التفاصيل الدقيقة عما يجب أن يقوما به وكيف يجب أن يتعاونا للوصول إلى النتائج التي يرجوها الجميع.

ولم يكن معظم المشتركين مع ماليه على اطلاع تام بميكانيكية المؤامرة. فقد تذكر ماليه

بمرارة الإفشاءات السابقة التي أدت إلى سجنه وهذه المرة احتفظ بأسراره بطريقة أفضل. ومع أن الرشوة كانت سلاحه الرئيسي مع وعود بمنح الأوسمة والترقيات والمال إلى أولئك الذين استطاع شراء ادعاءاتهم، إلّا أن هؤلاء المجندين الجدد سيبلغون عن واجباتهم في الوقت الذي سيطلب فيه إليهم تنفيذها. فخطته في التغرير بالحكومة وبالشعب تعتمد قبل كل شيء على المفاجأة وكلما كان العالمون بها أقل كلما كان ذلك أفضل.

وفي هذا الجو من السرية لم يعد نزل دوبويسون يعتبر مكاناً أميناً للاجتماعات. فلهذا السبب تم استئجار ثلاث غرف في زقاق مسدود بعيد يدعى كول ـ دي ـ ساك سان بيير، وضع تحت يد القسيس الاسباني كوامانو. فهنا كان يجتمع المتآمرون بعد هربهم من المستشفى والعودة إليه من نافذة خلفية تترك مفتوحة بطريقة متفق عليها مع صديق من الحراس. وقد تم هنا رسم تفاصيل المؤامرة بكل دقة.

وقد كلفت مدام ماليه بصنع وتسليم البزّات التي كان على الجنرالات ـ الذين عينوا انفسهم ـ أن يرتدوها قبل ظهورهم أمام الجمهور. وقد تم شراء الأوسمة بسرعة ووزعت لكي تستعمل في هذه المناسبة. وقد أصبح ماليه الآن جاهزاً وواثقاً من نفسه. ولن يكون هنالك أخطاء هذه المرة.

في الحادي عشر من تشرين الأول ١٨١٢، وهو التاريخ المتفق عليه لتنفيذ المؤامرة زار بوترو مدام ماليه لأخذ الصندوق الذي يحتوي على البذلات النظامية والمعدات العسكرية الأخرى. فذهب بهذه الأشياء فوراً إلى مركز كوامانو في كول ـ دي ـ ساك سان بيير، ثم عاد إلى نزل دوبويسون لتناول طعام العشاء مع ماليه ولافون بانتظار ساعة الصفر: الثالثة صباحاً.

التنفيذ

كل شيء كان الآن جاهزاً ولكن عندما قام ماليه بدورة استطلاعية نهائية حوالي منتصف الليل روّع لأنه اكتشف بأن راتو، الكابورال في الحرس الباريسي كان حبيس الثكنة بسبب واجباته، وبما أنه كان على هذا الرجل أن يقوم بدور المرافق وبإنجاز بعض الأعمال الضرورية لنجاح المغامرة، لم يعد هنالك ما يستطاع عمله سوى تأجيل كل العملية لبضعة أيام.

ورغم خيبة الأمل بسبب هذا التأخير، فإن ذلك قد ساعد على الاستفادة، إذ تسنى للمتآمرين الوقت الكافي للاهتمام ببعض الأمور المنسية منها شراء أنشوطة للسيف الذي يجب على ماليه أن يتقلده برتبة لواء والحزام الذي يجب أن يتمنطق به مفوض الشرطة المزيف.

في الثاني والعشرين من تشرين الأول، كان راتو حراً وباستطاعته الانضمام إلى أصدقائه، بعد أن أتم عمله في الثكنة. وقد قابل في ذلك المساء بوترو وماليه ولافون، وذهب هؤلاء الأربعة إلى مركز كوامانو حيث عملوا حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل في إعادة كتابة التواريخ ووضع الأختام على الصكوك المختلفة التي ستكون برهاناً على حسن النية وثبات الشرعية. ثم فتح الصندوق وفرزت البزات والأسلحة النارية ووزعت. وبعد ذلك جلسوا يتحدثون ويأكلون ويشربون بدون أدنى خوف أو قلق، إلى أن دقت الساعة الثالثة وحان وقت ارتداء الألبسة للعرض.

ارتدى ماليه كامل بزته النظامية برتبة لواء؛ وراتو بزة كابتين، مرافق؛ وبوترو «الفراك» واضعاً نطاق مفوض الشرطة عبر صدره وعلى رأسه القبعة العالية الرسمية التي تم شراؤها حديثاً لهذه المناسبة. ثم غادروا مركز كوامانو كالعاصفة المصحوبة بالبرق والرعد ووصلوا بسرعة إلى ثكنة الحرس في شارع سان امبرواز. وكان مسرح المشهد الأول من الفصل الأول في هذه البناية. فأمر ماليه، بشخص الجنرال لاموت، ضابط الجيش المتقاعد منذ مدة طويلة، رجال الحرس لمرافقته إلى مركز القيادة. فلم يُعطَ الكولونيل سولييه الوقت ليتوقف ويفكر، وأُعلم عن موت نابوليون، وعن الحكومة الجديدة التي تولت السلطة، وعن ترقيته إلى رتبة جنرال، وعن مبلغ المائة ألف فرنك المقدمة له من الجنرال ماليه ليدفع به إلى الضباط الرواتب الإضافية المخولة لهم.



□ سافاري، دوق «روفيغو».

وأخيراً طلب إليه أن يضع نفسه في خدمة ماليه وأن يطيعه في جميع الأمور وفي جميع الأوقات. أعجب الكولونيل سوليبه بنفسه وابتهج لهذا الحظ السعيد فوافق بكل طيبة خاطر على الالتزام بالأوامر. ولما نجح الجنرال لاموت بدوره غاب عن الأنظار.

في هذه الأثناء كانت الجنود قد تجمعت في ساحة ثكنة بوبنكور، فأخذ بوترو كمفوض للشرطة وراتو كمساعد قائد بمناشدتهم ليكونوا قدوة للعالم بالولاء والإخلاص لوطنهم خلال أيام المحنة هذه. وأعادوا إلى هؤلاء الرجال ما قاله ماليه، بشخص الجنرال لاموت، إلى قائدهم. وقد انطلت الحيلة بسهولة على الجنود كما على ضباطهم ووجد ماليه الآن نفسه آمراً لقوة

مسلحة يمكنه الاعتماد ضمناً عليها. لقد ربح الشوط الأول بشيء قليل من المعارضة أو بدونها.

أما التحرك التالي فكان إخراج المساجين السياسيين، لاهوري وغيدال، من سجن لافورس اللذين كان يريدهما في خدمته بصورة خاصة. وعندما وصل إلى باب السجن بجنوده وحرسه أبرز أوراقه الثبوتية المزيفة فلم يجرؤ حرس السجن ولا البواب إبداء أية مقاومة. وخرج السجينان وهما لا يعلمان سبب الإفراج عنهما وفي نفسيهما شك في الدور الذي يجب أن يلعباه في المؤامرة التي لا يعلمان عنها شيئاً أيضاً، ولكنهما قبلا بدون سؤال هذه اللعبة التي أرسلتها الآلهة لهما. فارتديا ثيابهما ببطء، مما قد كان يجعل حريتهما في خطر، وأخيراً ظهرا بالملابس المدنية واستلما قيادة الجنود الذين عينوا لهما. وزحف الجميع للاستيلاء على وزارة الشرطة واعتقال مدير الشرطة. وكان على غيدال أن يعتقل أيضاً الجنرال كلارك ومساعد المستشار كامياسيريس واحتلال مجلس الشيوخ. هذه القبضة من الرجال كان عليها القيام بمهمة ربما كان تردد في تنفيذها فيلق من الجيش بكامله.

قويت ثقة ماليه بنفسه لنجاحه حتى هذه الساعة التي تغلب فيها على كل عقبة ولم تواجهه أية حركة معاكسة. فقد أصدر أوامره إلى كولونيل الحرس الباريسي الذي نفذها بكل طاعة وبكل سرعة.

أما حاكم مقاطعة السين، المستشار في الشيوخ، والرجل المعروف بمقدرته النادرة، فقد قبل بدون أي تحد، أن يستقيل من منصبه. وقد تم القبض على سافاري، وزير الشرطة، وباسكييه، مدير الشرطة، وديماريه، موظف كبير في الحكومة ولم يرفع أي اصبع للدفاع عنهم. وكان ماليه محقاً بارتياحه لما قام بتحقيقه ولكن أصبح عليه الآن مواجهة التجربة الحاسمة. فظفره النهائي أو موته متوقف على ردود فعل اللواء هولان قائد عام جيوش باريس والفرقة العسكرية الأولى. كان هولان من الذين أبلوا بلاءً حسناً عند سقوط الباستيل وخلال أيام الثورة العاصفة وعرف ببسالته كجندي وباستقامته كرجل. ويدرك ماليه بأنه محنك لا يخدع، ولا يخاف، ولا يرتشي. وعندما تقدم ماليه إلى ساحة فاندوم رقم ٧ حيث يسكن هولان مع زوجته بالقرب من مركز أركانه، قرر أن تكون المقابلة قصيرة وحاسمة.

ولما جوبه هولان بالأوامر التي قبلها غيره بدون تردد، توقف فجأة وسأل بكل أدب: «هل يمكنني الاطلاع على مرسوم مجلس الشيوخ؟ فأنا لا أستطيع تسليم قيادتي بدون تفويض حق.»

فلوّح ماليه بالوثيقة المزورة تحت أنف هولان قائلاً: «إن تأخرك يعرض البلاد للخطر يا سيدي».

إن مثل هذا التبجح كان للآن كافياً، ولكن هولان بقي غير مقتنع. فانتزع الأوراق من يد ماليه وأخذ ينعم النظر فيها بدقة. وإذ بماليه يمسك بمسدسه لأنه يعلم بأن ما من أحد له إلمام بالممارسات البرلمانية يخدع إذا تفحص هذه الأوراق بدقة. لقد اعتمد على عنصر المفاجأة لينفذ الخداع. فإذا فشل بذلك فشلت المؤامرة بكاملها.

ثم أضاف هولان ببرود: «لا أستطيع قبول ذلك بدون تدقيق آخر» وأعاد المرسوم الزائف. هذه الكلمات كانت خاتمة مصيره. فأطلق ماليه النار وبدون توقف ليتأكد إذا كان هذا الرجل الذي وقع تحت قدميه مات أم لا يزال حياً، خرج مسرعاً ليحاول مداواة هذه النكسة.

فأصبح من اللازم عليه الآن أكثر من أي وقت مضى أن يتسلم قيادة الجنود بسرعة. فإذا انتشر خبر معارضة هولان — والجريمة التي قام بها — يفقد كل شيء فأسرع للبحث عن دوسيه، رئيس أركان حرب الجيش، إذ أنه كان يعتمد على هذا الرجل الذي لم يفضِ إليه إلاّ ببعض اسرار المؤامرة. فاقترب منه بثقة علم حالاً بأنها لم تكن في موضعها.

أما دوسيه فأخبره ببرود: «لا أستطيع عمل أي شيء بدون هولان. لنذهب إليه معاً.»

وللمرة الثانية امتدت يد ماليه إلى مسدسه، ولكن دوسيه، الذي كان يحترس من حماقات ماليه السابقة كان أسرع منه. فأمسكه من عنقه وتولى مساعده تجريده من سلاحه ثم دخل الحرس الذين كانوا فى الغرفة المجاورة وأسرعوا

باعتقاله. كانت الساعة عند ذلك الثامنة صباحاً. لقد ربح ماليه أربع جولات في محاولته الوصول إلى السلطة. ولكنه فشل في الجولة الخامسة والنهائية.

هذا الرجل الذي لم يكن لديه من سلاح سوى الخداع والأخبار الكاذبة، والذي لم يكد يعلم به أحد، وبدون مال أو صلات جدية كان على مقربة من الإطاحة بامبراطورية تضم أكثر من مائة وعشرين مليون نفساً.

أما الأشخاص الذين لم يتعرض المتآمرون إليهم أو لم يظهروا أي ميل نحو العصيان فقد أخذوا الآن يفكرون ملياً بواقع الحال الذي لا يصدق فكيف سمح أولئك الذين أوكلت إليهم حماية العاصمة والمواطنين، كيف سمحوا لأنفسهم بأن يخدعهم مغامر عادي، وأن يُجرّوا من فراشهم ويلقون في سجون لافورس بدون احتجاج أو اعتراض. ولم يمض من الوقت إلّا القليل حتى كانت هذه الحادثة المضحكة موضوع الظرافة الباريسية.

وعندما كتبت الملكة هورتانس، ابنة الامبراطورة جوزفين وزوجة لويس بونابارت ملك هولندا، إلى ولدها الأمير أوجين، ألقت ضوءاً على حالة باريس ذلك اليوم، فقالت: «إنك قد علمت الآن عن المغامرة الباريسية. إننا جميعاً نتوق إلى معرفة كيف سيتلقى الامبراطور هذا الأمر. لقد أصبح البوليس مادة مضحكة في المدينة وما نسمعه من ثوريات ونكت في جميع الأمكنة هو عنوان الظرافة والتسلية. إني أمتنع عن إعادتها لأنها سوف تؤذي الذين أحب حمياتهم.»

وفوراً على الأرجح بعد «الضربة» الفاشلة، سيق ماليه مع ١٤ من شركائه بالجريمة أمام لجنة عسكرية وحكم عليهم بالإعدام بتهمة الخيانة. وعند مغادرته قاعة المحكمة خاطب ماليه رفاقه السجناء، لاهوري وغيدال قائلاً بصوت مرتفع: «إنكم تندبون مصيركم وكأنكم تخافون الموت. تذكروا أنه خلال ستة أشهر ستنهال على الامبراطورية ضربات أقوى وأكثر فعالية.

ومع ان ذلك كان صحيحاً فمن المشكوك فيه أن تكون كلماته قد آست المتآمرين الذين أعدموا رمياً بالرصاص بتاريخ ٢٩ تشرين الأول في سجن «لاباي» في سهول غرينبل. وقد رفضوا جميعاً أن تعصب أعينهم ولم يكن عند أحد منهم كلمة أخيرة يقولها. حتى في هذا الوقت لم يكشف ماليه عن حقيقة إخلاصه ـــ إن كان عنده إخلاص. جمهوري سنة ١٨٠٨، ملكي في ١٨١٢، إنما بقي حتى النهاية بكل بساطة مجرد «ماليه».

بعد أن مات هؤلاء الرجال، أخذت الجماهير التي احتشدت لتشاهد عملية الإعدام تهتف مكررة عبارة: «عاش الامبراطور»! ومن الصعب تصور مشهد أكثر سخرية لآخر فصل من هذه المأساة التي انتهت حتى قبل أن يعلم بها نابوليون. وبما أن المواصلات بين فرنسا وروسيا كانت عملياً منقطعة فلم تصل أخبار حوادث باريس إليه إلّا في ٦ تشرين الثاني في ميكاليوسكا. وسلسلة المواقع المعروفة بالبيريزنيا والتي فتحت له أبواب سميرغوني أخرت سفره إلى العاصمة مدة شهر آخر.

عاد نابوليون إلى باريس بعد رحلة دامت ١٤ يوماً وقد أسرع في التقدير بأن المؤامرة لم يكن أساسها الجاكوبيون ولا الملكيون. لذلك أحب أن تترك هذه القصة جانباً وفي عالم النسيان بأسرع ما يمكن. فإن ما نشأ عنها هو ضعف الهيكلية الإدارية التي وضعها، وقد أخذ يشغل نفسه بمحاولة تقوية أساس امبراطوريته والسلالة الملكية التي كان يحلم في إنشائها.

إنه لضرب من التخمين ان نعلم بماذا كان يعتقد. فالمؤامرة لم تزعجه بشكل بارز. إنما الشيء الذي أقلقه هو أنه في وقت الأزمة لم يعر أحد أقل فكرة تتعلق بولده، خليفته الطبيعي. فعندما أزيع خبر موته المزعوم لم يرتفع ولا صوت واحد يقول: «مات الامبراطور! عاش الامبراطور!».

إن مؤامرة ماليه، رغم كونها غير بارعة وعملاً غير متقن، فقد حطمت إيمان نابوليون باستمرارية السلالة الملكية التي حاول جاداً أن يؤسسها.

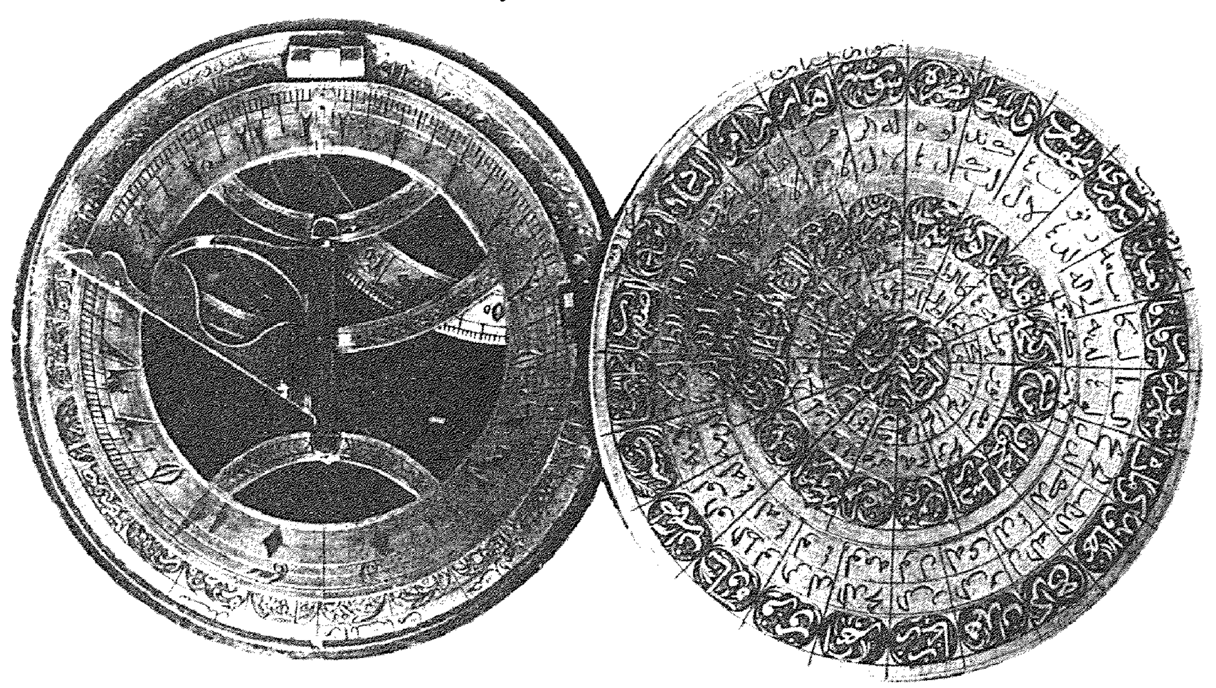
●



الاكتشافات الكبرى

زمن الأيبيريين (الإسبان والبرتغاليين)

إعداد: رغدة النحاس الزين



□ الاسطرلاب الوسيطي أداة لقياس مسافات النجوم وقد اقتبسه الملاحون المسيحيون عن العرب.

إن أولى الرحلات التي تمت على امتداد الشاطىء المغربي والصحراوي بدأت بواسطة السفن الشراعية العائدة إلى القرون الوسطى. صحيح أن هذه السفن قد طوِّرت بإضافة سارية إلى مقدمتها مزودة بشراع ثلاثي الشكل، ولكن بالرغم من هذا التطوير اتضح أن سرعتها غير كافية.

ولحسن الحظ استبدلها البرتغاليون بالكارافيل، والكارافيل عبارة عن مراكب ذات أحجام متوسطة تتفرد بأن أشرعتها المربّعة الشكل والمثلثة الشكل نظمت بمهارة متقنة، كما أنها تتميز بمقدمة حادة.

هذه الابتكارات المترافقة جعلت منها مركبة سهلة الاستعمال تتيح الملاحة المتلوية في فترات الريح المعاكسة. وهذا ما أعطاها شكلاً يجمع بين خصائص المركب الطويل الشكل والمركب المستدير. إضافة إلى ذلك أصبحت هذه المراكب الشراعية الصغيرة، البطيئة الحركة، أداة ممتازة للاستكشافات. كما لاحظ ذلك P. chaunu في كتابه «الأميركتين» «لقد أوجدت أداة الفتوحات في البرتغال أولاً ثم في نيبلا».

الملاحة العلمية



فكما ان كبار الملاحين الأوائل استخدموا وسائل القرون الوسطى، الكلاسيكية، فإنهم لم يلجأوا إلّا إلى المعارف التجريبية في مضمار الفن الملاحي. صحيح ان كلمة تجريبية لا تعني «التدني» لأنه ليس من الضروري التمكن من معرفة الملاحة الفلكية للقيام برحلات طويلة.

«ليس ثمة حاجة البتة لتقنية علمية رفيعة، عندما يكون المرء متمتعاً بمجموعة من الخبرات التجريبية البالغة حدها الأقصى في حسن الأداء. بل غالباً ما يكفي وجود تراكم من المكتنزات ومن الحيل والتعليمات المتناقلة شفهياً، والمتوارثة أباً عن جد والتي تؤدي عادة إلى نتائج مدهشة...» (J. Meyer في «الأوروبيون والآخرون»).

إلا أن هذه الملاحة التجريبية لا توفر إمكانيات بقدر ما توفره الملاحة العلمية. وقد ظهرت هذه الأخيرة في نهاية القرون الوسطى بفضل التقدم في مضمار الرياضيات. وهناك دراسة لـ R.A. Goldth Waite بينت كيف أن الجزء الأكثر أهمية في مجال التدريس في فلورنسة هو تعليم الرياضيات التجارية في مدرسة تعليم الحساب Scula ol'abacco. لقد شجع هذا العلم ظهور علوم أخرى، ضرورية للملاحة العلمية.

وفي نهاية القرن الرابع عشر، كانت مراكب «المسيحية اللاتينية» تمخر عباب البحر المتوسط مثلما تمخر عباب جزء من الأطلسي ومعه بحري الشمال والبلطيك. لكن الغرب المسيحي، حتى مع امتداداته الافريقية أو امتداداته نحو الشرق ـــ الأوسطية ليس هو إلا «أحد أهم العوالم في مجموعة العوالم ـــ الجزر المنفصلة» (P. chaunu).

ولحسن الحظ أخذت أعمال بعض الملاحين الكبار، الباهرة، في خرق العزلة الاقتصادية لهذه العوالم بواسطة الانتشار الأفقي (بالمعنى المكاني) للمسيحية اللاتينية.

لماذا هذه الاكتشافات

««استطاع كريستوف كولومب، ذلك الماهر في علم الفلك والبحرية، أن يضع مخططاً لاكتشاف ارض جديدة إما بواسطة دراسته أو بواسطة ما اكتسبه من معارف من المجلات، أو بفضل تقديرات أحد المرشدين البحريين الذي كان قد اقترب من هذا الاكتشاف دون أن يبلغه».

وفي وقت مبكر أدرك المؤرخون أن الاكتشافات الكبرى التي لا يمكنها أن تتأتى من الصدفة وحدها تنجم عن عوامل عديدة ملائمة: من هذه العوامل نذكر استعمال الكارافيل وتقدم الملاحة العلمية، وهناك عوامل سياسية وجغرافية واقتصادية لا سيما عامل البحث عن التوابل.

فن رسم الخرائط

ولد هذا الفن على ما يبدو في جزيرة صقلية حوالي القرن الثاني عشر وقد عرف هذا العلم تطوراً ملحوظاً في مدينة جنوا، وفي نهاية القرن الثالث عشر اكتسب المزيد من تطوره بفضل إسهامات cata Cogne و Majonque. فلقد أجرى هذا المركز الجديد للدراسات تحسينات هامة في مفهوم الخرائط، إذ أصبحت الخريطة تحوي العناصر الأساسية الموجودة في كل بلد في الوقت الذي اقتصرت فيه الخرائط الايطالية على الطابع الهيدروغرافي فقط.

هذا وإن وجود علم الخرائط الملاحي ضروري جداً من أجل الملاحة. وإننا نتأكد من ذلك عند إجراء المقارنة بين استعمال البوصلة عند العرب وبين استعمالها عند الأوروبيين في العهد نفسه. فبالنسبة للعرب (مع أنهم الفوا استعمالها قبل الغربيين بزمن طويل) لم تكن تستعمل إلا للرصد الجوي، أما بالنسبة للغربيين فقد كانت البوصلة اكتشافاً أساسياً يتيح تحديد اتجاه السفينة.

ومع الوقت، أتقنت الخرائط أكثر فأكثر، وتوضح ذلك المقارنة بين الخريطة الكاتالانية النصفية، حوالي عام ١٤٥٠ وبين خارطة الكرة الأرضية المسطحة حوالي عام ١٥٩٠. في الحالة الأولى نلاحظ أن الاهتمامات العلمية غالباً ما تعطي الأولوية إلى الغايات الفنية والمعتقدات. فتتمثل المحيطات مثلاً بتموجات، كما نميز على القارات وجود عدد من الأشخاص (ملوك أفارقة تحت خيمهم) ينتمي بعضهم إلى عالم الأساطير مثل الكاهن جان في أثيوبيا. أما في الحالة الثانية

تصبح الخريطة أكثر دقة، إننا لا نجد أشخاصاً بل نجد علامات مثل التربيعات والمقاييس وأسماء المرافىء والنتوءات، والخلجان، والخطوط المدارية والاستوائية، لقد أصبحت الخريطة الوسيلة الحقيقية للعمل.

الملاحة الفلكية

لقد أبدى المكتشفون جرأة على المغامرة عبر المسافات الممتدة في البحر (أو في الرمال بالنسبة لرحالة البر) فذلك لأنهم قادرون على إيجاد نقاط استدلال فلكية، وفي الواقع بما أن البرتغاليين كانوا يصادفون تيارات مجهولة في المحيط الأطلسي حوالي منتصف القرن الخامس عشر أخذوا يفكرون باستعمال نقاط استدلال لتأكيد اتجاههم. وهذا ما دفعهم منذ عام ١٤٨٠ للجوء إلى جداول فلكية مبسطة وإلى حساب خطوط العرض عن طريق قياس ارتفاع الساعة الشمسية بواسطة الاسطرلاب. غير أن هذه الأدوات لم تكن من اختراع البرتغاليين لأن أولى الجداول الفلكية التي كانت موجودة في اسبانيا عرفت باسم الجداول الألفونسية، والاسطرلاب الذي اخترعه هيبارك عائد إلى العرب الذين اقتبسوه بدورهم من الصين كما يبدو، فأدرجوه في الغرب بعد أن كان مهملاً.

وبفضل أوجه التقدم هذه، أصبح بالإمكان تحديد خطوط العرض بصورة دقيقة حقيقية، بيد أن الملاحين لم يتمكنوا دائماً من حساب خطوط الطول. إن التقنية المستعملة في ذلك العصر كانت تقضي بالعودة إلى مستوى خط العرض المتمثل بأحد نقاط الاستدلال الأرضية المعروفة ومن ثم، وبعد التأكد منه، توجيه السفينة إما باتجاه الشرق أو باتجاه الغرب. علماً بأن كريستوف كولومب قد عاد إلى أوروبا بفضل هذه الطريقة عام ١٤٩٢. ولم تحل مشكلة خطوط الطول تماماً إلا في القرن الثامن عشر مع ظهور الكرونومتر (مقياس الوقت) ولكن قبل استعماله كانت توجد طريقة تدل على تقدم حقيقي هي طريقة المسافات القمرية (المقارنة بين حركة كوكب متحرك كالقمر بالنسبة إلى كواكب مثل النجوم).

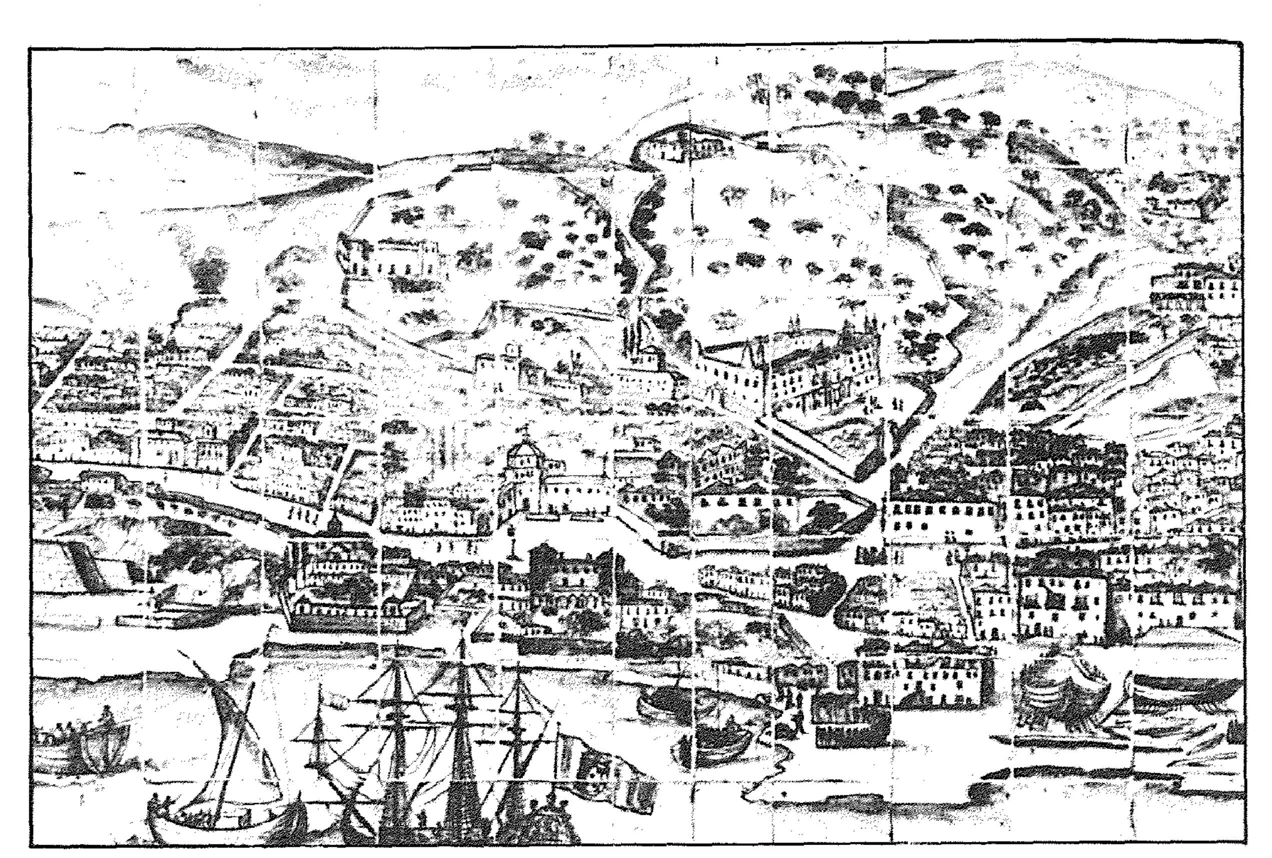
كما يعود اتقان حساب خطوط العرض الى وسائل الملاحة الفلكية الجديدة، فإلى جانب الاسطرلاب ظهرت القذافة وهلال دافيز. والقذافة هي التقليد المتقن لعصاة جاكوب، بدىء باستعمالها في أوائل القرن السادس عشر، وطريقة عملها سهلة، تعتمد على تغير لموضع «المصوب» على عصاة مرقمة حتى يستطيع المراقب رؤية أحد أطراف المصوب يلامس الأفق والطرف الآخر يلامس الشمس أو الكوكب المرصود. لكن هذه الطريقة تنطوي على محذور كبير، إذ يخشى عند استعمالها في حالات الشمس القوية أن تتلف العين، وقد كان بالإمكان تفادي هذا المحذور بفضل هلال دافيز عام ١٥٩٤. هذه الأداة الجديدة، بالإضافة إلى كونها أدق من السابقة فهي تتمتع بمزية أخرى وهي أنها لا تجبر من يستعملها على أن يواجه الشمس مباشرة.

لقد ساهمت أوجه التقدم هذه في الحد من الأخطار التي كانت تسببها المغامرات البحرية كما خلقت من الملاحة علماً حقيقياً لا يستغني الملاح عنه، إذ أصبح الملاح يتحضر لمهنته أكثر من السابق بمتابعة دراسة نظامية في معهد ويخضع لامتحانات جدية. إن المؤسسات التعليمية الأكثر شهرة في هذا المجال نشرت أبحاثاً وخرائط عن الملاحة. وبعض هذه المؤسسات كانت تقبل حتى أساتذة قادمين من الخارج: مثل أكاديمية ساغر الملكية في البرتغال حيث علم فيها الألماني Martin Behai ومدرسة Sevil التي اشتهرت بفلكييها العرب.

لماذا سيطر الاسبان على المحيطات؟

إن تحسين تقنية الملاحة في نهاية العصور الوسطى تفسر جزئياً التوسع الأوروبي والاكتشافات الكبرى ولكنها لا تفسر كل شيء.

لقد تدخلت عوامل أخرى في ذلك. فعرف التاريخ الكلاسيكي رجلاً ذا شخصية فذة هو الأمير البرتغالي هنري، الملاح. إن إرساله بحارته ليطوفوا حول افريقيا بحثاً عن التوابل كان الأساس في الرحلات الاستكشافية. لقد لعب هذا الإنسان الهاوي (١٣٩٤ ــ ١٤٦٠) دوراً هاماً في هذا المجال، كان هائماً بما يخبئه البحر من مكتنزات، كرس حياته كلها لدراسة الملاحة، وأسس مرصد ساغر Sagre، ترأس أسفاراً



□ مرفأ «ليشبونة» كان المنافس الرئيسي للتجار العرب.

عديدة (خاصة بهدف الحصول على معلومات حول الكاهن الأسطوري الشهير جان). ولكن من الصعب الاقتناع بالفكرة القائلة أن هذا الأمير صمم على المجازفة برحلة حول افريقيا لانتزاع تجارة التوابل من أهالي البندقية ومن أهالي جنوى.

كانت المغامرة البحرية في الواقع امتداداً لحركة التحرير الاسبانية التي انتهت في البرتغال منذ القرن الثالث عشر وفي اسبانيا عام ١٤٦٢ مع انتهاء المملكة الإسلامية في غرناطة، ظهر التوسع البحري إذن كوسيلة مثالية لتجنب التوترات الاجتماعية فجميع الذين لم يجدوا في حرب التحرير العظمة أو الثروة أخذوا يبحثون عنها عبر البحار «المساكين الفقراء، النبلاء، عامة الشعب، الطامعون في الذهب والعظمة، الذين استخدموا بين عام ١٤٨٧ ـ ١٤٩٢ في تحرير مملكة غرناطة الإسلامية، كل هؤلاء وجدوا مخرجاً لهم في فتح العالم» (H. Des Chomps، الأوروبيون خارج أوروبا).

وكان عبور جبل طارق واحتلال جزر المحيط امتداداً لما أنجز من أعمال في شبه جزيرة اسبانيا. لا سيما وأن افريقيا تستطيع أن توفر (أن تمدهم) «بعبيدها» (إذ أنه كان يحظر استعباد المسيحيين) كما تستطيع أن توفر ذهب السودان.

لقد اجتازت فرنسا بوجه خاص حقبة مضطربة (هي الحروب الدينية). لذلك لم يكن مستغرباً في أن تكون الدول الاسبانية هي المنطلق لمكتشفي العوالم الجديدة.

من رأس «برجادور» إلى رأس الرجاء الصالح

ولكن قبل أن يوجه الاسبان السفينة نحو الغرب، كان يجب على بحاريهم أن يتدربوا خلال قرن تقريباً، وخلال الثلث الأول كله من القرن الخامس عشر كان رأس «برجادور» هو آخر حد يمكن الوصول إليه في الملاحة، إن قلة عمق البحر ومخاطر الجنوح وصحراء الرمال التي تجعل من الشاطىء محيطاً آخر يقضي على الغرقى بالهلاك المحتم، والتيارات القوية والرياح الشمالية الشرقية التي تجعل العودة أمراً مشكوكاً به، كل هذا يفسر لنا كيف أن البحارين لم يرغبوا كثيراً

في المغامرة عبر هذه المناطق.

ومع ذلك رغب هنري، الملاح رغبة شديدة في أن يتجاوز هذا الرأس وقد عرف كيف يقنع فارسه H. ail Eane، وبعد أن تردد هذا الأخير عام ١٤٣٣ اجتاز هذا الرأس في العام الذي تلاه وجلب معه قطعة من رمال الصحراء.

بعد اجتياز رأس برجادور تخلص الملاحون من خوفهم، فقاموا بجولة بمحاذاة الصحراء واكتشفوا مصادر هامة للكسب: فقمات (Phoques) ورجال (بدو رحل أفريقيون مع عبيدهم السود) حيث باعوهم في البرتغال. فاندفع ملاحون آخرون نحو الجنوب متشجعين بهذه المكاسب وفي عام ١٤٤١ بلغوا الرأس الأبيض، وتم سنة ١٤٤٣ احتلال جزيرة (Arguin) حيث أقيم فيها متجر لتبادل السلع الأوروبية مقابل العبيد والذهب.

وتتابع التقدم بعد ذلك بشكل طبيعي دون أي عائق جدي إلا عند اجتياز رأس لوبان، إذ هبت رياح معاكسة جعلت المركب يتلوى بشكل مريع. هذه الرياح نفسها جعلت اجتياز رأس الرجاء الصالح مضنياً جداً من جهة الشرق: Barthelemy Diaz، فلقد تعب القبطان من الملاحة المتلوية على طول الشاطىء فاتجه عرضاً بحثاً عن رياح ملائمة أكثر حيث اكتشف انسام غربي المحيط الأوسترالي، وارتد بمساعدة هذه الرياح نحو الشمال — الشرقي ووصل شاطئاً له نفس الاتجاه، وعند العودة تعرف إلى رأس سماه الملك (رأس الرجاء الصالح).

(H. Deschamps. op.cit, p. 30).

جزر المحيط الأطلسي

ليس الشاطىء الافريقي هو المجال الأطلنطي الوحيد المتاح للتوسع الأوروبي كما لاحظ P. Chaunu «بين شبه جزيرة إسبانيا والمغرب الغربي والمحيط الحقيقي، تشكل الجزر حدود جزء من المحيط الأطلنطي وكأنه قطعة من المتوسط مرمية فيه» (الأميركيون، القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر).

إن جزر العالم القديم تشكل محطات على الطريق المتجهة نحو الغرب، والمؤدية إلى اكتشاف قارة جديدة. إن أولى الأسفار إلى جزر الكناري و Madère و Acore تمت في منتصف القرن الرابع عشر لكن فتوحات القرن الخامس عشر كانت فعالة أكثر. تلك الفتوحات مدينة في الأساس إلى مبادرة أحد النورمانديين المسمى Béthencourt. استقر هذا الرجل الهاوي المغامر عام ١٤٠٢ في جزيرة Lancerotte. ثم عاد إلى فرنسا وطلب من شارل السادس أن يساعده في مشروعه. ولسوء الحظ كانت الظروف السياسية في فرنسا غير ملائمة للمساعدة في تطوير المغامرات البحرية، لقد خاب أمله والتجأ إلى العرش الكاستيلاني Castillane. وبعد احتلال جزر الكناري احتلت Madère عام ١٤٤٥ أما Acores فاحتلت خلال عقد يمتد من ١٤٣٥ إلى ١٤٤٥.

قرن العمالقة

كان لفتوحات الجزر دور هام إذ أنها شكلت همزة وصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. وعبر هذه الجزر تمتّنت الروابط بين الشواطىء المتوسطية، لكن كي تتحقق «وثبة كبيرة نحو الأمام» كان لا بد من ظهور رجال ذوي شأن أمثال كولومب، ماجلان، فاسكو دي غاما، كابرال وآخرين.

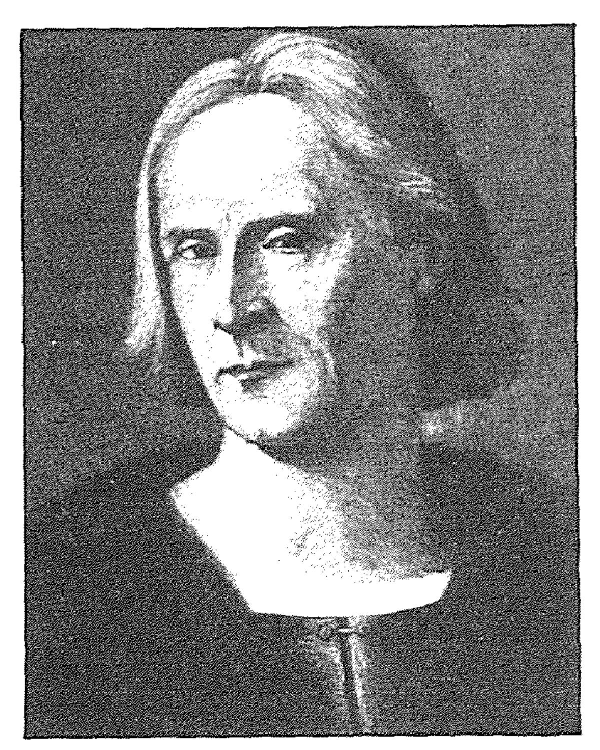
كريستوف كولومبس

بين هؤلاء العمالقة يطل علينا وجه كولومب «أكبر بحّار على مر العصور أو على الأقل واحد من أعظم الكبار». لكن هذه الشخصية التاريخية بقيت مع الأسف غير معروفة بما فيه الكفاية، كثير من المؤرخين الهواة أحاطوها بالغموض وآخرون ذمّوها حتى الازدراء. بين هذا التشويه الانتقامي لكولومب وبين المديح المفرط الذي أحاطه به بعض المؤرخين يتشوق المرء للتعرف على شخصية كولومب الحقيقية.

ولد كريستوف كولومب في جنوا عام ١٤٥١ وفيها تلقى تعليمه، كان من حسن حظه انه انتمى إلى هذه المدينة إذ أن جنوا توجهت نحو الملاحة والأعمال التجارية وكانت بشكل خاص حساسة لتغيرات التوازن الجغرافي السياسي في البحر المتوسط الشرقي. وقد استبدلت هذه المدينة في منتصف القرن الخامس عشر شبكتها



□ مركبة «سانتا ماريا» التي حملت كولومبس إلى جزر الباهاماس.



□ كريستوف كولومبس.

التجارية القديمة بشبكة جديدة تتجه نحو البحر المتوسط الغربي والمحيط الأطلسي.

وبعد طفولة جنوية أقام كولومب في البرتغال اعتباراً من عام ٤٧٧ فأبحر في الأطلسي إلى غينيا (Guinée) ومادير (Madère) وتعرف إلى جميع أنواع الرياح والتيارات. وفي ليشبونا أتقن معارفه النظرية: تبنى بحث أرسطو حول كروية الأرض كما اعتمد حسابات بطليموس وماركوبولو ومارتن دويتر الذين وضعوا قياسات مصغرة لمسافات الكرة الأرضية، أخذ كولومب ينمي معلوماته بواسطة أفكار عديدة كانت رائجة آنذاك كالفكرة التي كانت تقول بإمكانية الوصول إلى الهند عن طريق الغرب. تلك الفكرة التي كان طبيب فلورنسي (بادلو توسكانيلي) قد عرضها قبل ذلك على ملك البرتغال جان الثاني.

في العاصمة اللوزيتانية (Lusitanienne) طوَّر هذا البحار الجنوبي مشروعه ثم عرضه على جان الثاني الذي رفضه لأنه اعتبره مبنياً على خطأين (اعتماد كولومب على درجة طول تبلغ ٤٥ ملم بحري عوضاً عن ستين واعتقاده بأن آسيا ممتدة أكثر من ذلك). في ليشبونا كان أكثر الناس على يقين أن كل أسطول يرسل إلى آسيا عن طريق الغرب ينتظره هلاك محتوم.

أما كولومب فكان على النقيض من ذلك مقتنعاً بصحة مخططه وقابليته للنجاح. لماذا كان يتشبث بأخطائه الحسابية؟

دون شك لأنه كان يسمع ما يقال في المرافىء نقلاً عن البحارة الناجين من الغرق حول وجود أراض وجزر في الغرب. مثلاً في عام ١٨٨٤ جزم دومينغو دي آرغو (Domingo de Arco) بأنه لمح جزراً في عرض الآكور (Acores).

عاد كولومب إلى أرض الكاستيل (Castille) بعد أن طردته السلطة البرتغالية ولاقى هناك استقبالاً حافلاً، ومن جديد اعتبر هذا الشخص ملهماً، ولكن هذا «الملهم» أصرَّ على عرض جنونه. وبعد حيرة كبيرة وافقت الملكة إيزابيل على عرضه. لماذا؟ إن الأسباب التي دعتها إلى الموافقة كثيرة ومنها: فتح مملكة غرناطة الفتية وحاجة السلطة إلى التوابل. إضافة إلى ذلك، إن الكاستيل لم تكن مسيطرة على طريق الهند الافريقي التي كانت تحت الهيمنة البرتغالية وفقاً لمعاهدة (Alcasovas) الموقعة عام ١٤٧٩. كذلك كان الكاستيليون على اعتقاد بأن الانتصار على المور (Maures) يتم بإشارة الهبة، فهم يمضون والسماء معهم مقتنعين بأنهم سينجحون بكل ما يقومون به، بسبب هذا كله اقتنعت «التقية»

إيزابيل الكاثوليكية بمخطط كولومب.
وبمساعدة الآخرين بانـزون (Pinzon) أعدّ كولومب المراكب التي تلزمه لهذه الرحلة وقد تألفت من كارافيلتين تسميان بانتا ونينا وسفينة صغيرة غاليسيانية تسمى سانتا ماريا يتـولى قيادتها الأميرال كولومب في حين يتولى قيادة الكارافيلتين الآخريين بانزون (Pinzon).

شهران في البحر

جاءت أخيراً ساعة الرحيل في ٤ آب ١٤٩٢ لـ ٨٧ رجلاً. وفي التاسـع منه وصل الأسطول إلى عرض جزر الكـاناري (حيث مكث هنـاك شهراً). أما ساعة الرحيـل الكبرى فكـانت في السـادس من أيلول، منذ التـاسـع منه بـدأ كولومب يعتمد على تقديراته، أوهم رجاله أنهم اجتازوا مساحة أقل من المساحة الحقيقية وكان هذا فقط تشجيعاً لهم «كان رجالي قلقين بما فيه الكفاية ويعتقدون أنه لا يمكن وجود رياح مؤاتية للعودة إلى اسبانيا في هذه المناطق البحرية».

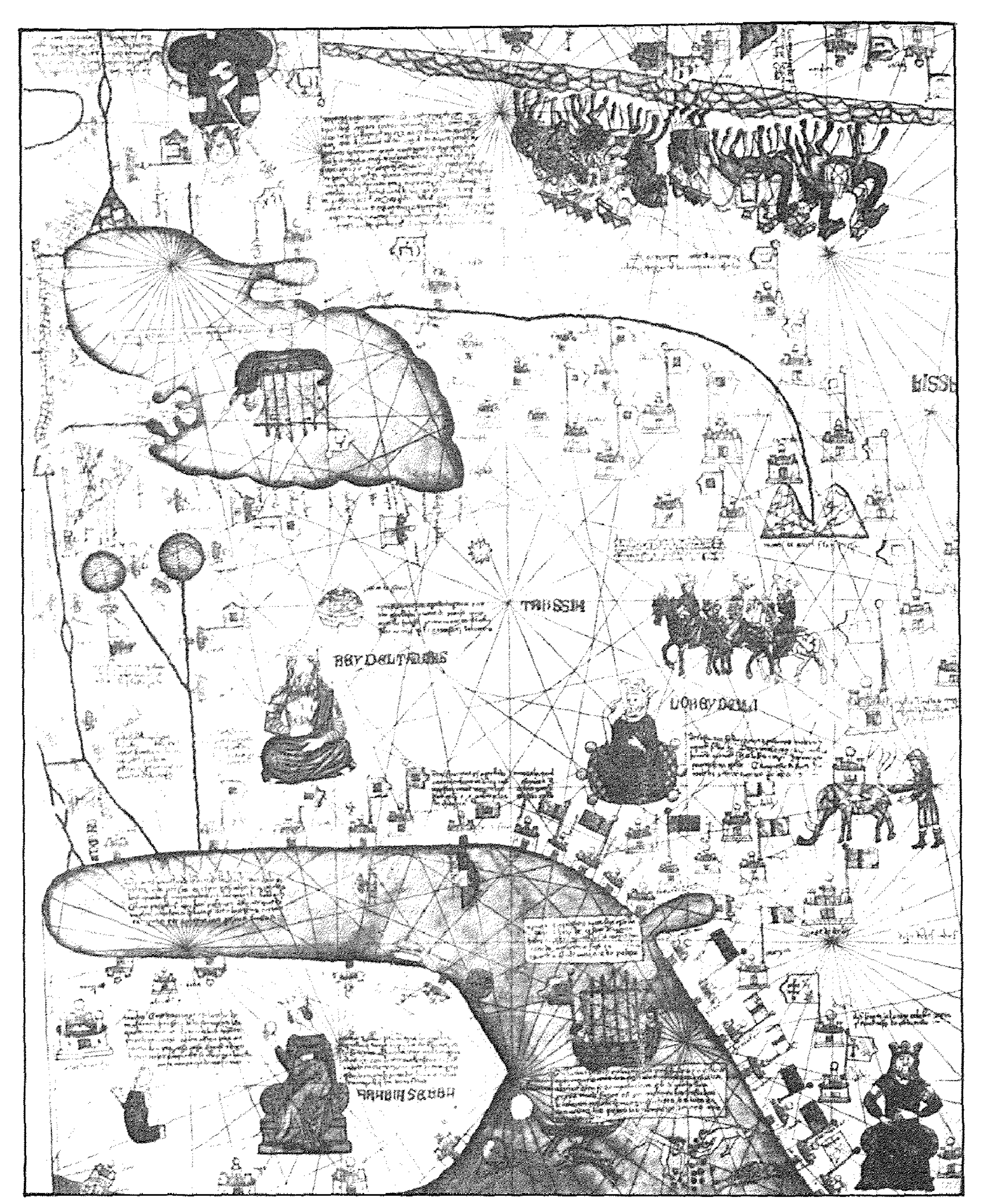
أما ثقة الأميرال بنجاح مشروعه فلم تنقطـع، كما حافظ على تفاؤله حتى في أوائل أيام تشرين الأول ذات الرياح الهوجاء. ووفق حساباته كان عليه أن يمر بمحاذاة اليابان لكنه فكر في اجتياز جزر الأرخبيل عن طريق الجنوب، بالرغم من أنه لم يكن يبحث عن هذه الجزر بل كان يبحث عن الصين. على كـل حال كـانت معنويـات رجال السفينة قد تكدرت وطلب مارتن بـانزون من كولومب أن يوجه السفينة نحو اليابان. ولكن ها هي الأعجوبة تظهر في ١٢ تشرين الأول، لقد ظهرت الأرض!

مـع هبوط الليل في ١١ تشرين الأول رأى البحار المراقب لمركبة بانتا السريعة خطاً غائماً من بعيد ودوّت الصرخات: إن العالم ينـتـظر هناك. وفي الصباح ذهب الرجال فوق الجسر كي يروا في الساعة الثانية ظهراً جزيرة Watling التي أطلق عليها مباشرة اسم San Salvador.

وبعد ساعات تجلى للأعـين مشهد الانـزال الشهير من السفينة، هنا ظهر زورق إنقاذ في البحر، وهناك ظهرت راية، وها هو كولومب برفقة كاتب عدل الحملة، يعلن بأبهة ملكية الجزيرة باسم ملوك الكاثوليك. وغُـرس صليب في هذه الأثناء على الأرض. لقد تعرف كولومب على أهالي هذه الجزيرة الغرباء:

«كتب في يومياته، لقد بذلت كل جهدي كي أكسب صداقتهم إذ إنني رغبت في أن يهتدوا إلى ديانتنا المقدسة، بـالحب وليس بالقـوة. قدّمت لبعضـهم قبعـات ملونة، وعقـوداً من الزجـاج وضعوها في رقابهم وأشياء أخرى صغيرة ليست ذات قيمة كبيرة، لقد أعربوا عن سرور عميق بهذه الأشياء مؤكدين أنها رائعة جداً. بعد ذلك وجدناهم مقبلين سباحة حتى وصلوا الى زوارق السفن حيث وجدنا فيها أشياء جلبوها لنا: درراً بحرية وخيوطاً قطنية وأرماح صغيـرة وأشياء أخرى كثيرة... باختصار أخذوا كل ما قدمناه لهم وأعطونا دون تردد كل ما يملكون وذهبوا عارين تماماً كما خلقتهم أمهاتهم.كانوا جميعاً، شباباً لم يتجاوز الواحد منهم الثـلاثين، ذوي منظر حسن جسماً وسمة، الشعر كالحرير يشبه ذيل الحصان، قص قصيراً عند مقدمة الوجه وترك من الخلف خصلاً دون قص. دهن بعضـهم باللون البني وآخرون باللون الأبيض أو الأحمر وألوان أخرى. منهم من دهن وجهه فقط ومنهم من دهن جسمه فقط أو عينيه أو أنفه».

إن هذا الأسطول في الحقيقة لم يجر من أجل اكتشاف إنسانية جديدة بل كان يريد الوصول إلى الهند، إلى Catay de Marco Polo الغنية. وها هو يكتشف Bahamas ثم يصل في ٢٧ تشرين الثاني إلى كوبا (معتقداً أنـه بلـغ Cipangu، اليابان). هناك تعرف كولومب وأصحابه على عرق جديد «ومخيف» اسمه Caraibe حيث استقبل أهالي هذا العرق البحارين بأسهم سامة. وعندما كان البحارة لا يجدون دائماً ما يتوقعونه من كنوز، اعتقد كولومب أنهم ذهبوا بعيـداً نحو الغرب وقرر أن يغير اتجاه السفينة، ثم وصل إلى سانت دومينغ (Saint-Domingue) التي أطلق عليها اسم جزيرة اسبانيولا (Hispaniola). كانت العلاقات الأولى مـع أهالي هذه الجزيرة جيدة جعلتهم يأملون بمكاسب وافرة. كتب كولومب في يومياته.. لقد صعدوا إلى حافة السفينة وحداناً وزرافات، لم يجلبوا معهم شيئاً مميزاً ولكن كان بعضهم يضـع في الأذن أو في الأنف خرزات ذهبية ناعمة جداً قدموها لنا دون تردد». لكن



□ أصبحت الخريطة في نهاية القرن الثالث عشر، تحوي العناصر الأساسية الموجودة في كل بلد.

خسارة كبيرة أعادتهم إلى صوابهم: فقد غرقت السفينة سانتا ماريا وكان ذلك دافعاً لتذكيرهم بأن الأولوية لم تعد لتجميع الذهب والثروات بل للعودة إلى اسبانيا، وتمكن كولومب بفضل صداقته مع الهنود ووصول (Martin Pinzon) مع مركبته نينا في اللحظة المناسبة من تجاوز الموقف الصعب الذي لم تكن المركبة نينا وحدها قادرة على إنقاذه منه.

في العودة فقط أظهر كولومب مزاياه البحرية الفريدة إذ إن المشكلة ليست في الذهاب «على

أراضي الغرب» بل في الوصول إليها، لقد كان رجال السفينة قلقين، بدأت المركبتان تبحران وهما تصارعان الريح ووجهتها نحو الشمال ــ الشرقي، وكانت الملاحة بطيئة حتى ظهرت الرياح الغربية.

هكذا ومنذ رحلته الأولى، فتح الملاك الجنوي كولومب طريقاً أصبح خلال أربعة قرون طريق الملاحين كلهم؟ هل كان ذلك قدراً؟ إذا سلّمنا بذلك يعني أننا نقلل من معرفة كولومب وحدسه تجاه ما يخبئه البحر من أسرار. لقد استطاع في الحقيقة أن يستلهم من الفولتا البرتغالية، ويحتمل أنه تابع نظام الريح في الأطلسي «ذلك الموضوع الذي طالما سلب لبه».

لم تتميز رحلة العودة بحادث طارىء إلا عندما جنحت مركبة نينا في الرمال وتهدّدت بالغرق. بعد ذلك توقفوا في الـ Acore ثم وصلوا إلى ليشبونا حيث كان الاستقبال حافلاً مهذباً بقدر ما هو متحفظ. أخيراً وفي نيسان ١٤٩٣ كان استقبال النصر عند ملوك الكاثوليك.

لم تنته مغامرات الأميرال كولومب عند هذا الحد فقط بل أخذ يفكر بمشاريع سفر أخرى حيث كانت الرحلة الرابعة والأخيرة عام ١٥٠٢ ــ ١٥٠٤ هي الأكثر «بريقاً، ربما على الصعيد التقني» لكن الأهم من ذلك لم نجده في مغامرات كولومب الذي أخذ يرى فتوحاته وهي تحتجب عنه. فالشيء الأساسي منذ ذلك الحين هو ما كان يخلفه مشروعه من نتائج دبلوماسية. وفي الواقع منذ أيار ١٤٩٣ حدد «المرسوم الاسباني» البابوي الخط القاسم بين مناطق النفوذ البرتغالية والاسبانية وقد أكدت معاهدة Tondesillas هذا في ٣ حزيران ١٤٩٤.

فاسكو دي غاما وكابريال

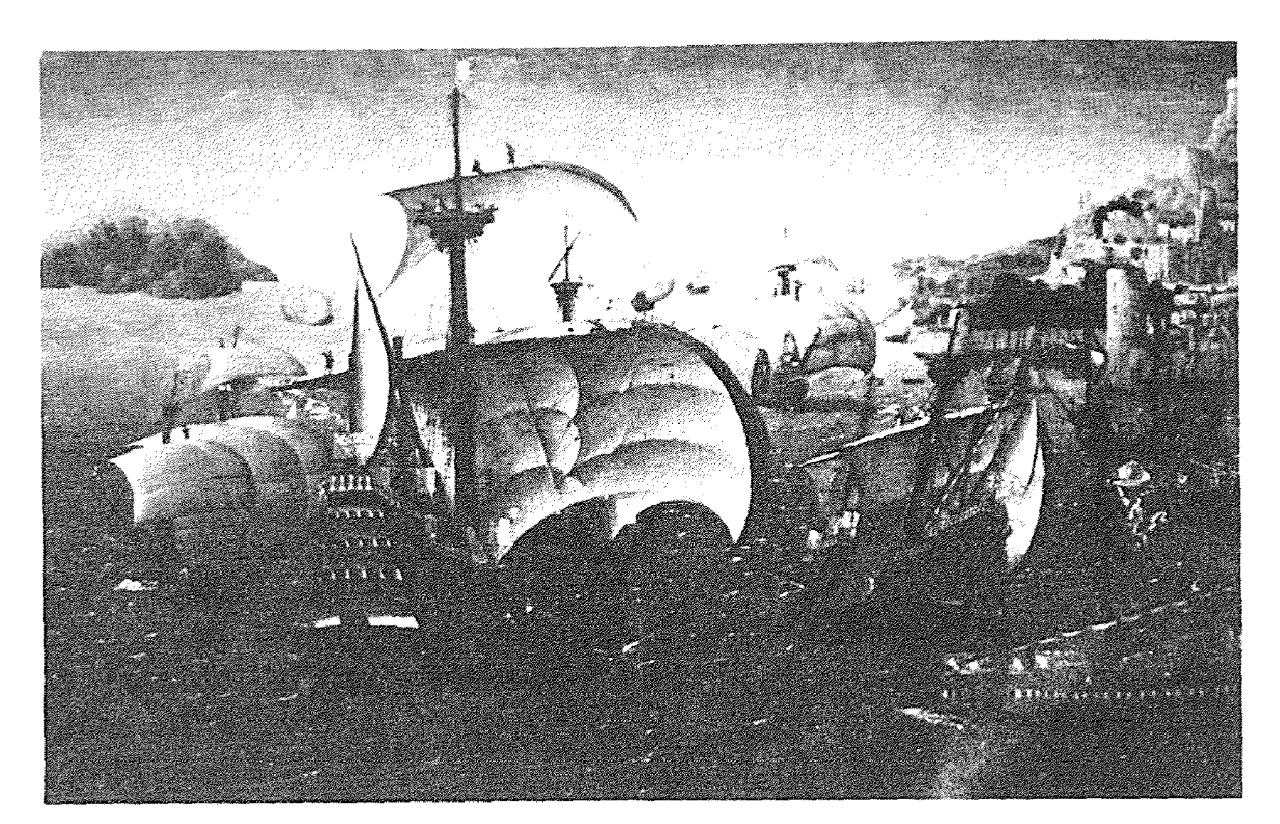
ندم البرتغاليون لعدم ثقتهم بكولومب ولكن نجاحه لم يكن مصيبة بالنسبة لهم على كل حال، فها هم يدخلون طريق الهند الحقيقي من ذلك الممر عبر المحيط الهندي بفضل «الباب» الذي فتحه Bourtelemeo Diaz عام ١٤٨٧.

وبعد اجتياز رأس الرجاء الصالح، لم تعد الملاحة مجرد خيال، وأصبحت القوانين الطبيعية كافية كي تكون دليلا للملاحة، ففي الصيف تتناوب الرياح الجنوبية ــ الشرقية مع الرياح الموسمية الجنوبية ــ الغربية لتقود مباشرة إلى الهند، أما في الشتاء فتبدو الرياح الموسمية الشمالية ــ الشرقية، صالحة للعودة.

وبعد انتظار عشرة أعوام قرر البرتغاليون الدخول إلى المحيط الهندي وكان ذلك في الثامن من تموز عام ١٤٩٧ حيث بدأ فاسكو دي غاما مغامرته بمساعدة أربعة أشرعة. وصل غاما خليج غينيا (Guinée) ثم توجه نحو الجنوب واجتاز رأس الرجاء الصالح ودخل قناة الموزنبيق مجتازاً في كانون الأول النقطة النهائية التي وصل إليها Diaz، وبعد وصوله إلى المحيط الهندي، استفاد فاسكو دي غاما من الخصومات الداخلية بين التجار العرب وبفضل مساعدة ربان مسلم وصل إلى مرفأ Calicut الهندي، وقد استقبل هناك في بادىء الأمر كواحد من قراصنة البحر ثم رضيت عنه السلطة، حارب عداوة التجار العرب وبالرغم من هذا كله بقي الملاح الكبير شهوراً عديدة مرمياً على شط البحر.

وبعد أن جلب معه الكثير من الزنجبيل والفلفل وكبش القرنفل والقرفة والمجوهرات، عاد في ١٩ آب عام ١٤٩٨ وفي العاشر من تموز عام ١٤٩٩ تحركت أول سفينة عائدة قرب شواطىء طاجة، محملة بأشياء غنية، ومنذ ذلك الحين أصبح طريق الهند سالكاً ولكن بأي ثمن؟ لقد تميزت مغامرة دي غاما بأعمال باهرة كلفت فقدان نصف المراكب و ٨٠ رجلاً من أصل ١٥٠.

أصبح المهم بالنسبة للبرتغاليين هو الانتقال من الاكتشاف الى الاستفادة من هذه الطريق. ها هي حملة أخرى تعبأ مؤلفة من ١٣ سفينة ترأسها كابرال، وقد خلدت هذه الحملة اسمه عبر التاريخ لأنه اكتشف البرازيل، لقد أثار هذا الاكتشاف كالعادة تساؤلات كثيرة: هل سبق كابرال بحارون آخرون إلى هذا الاكتشاف؟ هل وصل هذا البرتغالي إلى الأرض الأميركية بالصدفة؟ إننا سنترك هذه الأسئلة دون جواب داعين القارىء للاطلاع على مؤلفات تتعلق بالبرازيل للكاتب Fréderic Manro.



□ سفن تجارية برتغالية، ذات حمولة كبيرة، كانت تستعمل لشحن البضائع والأسلحة الثقيلة في تلك العصور.

ماجلان

إذا كانت رحلة Cabaral محاطة بكثير من التساؤلات فإن قسماً كبيراً من ذلك يعود إلى تضاعف الاكتشافات في أوائل القرن السادس عشر. فلم يعد هدف الحملات هو الاكتشافات فقط بل الفتوحات أيضاً.

كذلك إن المعلومات المتعلقة بالأرض الجديدة أصبحت أوسع وأكثر دقة مما كانت عليه في السابق. وهناك نتيجة لم يكن بالإمكان تجنبها وهي أن أفكار كولومب الخاطئة أخذت تنتشر انتشاراً كبيراً. ففي عام ١٥١٣ اجتاز Baboa برزخ باناما واكتشف مساحة من المياه ممتدة على مدى البصر لا يمكن إلا أن تكون بحراً، وقد تمنى الكثير من الملاحين منهم Amerigo في أن يجدوا المر المشهور الذي يوصل إلى الغرب.

يعود شرف اكتشاف هذا الممر إلى فرنانو ماجلان: لقد خدم هذا البرتغالي في الهند الشرقية تحت حكم (Abuqnerque) قبل أن يصاب بجرح في مراكش. وقد أنهت هذه الإصابة مهنته العسكرية، فعين حارساً لقطيع مستولى عليه في أراضي المور لكن بعض الحيوانات اختفت فاتّهم ببيعها للعدو. وفقد من جراء ذلك سمعته في بلاط ليشبونا. وهذا ما أدى إلى رفض الملك لمشروعه الذي لم يكن جديداً، وهو الوصول إلى (Moluques) عن طريق الغرب.

وكما فعل كولومب عاد ماجلان إلى اسبانيا مستنجداً بالملك شارل لير وعندما حصل على موافقته في ١٥ آب ١٥١٩ بدأ حملته المؤلفة من خمسة مراكب و ٢٧٥ رجلاً.

وصل ماجلان البرازيل على ارتفاع خليج ريو. وبدأت منذ ذلك الحين مرحلة المتاعب والصعوبات. وفي كانون الثاني عام ١٤٢٠، لمح مراقبو السفينة تجويفاً في الشاطىء فاعتقدوا أنهم وجدوا المر، وغرسوا فيه، لكن خلال أيام قليلة تبين لهم أن هذا ليس سوى مصب نهر واسع إذ أكد لهم ذلك وجود أعمال سبر وانحسار الضفاف ووجود المياه الهادئة... كان ذلك خيبة أمل بالنسبة لهم لكنه لم يثبط من عزيمة البرتغالي ماجلان. دخلت الحملة الشاطىء نحو الجنوب واقتربت من منطقة باردة كبرودة شتاء أوستراليا، إلى أين يريد ماجلان الذهاب؟ أخذ القباطنة بطرح الأسئلة كما أخذ رجال السفينة بالثرثرة، وثار بعض العصاة ودبّرت مؤامرات

انتهى كل ذلك بمعاقبة المتمردين على أحد الشواطىء الخالية.

اعتقد ماجلان ورجاله مراراً بأنهم سيجدون الممر الذي يحلمون به وتتابعت الخيبة تلو الأمل عندما كانوا يفاجأون بفجوة أو ساقية شاطئية. إلى أن جاء الحادي والعشرون من تشرين الأول عام ١٥٢٠، تشقق الشاطىء أمام أعين البحارة، لكن ذلك لم يبعث الأمل في نفوسهم، كان ماجلان فقط هو المتفائل وكالعادة (وبالرغم من اعتراض الضباط) أرسل مركبتين للكشف، وفجأة ظهرت عاصفة هوجاء هزت حتى المراكب التي لم ترسل إلى الداخل. اعتقد الجميع ما عدا ماجلان بأن رجال المركبتين قد فقدوا هم وأمتعتهم. يا للمفاجأة، ها هم يسمعون بعد خمسة أيام من ذهابهم ضربات بندقية لحقها مباشرة ظهور المركبتين المفقودتين! لقد كانت الأخبار التي حملها إليهم أصدقاؤهم أكثر من مشجعة. هناك حيث ذهبوا كان الماء عميقاً جداً ومالحاً.

الذهاب نحو الغرب والعودة عن طريق الشرق:

أخذت مراكب الحملة (التي نقصت مركباً في تموز بسبب هبوب عاصفة) تدخل المضيق الذي أطلق عليه ماخلان اسم «جميع القديسين» والذي سمّي بعد ذلك باسم مكتشفه. وفضلاً عن أنه مضيق حقيقي فهو متاه طويل تبلغ مساحته ٦٠٠ كم، تصعب فيه الملاحة جداً. وهكذا لم تدخل الحملة البحر الحر إلا في ٢٨ كانون الأول.

بدا المحيط الجديد هادئاً فأطلق عليه ماجلان اسم «الباسيفيك» ثم وجه السفينة نحو الشمال ـ الغربي. لم ينته عهد المتاعب في ذلك الوقت، إذ ضاعت مركبة اسمها سان أنطونيو حيث فضل ربانها الهرب مع رجال السفينة بعد أن سجن القبطان. فضلاً عن ذلك ولسوء الحظ لم يصادف ماجلان في طريقه أية جزيرة حتى وصوله إلى (Gam). لقد أصبحت مشكلة التموين بالنسبة لهم ملحة كما أكدته جريدة Pigafetta «لقد أبحرنا خلال ثلاثة أشهر وعشرين يوماً دون أن نتذوق طعاماً طازجاً، فالبسكويت الذي كنا نأكله لم يكن خبزاً ولكنه تراب ممزوج بالدود، ذو رائحة عفنة مفعمة ببول الفئران، والماء الذي أجبرنا على شربه كان نتناً، وكي لا نموت جوعاً أرغمنا على أكل قطع من جلد البقر التي غطينا فيها عارضة الصاري الكبيرة كي لا يلتهم الحبل الخشب... أما المصيبة الكبرى فهي أن نجد أنفسنا مهاجمين بمرض في اللثة يسبب انتفاخها حتى كادت تغطي الأسنان».

ولحسن الحظ، صادفت مراكب ماجلان أخيراً في آذار، عدة جزر تموّنت فيها شتى أنواع الأغذية الطازجة وكان هدف الحملة الرئيسي هو تجنب الاتصال بالبرتغاليين الراغبين في إفنائها. إلا أن ماجلان ارتكب خطأ فادحاً إذ إنه ورط نفسه بالتدخل في الخصومات القائمة بين رؤساء الأهالي. وقد كلفه هذا الخطأ حياته إذ إنه شنق هناك.

أخيراً وصل مركب واحد إلى أوروبا مؤلف من ١٨ رجلاً بفضل جهود Basqne el cano الذي لخص في تقرير قدمه إلى الملك جميع الصعوبات التي واجهوها «فلتتفضل سعادتك بالعلم أننا عدنا ١٨ رجلاً مع مركب واحد كنت، جلالتك، قد بعثته تحت طلب الكابيتين الجنرال ماجلان مجدت ذكراه، فليكن عند جلالتك العلم أننا وجدنا الكافور والقرفة واللؤلؤ فلتتكرم جلالتك بتقدير ما أنجزناه: «قمنا بجولة حول العالم إذ ذهبنا نحو الغرب فعدنا عن طريق الشرق»... ●

● إن رحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.

«مثل صيني»

● إنني مبتهج بإفتكاري بأني لست مسؤولاً بأن اجعل العالم يدور، بل الذي عليّ هو أن أكشف وأعمل العمل الذي يحدده لي الله بقلب مغتبط.

«جون انجلو»

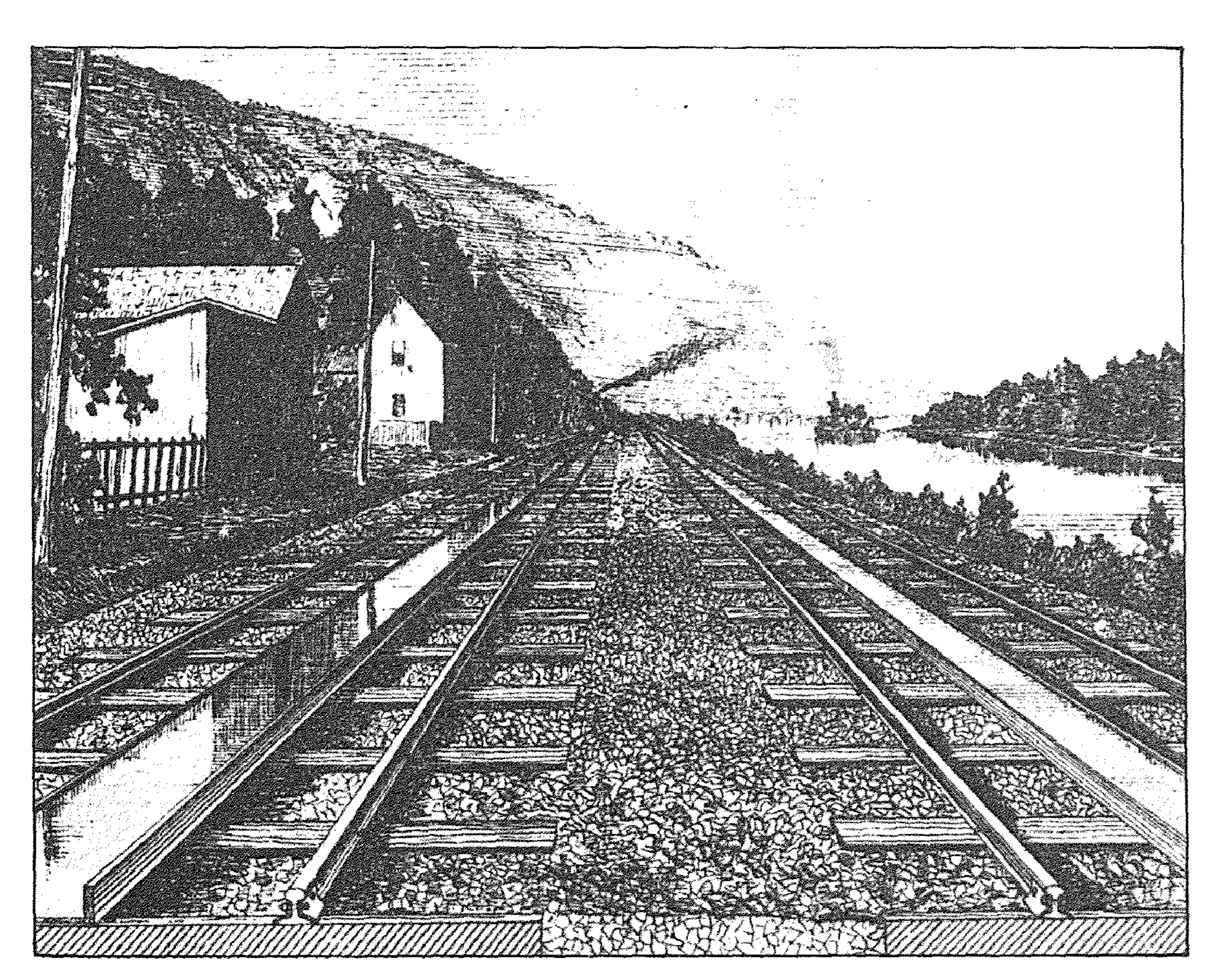
تاريخ الاستعمارات الاوروبية في العالم العربي

الدولة العربية	الدولة المستعمرة	تاريخ بدء الاستعمار	تاريخ احكام السيطرة على المستعمرة	تاريخ انتهائه الاسمي	تاريخ انتهائه الفعلي	مدته	نوع الاستعمار
مشيخات الخليج وعمان	بريطانيا	١٨٢٠	١٨٢٠	١٩٧١	١٩٧١	١٥١ عاماً	□ محميات بريطانية.
الجزائر	فرنسا	١٨٣٠	١٨٤٧ □ بعد القضاء على ثورة الامير عبد القادر الجزائري.	١٩٦٢ □ بعد معاهدة ايفيان.	١٩٦٢	١٣٢ عاماً	□ اعتبرت ارضاً فرنسية.
عدن	بريطانيا	١٨٣٩	١٨٥٧	١٩٦٧	١٩٦٧	١٢٨ عاماً	□ تابعة للهند البريطانية. □ اصبحت بعد ١٩٣٧ مستعمرة تابعة للتاج البريطاني مباشرة.
البحرين	بريطانيا	١٨٨٠	١٨٨٠	١٩٧١	١٩٧١	٩١ عاماً	□ محمية بريطانية.
تونس	فرنسا	١٨٨١	١٨٨٢	١٩٥٦	١٩٥٦	٧٥ عاماً	□ محمية فرنسية.
مصر	بريطانيا	١٨٨٢	١٨٨٢ □ بعد القضاء على ثورة عرابي باشا.	١٩٣٦	١٩٥٦ □ بعد اتمام الجلاء عن قناة السويس.	٧٤ عاماً	□ احتلال عسكري ١٨٨٢ ـ ١٩١٤. □ محمية بريطانية ١٩١٤ ـ ١٩٢٢. □ استقلال جزئي ١٩٢٢ ـ ١٩٣٦. □ استقلال اسمي ١٩٣٦ ـ ١٩٥٦.
السودان	بريطانيا/مصر	١٨٩٨	١٨٩٨ □ بعد القضاء على ثورة المهدي.	١٩٥٦	١٩٥٦	٥٨ عاماً	□ حكم بريطاني مصري مشترك.
الكويت	بريطانيا	١٨٩٩	١٨٩٩	١٩٦١	١٩٦١	٦٢ عاماً	□ محمية بريطانية.
المغرب	فرنسا (واسبانيا)	١٩١١ □ بعد واقعة اغادير بين فرنسا والمانيا.	١٩٢٦ □ بعد القضاء على ثورة الامير عبد الكريم الخطابي.	١٩٥٦	١٩٥٦	٤٤ عاماً	□ محمية فرنسية. □ احتلال اسباني للشواطىء الشمالية وللصحاري الجنوبية.
ليبيا	ايطاليا (وبريطانيا)	١٩١١ (١٩٤٢)	١٩٣١ □ بعد القضاء على ثورة عمر المختار.	١٩٥١	١٩٥١	٤٠ عاماً	□ اعتبرت ارضاً ايطالية ١٩١١ ـ ١٩٤٢. □ احتلال بريطاني ١٩٤٢ ـ ١٩٥١.
الاردن	بريطانيا	١٩١٩	١٩١٩	١٩٤٦	١٩٥٧ □ بعد اقصاء القيادة البريطانية عن الجيش الاردني.	٣٨ عاماً	□ انتداب بريطاني.
العراق	بريطانيا	١٩١٩	١٩٢٠ □ بعد القضاء على الثورة في جنوب العراق.	١٩٣٠	١٩٥٥ □ بعد الغاء معاهدة ١٩٣٠.	٣٦ عاماً	□ انتداب بريطاني.
فلسطين	بريطانيا	١٩١٩	١٩١٩	١٩٤٨	١٩٤٨	٢٩ عاماً	□ انتداب بريطاني.
لبنان	فرنسا	١٩١٩	١٩١٩	١٩٤٣	١٩٤٦ □ بعد اتمام الجلاء.	٢٧ عاماً	□ انتداب فرنسي.
سوريا	فرنسا	١٩٢٠ □ بعد معركة ميسلون.	١٩٢٦ □ بعد القضاء على ثورة سلطان باشا الاطرش في جبل الدروز.	١٩٤٣	١٩٤٦ □ بعد اتمام الجلاء.	٢٦ عاماً	□ انتداب فرنسي.

أحمد عزة باشا العابد (*)

رجل الفكر في السياسة والإدارة
و
منشئ الخط الحديدي الحجازي

إعداد : علي حيدر النجاري



(*) يلقي الكاتب في هذا البحث التاريخي الضوء على منشىء أعظم خط حديدي في الشرق الأوسط، الخط الحديدي الحجازي.



إن أول ما يلفت أنظار زوار مدينة دمشق ويسترعي انتباههم، ذلك العمود الفخم المنتصب في قلب جلق الفيحاء قلب العروبة النابض.

لقد صنع العمود من البرونز الخالص وأحيط بأسلاك حديدية هي بعض منه، وأقيم عليه في أعلاه نموذج برونزي مصغر لمسجد المدينة المنورة، وقد نقش على لوحة رخامية في قاعدة العمود باللغة التركية ما يفيد أنه أقيم بمناسبة افتتاح خط برقي «تلغراف خطنك» بين دمشق والمدينة المنورة.

وهذا النصب التذكاري يقع في ساحة أطلق عليها اسم ساحة الشهداء ــ وكانت وما تزال تسمى ساحة المرجة ــ حيث علقت عليها مشانق شهداء العروبة في السادس من أيار/مايو ــ لعام ألف وتسعمائة وستة عشر، وأمام هذا النصب وفي زقاق رامي وعلى الساحة أيضاً يطل قصر منيف هو قصر العابد، وأن طالما كنا نسمع من عامة الناس أن فيه وعلى مدار السنة ثلاثمائة وستين غرفة وبدهي أن هذا من المبالغات غير أن القصر الآخذ امتداد شارعين على يمينه وشماله ليتيه فيه الداخل إليه لكثرة أبهائه ودهاليزه بله الغرف الكائنة على الطرفين.

ثم إلى الغرب من ساحة الشهداء وفي نهاية شارع مواز للساحة تقع محطة الخط الحجازي ذات الزخارف والنقوش البديعة والتي منها يبدأ الخط الديدي الذي يصل دمشق بالمدينة المنورة، وقد ترك ثم أهمل الجزء الأكبر الممتد إلى الجنوب نحو الأراضي الحجازية منذ الحرب العالمية الأولى.

هذه المنشآت الثلاث: النصب التذكاري، وقصر العابد، ومحطة وسكة الحديد الحجازية، جميعها ــ وغيرها كما سنذكر ــ قامت بمساعي رجل من دهاقنة الفكر والسياسة الدولية وممن ران على ذكرهم نسيان عالمنا الحديث.

ذلك الرجل التاريخي هو أحمد عزت العابد، الرجل الذي كان موضع الثقة المطلقة للسلطان عبد الحميد الثاني نحواً من عشرين عاماً، منذ انتقاله إلى الآستانة، وفي هذه الفترة كانت له اليد الطولى في الدولة العثمانية **ويبدو جليا أنه هو الذي دفع بالسلطان عبد الحميد إلى رفض مطلب هرتزل في إيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين.**

إنه عربي من أكابر مدينة دمشق حسبما يقول الشاعر الحمصي الشيخ رسول النجاري (١٨٤٩ ــ ١٩١٩).

شهمٌ سما مجدُهُ في كلّ مكْرُمةٍ ... من الأصول التي طابَتْ عناصرُها

من أعرب العُرْبِ من شاعت شجاعتهم ... وكلهم فارس الهيجا غضافرُها

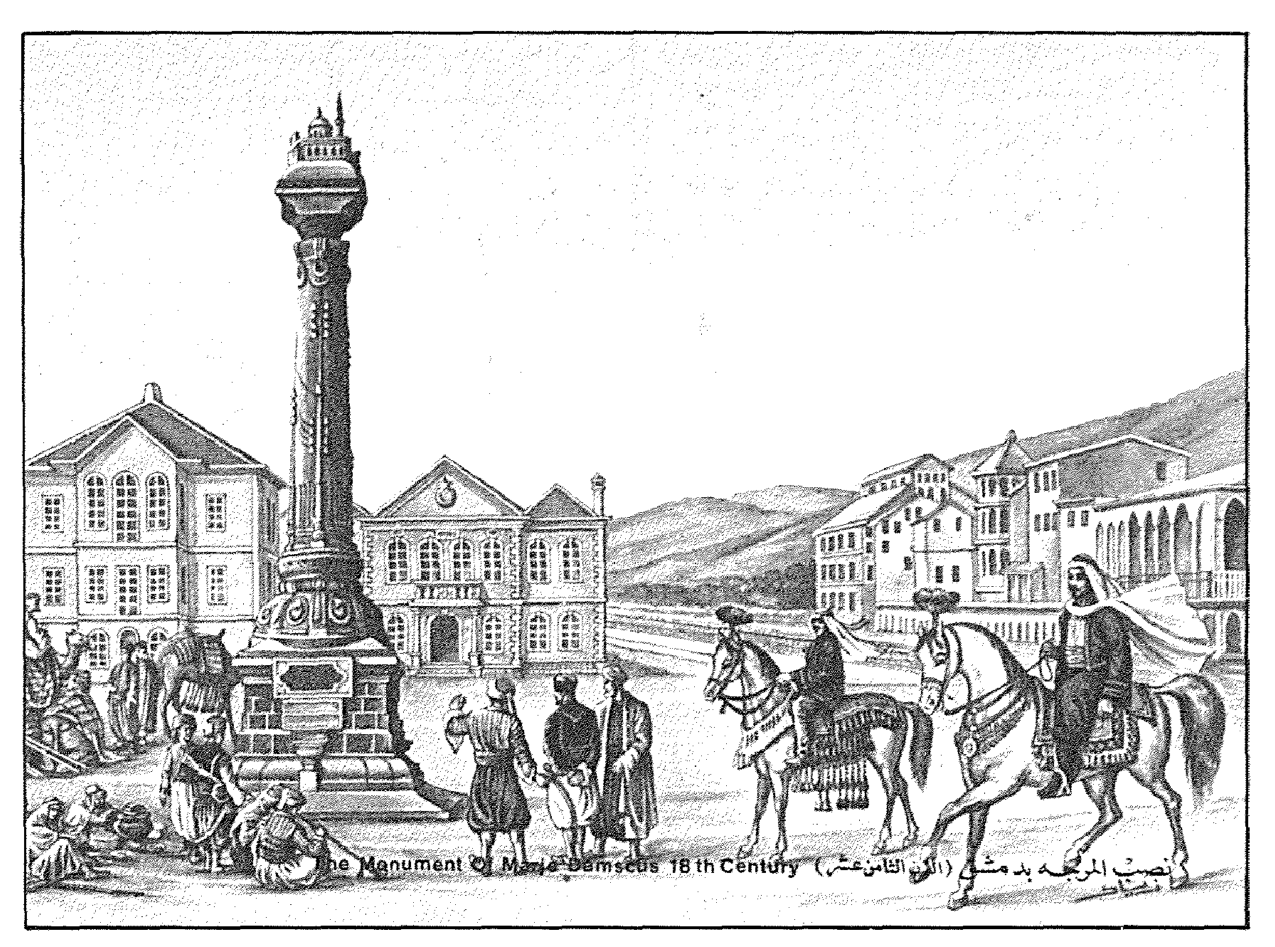
دمشق جَنّةُ دُنْيانا لهمْ وَطَنٌ ... ومن زمانٍ قديمٍ هُمْ أكابرها

وينقل الفيكونت دي طرازي عن كتاب الصيادي: «الروض البسام في أشهر البطون القرشية في الشام» ينقل ما يلي:

«إن جده ــ والحديث عن العابد ــ الأعلى الأمير قانصو العابد من أمراء المشارقة ينتمي إلى عشيرة عربية تعرف بالموالي وتسكن الخيام بين الزور وتدمر وهي تنتسب إلى قبيلة بكر بن وائل الحجازية القرشية»[1].

في ترجمة أحمد عزت باشا العابد (١٨٤٩ ــ ١٩٢٤) يقول الزركلي في مؤلفه «الأعلام» وإنّا لنورد النص بكامله لما سنبيّن من رأينا في بعض ما جاء به وما فاته:

«أحمد عزت بن محيي الدين أبي الهول المُسَمّى هولو باشا ابن عُمَر بن عبد القادر العابد من مشهوري الساسة في عهد انهيار السلطنة العثمانية، ولد بدمشق وتعلم بها وببيروت وأجاد الفرنسية والتركية[2] وعين مفتشاً للعدلية في سورية[3] وكان معدوداً في بدء أمره من أنصار الإصلاح وأصدر جريدة أسبوعية بالعربية والتركية أسماها «دمشق»[4] ثم سافر إلى الآستانة وخدم السلطان عبد الحميد الثاني فتقدم إلى أن كان سكرتيره الثاني ومستشاره الأقرب وكان السلطان شديد الخشية من أوروبا يعمل على مسالمتها فأعانه أحمد عزت على انتهاج سياسة تحول دون اتفاق الدول الأوروبية في بلاده، وكثرت فيه أقوال الناس بين معجب بدهائه وناقد يتهمه بالاشتراك في فظائع عبد الحميد والعمل على توطيد أركان استبداده وكان اتصاله الأول بالسلطان عن طريق الشيخ أبي الهدى



□ **نصب المرجة في دمشق (القرن الثامن عشر).**

الصيادي ثم وقع التنافس بينهما وهو الذي سعى في إنشاء سكة الحديد الحجازية وغادر البلاد العثمانية بعد انقلاب سنة ١٣٢٦ ـ ١٩٠٨[٥] وأتى لندن ثم جعل يتنقل بين انكلترا وسويسرة وفرنسا إلى أن استقر أخيراً في مصر فتوفي بها ونقلت جثته إلى دمشق».[٦]

هذا نص ما جاء في الأعلام لخير الدين الزركلي وقد ذكرت المصادر وهي تاريخ الصحافة العربية ـ وقد أغفل منه بعض أمور مهمة كما سنذكر ـ وجرائد الأهرام وكوكب الشرق وأم القرى.

بيد أنه، وهنا نلاحظ نقاطاً هامة فاتت الزركلي ولم يسجلها وهي تنصف العابد وتقدره حق قدره في التاريخ العربي، ولا يُرَدُّ علينا بإيجاز الترجمة إذ تكفي بضعة مصادر معروفة يخص فيها ما يخص العابد ولا سيما من الناحية السياسية القومية وذلك ببضع جمل في كلمات معدودة. هذا إذا اقتصرنا على السياسة أما في الإدارة فثمة أمور كثيرة أغفلها الزركلي كما سنذكر.

أولاً ـ إن العابد من نسل عربي ـ وقد نوهنا بهذا ـ هبط جده الأعلى دمشق في أوائل القرن الثامن عشر وغدا أبناؤه وأحفاده وبيدهم الحل والربط حيث كان كل منهم يلقب بالآغا إذ يرجع إليه وبوساطته حل كثير من مشاكل الأهلين[٧]. وأبوه هولو باشا توصل إلى أن يكون متصرفاً على بعض الألوية مع أنه عربي الأصل[٨].

ثانياً ـ ومما أغفله الزركلي وجاء به المؤرخ المرحوم أدهم الجندي: مؤازرته للجمعيات العربية ـ كما سيأتي ـ وهذا مما يؤخذ على الزركلي وهو الباحث والشاعر القومي.

تَتَّسِقُ بادىء ذي بدء ترجمة أدهم الجندي للعابد مع الزركلي ويزيدها إيضاحاً حيث يقول ما نصه:

«ثم توصل بذكائه إلى الخدمة في الباب العالي فكان الكاتب الثاني وهي الوظيفة الرسمية للعابد في معية السلطان عبد الحميد بوساطة الشيخ



□ السلطان عبد الحميد.

ابي الهدى الصيادي الرفاعي ثم اشتد الخلاف بينهما».

وهنا نلاحظ مدى البون الشاسع بين عبارة الزركلي: «ثم وقع التنافس بينهما» وعبارة أدهم الجندي: «ثم اشتد الخلاف بينهما» إذ ليس ثمة تنافس بين الرجلين وإنما خلاف شديد: أبو الهدى صوفي متزمت وأحمد عزة إصلاحي حضاري.

وينتهي المؤرخ أدهم الجندي إلى القول وهنا بين القصيد:

«وأخيراً أقام في مصر وكان في عداد الشخصيات البارزة التي آزرت رجالات العرب في طلب الإصلاحات في عهد الاتحاديين وتبرع بالأموال لمساندة الجمعيات العربية وقد حكم عليه بالإعدام غيابياً»[٩].

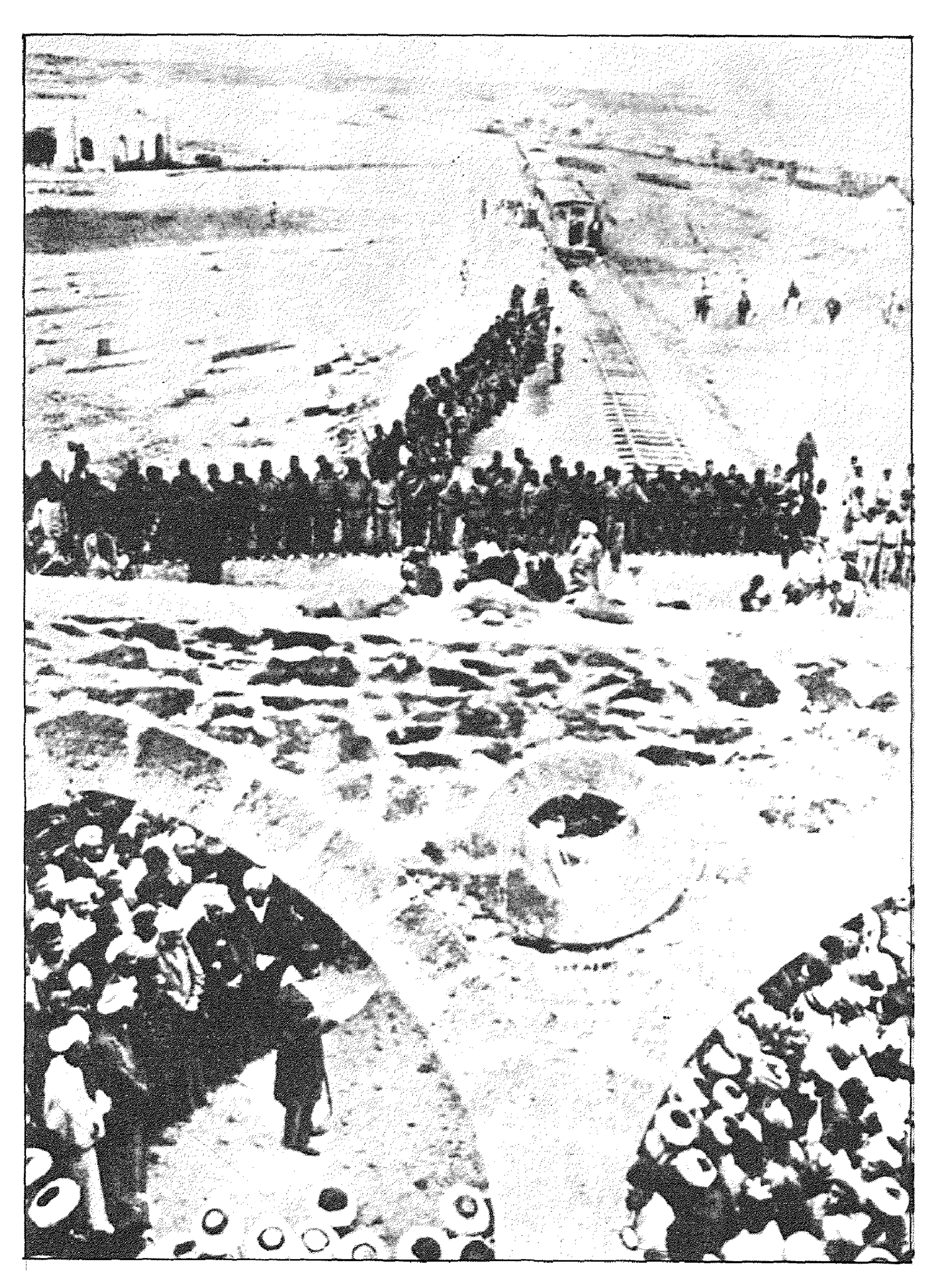
وهذه العبارة الأخيرة الحكم بالإعدام هي الناحية الثالثة المهمة التي فاتت الزركلي ولم يذكرها. ولعل الجندي استنتجها مما جاء في كتاب الوثائق الذي نشرته السلطات التركية تحت عنوان: «إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه» فهذا الكتاب الوثائقي الخطير يذكر مساعدة العابد للمنتدى الأدبي قبل الانقلاب العثماني ثم تخصيصه مبلغاً وفيراً لمساعدة الجمعيات العربية وقد اعترف بهذا عبد الحميد الزهراوي حسبما جاء في الوثائق[١٠].

ومن هذه الوثائق عثور السلطات التركية على كتاب من عزت العابد إلى الزهراوي بهذا الغرض.

وفي أحد فصول الكتاب تحت عنوان: «المحكومون ودواعي المحكومية» إن الزهراوي تولى إدارة أوقاف العابد وطرق صرفها. (ص ١١٥).

ومن جملة الأسباب السعي لتأسيس خلافة عربية. (ص ١٥٤).

ويقول العابد في كتاب بعث به إلى الزهراوي من لندن أنه خصص مبلغاً جسيماً لينفق على القضايا العربية بعد وفاته وسمّى المصرف الذي



□ افتتاح الخط الحديدي الحجازي بين دمشق والمدينة في ٣ تشرين الاول ١٩٠٨.

نقبض منه المبالغ.

هذه هي المناحي السياسية للعابد أما الشخصية والإدارية فقد أسهب المؤرخ اللبناني الفيكونت دي طرازي[11] صاحب تاريخ الصحافة العربية في تعداد مآثره فقال:[12] إنه تولى رئاسة لجنة المهاجرين مدة لا تتجاوز ثمانية عشر شهراً وأنشأ خلالها نيفاً وأربعين قرية أسكن فيها نحواً من خمسين ألف مهاجر أكثرهم في ولايتي سورية وحلب ثم شيد من ماله الخاص في المدينة المنورة مستشفى لخمسين مريضاً ورياضاً لخمسين عائلة ومدرسة لمائتين من الأطفال وجعل لهذه المباني أوقافاً مسجلة في الآستانة وفي المحكمة الشرعية بالقاهرة واتصل بنا الآن ـ أي في عام ١٩١٣ ـ أن المباني المذكورة استعملتها الحكومة لغير ما خصصت له».

وكانت مياه المدينة المنورة تأتيها بمجرى تتخلله جرائيم الأوبئة الفتاكة فافتتح اكتتاباً جمع فيه نحواً من ٥٠٠٠٠ ليرة ابتاع بها قساطل حديدية وأنابيب على الطراز الصحي ثم بعث بها لتحصر مياه الينابيع سالمة من الأقذار، وما كاد يشرع بالعمل حتى اضطر أن يفارق الوطن فتوقف الشغل ولم تزل القساطل والآلات البخارية وفروعها ملقاة في محطة حيفا وسائر محطات السكة الحجازية ـ عام ١٩١٣ ـ.

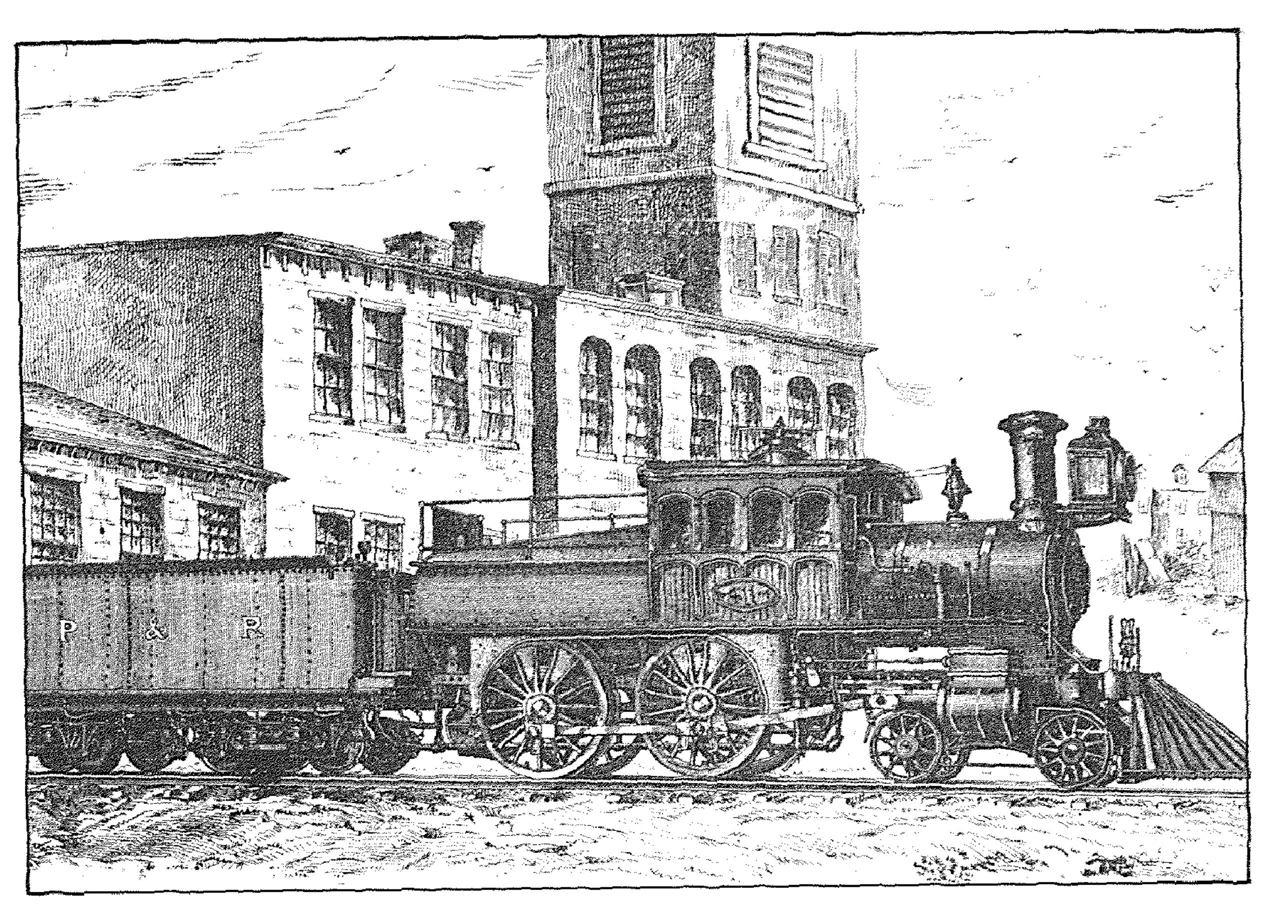
محطة السكة الحجازية

حول هذه المحطة يسهب دي طرازي فيها إذ يقول: «إن العابد منذ حداثة سنه كان يستعظم الأتعاب التي تلم بالمسلمين في ذهابهم إلى الحج فأخذ يتتبع ما فعلته حكومة روسيا بإنشاء السكة الحديدية بسيبريا وبعد أن أتم أبحاثه فرض على السلطان وجوب إنشاء السكة الحديدية الحجازية بأيدي العساكر وأخذ على عاتقه القيام بهذا المشروع الخطر الذي لم يقم في الدولة العثمانية مشروع آخر يضاهيه أهمية ونفعاً حتى الآن ـ عام ١٩١٣ ـ وأذن له السلطان بمباشرة العمل بينما لم يكن في يده دانق واحد ولا آلة ولا مورد يستند إليه فافتتح لوائح الاكتتاب مقترحاً على الشعوب الإسلامية وملوكها وأمرائها وأغنيائها وعلمائها أن يشتركوا في المساعدة فلبى جميعهم نداءه وتبرعوا بالأموال الوافرة التي بلغ مجموعها نحواً من ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه فأنشأ بهذا المبلغ خطاً طوله ألف وخمسمائة كيلو متر يمتد من حيفا إلى دمشق فالمدينة المنورة وكان يؤمل أن يمد خطين من المدينة المنورة أحدهما إلى مكة وجدة وصنعاء اليمن والآخر إلى البصرة وأن تكون أكلاف إتمامهما من ريع خط الحجاز ومن الرسوم الطفيفة التي أحدثتها السلطنة لهذه الغاية، ولكن أبت الظروف إلا أن يضطر للخروج، ونال العابد وسام الامتياز المرصع مع ميداليتين ذهبيتين ـ لإنشاء الخط الحجازي ـ[13].

ولما تم خط المدينة المنورة أوصل إليها النور الكهربائي ولم يكن له أثر في البلاد العثمانية وقد عهد بإنشائه إلى ضباط الجيش البحري ولم يصرف في سبيله دانقاً واحداً من خزينة الدولة.

وطوال تقرّبه من السلطان كان يحاول الاستغناء عن استقراض الأموال الأجنبية فمن ذلك أن نظارة التلغراف طلبت ١٣ ألف ليرة عثمانية لتنشىء خطاً برقياً بين فزان وطرابلس الغرب ولدى مراجعته استكثر المبلغ فأخذ على عاتقه إنشاء الخط المذكور مع خط آخر يمتد من بنغازي إلى طرابلس بأقل من نصف المبلغ ثم أحدث بين «كله مش» من أعمال ولاية أزمير وبين بنغازي خطاً برقياً بلا سلك فسهل للدولة العثمانية حرية المخابرة بينها وبين أملاكها في شمال أفريقيا ولم يكلف الخزينة أكثر من عشرة آلاف ليرة وبهذا أنقذها من استبداد شركة «استرى» التي كانت تقبض من الدولة في كل سنة ثمانين ألف ليرة ما عدا أجور المخابرات غير الرسمية ومكافأة له على هذا منح الوسام العثماني المرصع.

ثم مد خطاً تلغرافياً بين دمشق والمدينة المنوّرة ولم يكلف الدولة أكثر من خمسة آلاف ليرة لأنه تبرع بأكثر أعمدة الخط من أخشاب أحراجه الخاصة واستعان بالبعض الآخر مما تبرع به أهل الخير في دمشق ثم امتد الخط إلى الكويت وبذا حاز على الوسام المجيدي المرصع.



□ قطار حديدي في المحطة.

ويختم دي طرازي ترجمته للعابد بالقول: إنه رجل إقدام، لطيف المعاشرة، معتدل القامة، حسن الأخلاق شديد الإكرام، محب لبني جنسه وقد نفع كثيراً من أبناء العرب طلاب الوظائف فسعى لكل من لجأ إليه في تعيينه بوظيفة أو ترقية إلى منصب أعلى بحسب كفاءته ولباقته.

وكان دي طرازي قد أورد مؤلفات العابد ومنها نقله من التركية إلى العربية كتاب «حقوق الدول» لمؤلفه حسن فهمي باشا والمجلد الأول من تاريخ جودت باشا[١٤] لاحتوائه على فلسفة التاريخ، ومن العربية إلى التركية كتاب الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية.

هذا هو أحمد عزت العابد المفكر العربي والرجل الذي كان أحد الساسة الدوليين في زمانه كما نعتته بهذا أخيراً مجلة الوجاهة illustraction الفرنسية. ولم نر من باحثينا وكتابنا من بحث فيه أو كتب عنه. ولرب إشارة أغنت عن عبارة.

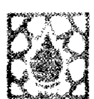
قصيدة فريدة في مدحه

لعل الشاعر الحمصي رسول حقي النجاري المدعي العمومي في لواء القدس الشريف انذاك ــ عام ١٩٠٢ ــ[١٥] قد أنصف العابد في مدحه إياه في قصيدة أربت على المائة من الأبيات استهلها بذكر سعاد ووصف جمالها حسب المنطوق التقليدي لقصائد المدح ثم خلص إلى ممدوحه وأخذ في تعداد صفاته ومآثره ولسوف نرى فيها إشارات لامعة لما أسهب فيه الفيكونت دي طرازي.

والقصيدة مشكولة طبع بضع منها في مطبعة حنانيا بالقدس عام ١٣٢٠هـ ــ ١٩٠٢م ضمن إطار تزييني بديع وهي في تهنئة أحمد عزة برتبة الوزارة[١٦] وتحتفظ بواحدة منها ولدى الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق الأخ الدكتور عدنان الخطيب نسخة مصورة عنها كما أن أحد أفراد الأسرة الدكتور برهان العابد رئيس القسم التخديري في كلية الطب البشري بجامعة دمشق لديه أيضاً نسخة مصورة. ●

مصادر وتعاليق

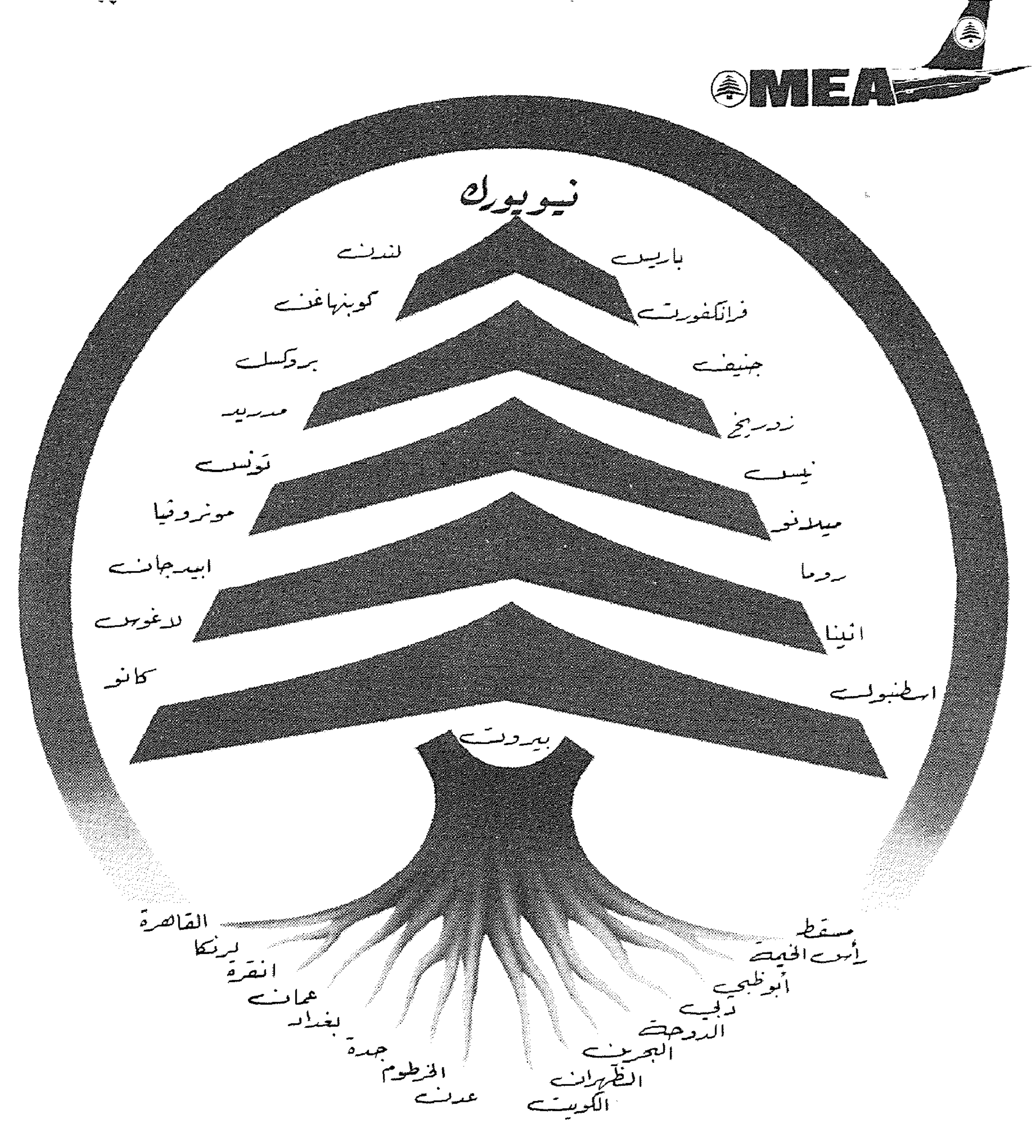
(١) تاريـخ الصحافة العربية بيروت المطبعة الأدبية ١٩١٣.
(٢) والانكليزية أيضاً ويقول دي طرازي: إنه أحكم أصول هذه اللغات تكلُّماً وكتابة.
(٣) يقول دي طرازي: «كان مسيطراً عاماً على جميـع المحاكم في ولايتي سوريا وبيروت لواء القدى ومما يثبت اقتداره في ضبط المحاكم ومعرفة القوانين أن «رستم باشا» و «واصا باشا» من متصرفي جبل لبنان كانا يعتمدان عليه باستدعائه لإصلاح شؤون محاكم جبل لبنان».
(٤) يقول دي طرازي: أصدر باسمه عام ١٨٧٨ جريدة دمشق ــ قبل تعيينه بوظائف الدولة ــ التي دافـع بها عن الدولة والوطن وقد نشر على صفحاتها فصولاً كثيرة أشار فيها إلى مآثر العرب ومفاخرهم وعلومهم وفضائلهم.
(٥) غادر الآستانة ليلاً في مركب خاص وعلى رأسه قبعة أوروبية حسبما كانت ترويه لي المرحومة أختي لأبـي التي كانت تقيم آنئذ في الآستانة مـع زوجها أحد أعضاء مجلس الشورى العثماني.
(٦) الأعلام لخير الدين الزركلي الجزء الأول، ص ٧٠، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٠.
(٧) منتخبات التواريـخ محمد أديب آل تقي الدين الحصني، ص ٨٥٣.
(٨) تاريـخ الصحافة العربية، الجزء الثاني، ص ٢١٦.
(٩) شهداء الحرب العالمية الأولى لأدهم الجندي، مطبعة العروبة بدمشق ١٩٦٠، ص ١٦١.
(١٠) أطلعني على هذا الكتاب الوثائقي وليس من تاريـخ عليه الأخ الدكتور برهان العابد رئيس القسم التخديري في كلية الطب البشري بجامعة دمشق كما أنه أطلعني على ما كتب عن أحمد عزة في كتاب منتخبات التواريـخ لدمشق تأليف محمد أديب تقي الدين الحصني من منشورات دار الآفاق بيروت والمؤتمر الدولي الثاني لتاريـخ بلاد الشام الجزء الأول، جامعة دمشق كلية الآداب وطبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق من ١٨٦٠ ــ ١٩٠٨ لفيليب شكري من جامعة هارفارد ثم في مجلة الكاتب العربـي في مقال للدكتور عبد الكـريم اليافي في بحث له عن محمد كرد علي وكلامه عن بيوتات دمشق غله الشكر.
(١١) يتبادر إلى أذهان الكثيرين أن الفيكونت دي طرازي مستشرق فرنسي مـع أنه لبناني الأصـل فهو: فيليب بن نصرالله بن أنطون بن نصر الله بن بطرس دي طرازي (١٨٦٥ ــ ١٩٥٦) وهو مؤسس دار الكتب في بيروت.
(١٢) استغرق حديث الفيكونت دي طرازي عن أحمد عزت باشا العابد في تاريـخ الصحافة العربية ست صفحات من صفحة ٢١٥ ــ ٢٢١ في الجزء الثاني فتأمل.
(١٣) احتفل بافتتاح الخط الحديدي الحجازي في ٣١ آب عام ١٩٠٨ في ذكرى جلوس السلطان.
(١٤) أحمد جودت باشا ١٨٢٢ ــ ١٨٩٥ مؤرخ تركي تولى وزارة العدلية وتوفي بالآستانة وقد ألَمَّ باللغة العربية له من كتبه العربية: خلاصة البيان في جمـع القرآن وتعليقات على المطوَّل في البلاغة وعلى الشافية في النحو وهو صاحب تاريـخ جودت في اثني عشر مجلداً باللغة التركية. «الأعلام للزركلي».
(١٥) حمصي الأصل والمنشأ تخرّج من الأزهر وأقام في دمشق بضعة أشهر كان فيها صديقاه محمد المبارك وطاهر الجزائري وسافر إلى الآستانة وكان مصححاً لمطبوعات الجوائب ومحرراً فيها، ثم انتسب إلى السلك العدلي متنقلاً بين البلاد العربية التابعة للسيطرة العثمانية وتقاعد في حلب الشهباء إذ كان فيها أحد أعضاء المحكمة الاستئنافية وتوفي في حمص عام ١٩١٩ وله مقامات وقصائد نشرت في الجرائد العربية في الآستانة وفي القاهرة وبيروت وله كتاب مخطوط: «الجواهر الغالية الأثمان في الرحلة إلى دار خلافة آل عثمان».
(١٦) الرتبة فخرية ولم يشترك العابد في أية وزارة إذ كان في غنى عنها فهو يعيّن الوزراء ويقيلهم...



□ الرجال في جميـع أنحاء العالم خمسة: الأول يخدم بلاده بالمال، والثاني بالعمل، والثالث بالقلم، والرابـع بحياته، والخامس بالسكوت، والجميـع يخونون أوطانهم إذا أهملوا فيما يجب عليهم أن يعملوه نحو بلادهم.

«جنسون»

مـوطنهــا لبـــنــان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جُذورهَا راسخة في الشرق الأوسَط
وأغصَانهَا ممتدّة في أرجاء الدّنيا



عبده الحمولي زعيم الغناء في الشرق

بقلم
الدكتور محمود الحفني



«إذا استطاع إنسان أن يحلق في جو الإبداع والابتكار في مثل البيئة التي عاش الناس فيها في خاتمة عصر المماليك، كان هو المعجزة حقاً.. وكان هو عبده الحامولي».

لا تكون العصامية جديرة بالتخليد حتى تبدأ نفسها بنفسها مستغنية بعنصر القوة فيها عن العلل والأسباب جميعاً، وإن كانت سير العظماء خاضعة في كثير من شأنها لمقدمات من البيئة والظروف المحيطة والأوضاع الاجتماعية والنظم السياسية والمستوى الثقافي الفني. بيد أن الشخصية تسمو على الأسباب والعلل، يختفي تأثرها بها، وكأنها خلقت من لا شيء لتكون شيئاً جديداً باهراً لعصرها الحاضر وللعصور الآتية.



لم يكن القرن التاسع عشر ليسمح للعبقرية المصرية أن ترتفع هامتها، فالأفق قاتم والظلام مخيم. وحيث أن الواناً من العبقريات شقت الطريق لنفسها، فما كان للموسيقى يومئذ طريق تشقه ولا جو تتنفس فيه الصعداء. ولا يعلم أحد إلا الله ما يعانيه رجال الموسيقى من الجفوة والاستبعاد عن كل ندوة عالية ووسط رفيع. وقد يتيسر الطريق أمام جاهل فينال في العلم مكان العظمة، أو أمام فقير بائس ملتصق بالتراب فيجتمع له الثراء من كل مكان، ويدخل هذا في زمرة أقطاب المعرفة وينخرط ذاك في سلك أقطاب الثراء. ومهما يكن من أمر فقد كانت العظمة على أي حال غير مستحيلة على المكافحين المجدين. ولكنها بالنسبة لرجل الموسيقى تتطلب الكفاح مضاعفاً والجهاد متواصلاً والصبر مريراً طويلاً للوصول إلى الخطوة الأولى في طريق بناء الشخصية، ولا سيما في مثل البيئة التي عاش فيها الناس في خاتمة عصر المماليك وبداية حكم يكرر نفسه بصورة أخرى. فإذا استطاع إنسان أن يبني شخصيته بين تلك القيود والأغلال، وأن يطلق العنان لروحه الوثابة ليحلق في جو الإبداع والابتكار كان هو المعجزة حقاً، وكان هو «عبده الحمولي».

نهضة فنية

منذ بداية القرن التاسع عشر كانت مصر قد بدأت تراجع حسابها مع التاريخ وتتطلع إلى التخلص من كابوس الظلام الجاثم على صدرها، وتلتمس لنفسها منفذاً من المظالم ومن ألوان التدهور الذي أصيب به الشرق والعالم الإسلامي معه. وآن لمصر ألا تصبر على التخلف عن الأمم وهي أم المدنيات ومؤسسة الحضارات. وكان من الحوافز لها إلى النهوض تلك الجولات والاتصالات الحربية والعلمية بينها وبين دول الغرب، فكل شيء يأخذ سبيله إلى التطور ويمضي في طريقه إلى التجدد والاختراع والابتكار. وسرعان ما وثبت مصر تنفض عنها الغبار بقوة من سواعد أبنائها ومن مواهب العبقريين فيها. وكانت الفنون في مقدمة ما اتجهت إليه المشاعر في هذه النهضة القومية الحديثة. والموسيقى من النهضة في الصميم والصدارة، ومن الفن في الذروة والقمة، لأنها المعبّرة بلغتها عن لغة الحياة ولأنها هي التي تصحب القافلة في طريقها إلى المجد. فما لبثت مصر أن ظهرت بها مدرسة فنية التقى فيها رئيس الملحنين محمد القباني وكبيرة المطربات سكينة وغيرهما. وإلى جانب هؤلاء أشرق الوعي الأدبي الذي يغذي الموسيقى بتراث الشعر القديم ويعيد إلى الغناء العربي مجموعة صالحة من ثروته المشتتة. فصنف في تلك الآونة السيد محمد شهاب الدين، وكان شاعراً مجيداً وموسيقياً ماهراً، كتابه «السفينة» وقد جمع في مصنفه هذا عدداً عظيماً من الموشحات العربية كانت عاملاً قوياً على إنعاش الفن القومي.

نشأته بطنطا

في هذه الفترة من بداية اليقظة بعد سبات عميق، وفي هذه الظروف التي لا تزال حالكة قاتمة إلا قليلاً من بصيص النور الآخذ في الازدياد، شب «عبده الحمولي» وترعرع بمدينة طنطا حيث كان مولده بها في نحو عام ١٨٤٣. وقد ولدت معه موهبة النبوغ الصوتي التي تنمو بنماء جسم الصبي الفنان رويداً رويداً، حتى تسامع به من حوله، وبدأ الناس يتحدثون عن صوت جديد لا عهد لهم به من قبل.

ولا شك أن الصبي الفنان قد اتخذ لصوته حللاً لفظية من الأهازيج الشعبية والأغنيات الريفية والمواليا الوطنية. إنها ثروة الريف والطبيعة الساكنة في هذه المدينة المحوطة بالمياه والأشجار، المليئة بالمساجد والمشاهد والموالد التي استمع فيها وفي حلقات الذكر إلى أصوات المنشدين وترتيل القارئين. كان للقصائد النبوية والتواشيح الدينية بتلك الحلقات أثرها السحري الفعال في تلك الفطرة الناشئة، فما أعظم ما حبته به الطبيعة في تلك الرقعة التي جمعت بين سكون القرية وحضارة المدينة.

هروبه من وجه أبيه

ما كاد أبوه المشتغل بتجارة البن يلمس الاتجاه الجديد في حياة نجله الصبي حتى ثارت ثورته وضاق ذرعاً بهذا العار الفني الذي سيلحق

به وبأسبرته فيسيء إلى السمعة ويصيب الكرامة في الصميم. وما لبث تاجر البن أن انهال على ولده بالتنكيل والتنكيد والإيذاء المستمر والمعاملة النابية القاسية. وأدركت رحمة الله ذلك المسكين بأخ شقيق يكبره كان له خير معوان في محنته وخير مواس على احتمال شدته. فاتفقا معاً، وسرعان ما نفذا تعهدهما، على أن يغادرا الوالد ويتركاه للبن يساوم فيه وللسمعة الطيبة يحتفظ بها ويصونها من خطر الموسيقى الداهم. وإذا سمعت بأن أخوين شقيقين قد أجمعا على الرحيل والانفصال من أحب الأمكنة إليهما، ومن ظل الأبوة التي كان مفروضاً أن تكون أبر الظلال بهما.. إذا سمعت بذلك فثق أن وراء الأخوين هموماً لم يطيقا الصبر عليها ففرا من وجهها إلى المصير المجهول. وهنا تتجلى العصامية على حقيقتها. فلو قد رأيتهما لهالك منظر فتيين يضربان في الأرض، فلا ثياب ولا طعام، يحمل كبيرهما صغيرهما إذا عجزت القدم وكلت الهمة عن مواصلة السير، في أرض موحشة وليال مظلمة، بين قطاع الطرق ومخاطر مختلفة، في غربة وفاقة ودموع... كل ذلك كان سبيل العصامية إلى الظهور بعد كفاح مرير.

مع الأستاذ شعبان

انتهى المطاف بعبده الحمولي إلى «شعبان» فمن هو هذا؟.. إنه مهاجر من طنطا كذلك، وهو يحترف الغناء والعزف كيفما كان. وتستطيع أن تقول أنه كان مدرسة للاستقبال والتعليم والتوجيه والتخريج، والاستغلال قبل كل شيء. فما كاد يتعرف مواهب «عبده» حتى التقطه وقبض عليه بيد قوية. فقد استطلع بفراسته الفنية ما وراءتلك الموهبة من ثروة يمكن أن يستنزفها إذا استخدم هذا الفنان بعد تدريبه والتعريف به والإعلان عنه. وكذلك صنع به. فقد مكّنه من الإلمام بالفن بالقدر الذي يمكن معه إقامة أفراح وحفلات واشتراك في سهرات. وكأن شعبان هذا قد خشي أن يفلت من يده هذا الصيد السمين، ولعله لمح وجوه منافسين جدد يحاولون أن يختطفوا الفريسة من بين يديه، فأسرع إلى تقييد «عبده» بالزواج من ابنته ليغلق بتلك المصاهرة باب المنافسة ويأمن على الصيد أن يطير. وفاته أن العبقرية أقوى من أن تكبل بمثل هذا الزواج المغرض المصطنع.

مع الفنان محمد المقدم

وقد ذاع أمر «الحمولي» بين الجمهور، وبحكم طموحه الفني كان لا بد أن يلتمس المزيد من رسالته. فمن هو هذا المعلم الذي يقصد إليه ويستزيد من منهله؟ إن ذلك المعلم هو «محمد المقدم» ذلك النجم اللامع في سماء القاهرة غناء وأداء، ولقد أعجب بعبده وشجعه لا على الفن وحده بل وعلى التخلص من المصاهرة المستغلة المتحكمة في كسبه وحياته. فوقعت الفرقة بين الزوج والضحية وتحرر الفنان والتحق بتخت «المقدم» وأجاد ما لم يكن يحسنه من الفن المألوف في عصره. وكان لا بد له من تلك الفترة، يستكمل فيها خبرته ويستوعب الموجود في زمنه.

ولكن ما لبث «المقدم» أستاذه الجديد أن أعاد في استغلال مواهب الفنان الفتي سيرة سلفه. إلا أن ذلك الاستغلال لم يدم له طويلاً، فقد استيقظ وعي الموسيقار الصغير، وبدأ يتنبه لاستقلال شخصيته والثقة بمقدرته. ولم يمض عليه كبير وقت حتى أصبح له تخته الخاص بآلاته ومنشديه.

بزوغ نجمه

بدأ نجم «الحمولي» يسطع وأخذ صيته ينتشر ويأخذ سبيله إلى الأوساط الثرية وقصور الأعيان وذوي المنزلة، حتى اختصه إسماعيل بمجلسه وصحبته وضمه إلى من حوله. والذي يعنينا من هذه الصحبة هو ذلك الوسط الموسيقي الراقي من الفن التركي الذي تمكن «الحمولي» من الاتصال به سواء في القاهرة أو في الآستانة. لقد كان زعماء الموسيقى التركية وقتذاك يوجهون الموسيقى الشرقية كلها بما كان لهم من إنتاج ومقدرة ومهارة. وقد ساعدت الزعامة الإسلامية والسيطرة السياسية على التمكين لهذه الموسيقى في كل بلاد الشرق. وكانت مصر أقرب الممالك الشرقية استعداداً لقبول ذلك الإنتاج الفني. وكانت موهبة «الحمولي» خير مرآة أعدت لقبول جميع الصور الفنية من الموسيقى التركية وغيرها من موسيقات الأقطار العربية الأخرى.

ولم تكن عملية هذه الموهبة تقليداً ومحاكاة، بل كان الأمر أعظم من ذلك شأناً. فإن ما كان لعبده من سمو الذوق وسلامة الفطرة وقوة الابتكار وقدرة الارتجال، مع حنجرة مواتية وصوت بارع مطاوع... كل ذلك ساعده على الحفظ ثم الهضم ثم الخلق والإبداع.

وكما استطاعت «جميلة» في صدر عهد بني أمية أن تحفظ الألحان الفارسية من سائب خاثر ثم تعربها، وأن تضعها أوضاعاً عربية سليمة تجعلها صاحبة مدرسة ومذهب جديد، فكذلك كان صنيع «الحمولي» مما استوعبه من الغناء الشرقي عامة والتركي خاصة، حيث أخذ بعد الحفظ يجدد ويمصر الموسيقى والغناء بما أظهر الفن في طابع جديد أخرجه من النواح والبكاء والتخاذل والضعف إلى القوة والرجولة والطرب المشرق الباسم الذي يخلق جواً من المرح والحبور. وقام بتهذيب ألحان التواشيح والقصائد، وقدم ألحاناً هي مزاج من أذواق متقابلة متلاقية دون إخلال بالطابع العربي والذوق المصري.

رسالته الفنية

كانت ثروة النغمات في مصر محدودة، وكانت الأصوات تجري في مجال ضيق من المقامات لا تتعداه، ويبقى سير اللحن على وتيرة واحدة لوقت طويل، في حال تدعو إلى السأمة والملل. فأخذ «الحمولي» يسلك في تلحينه وغنائه سبيل التلوين والتنويع، وراح يتنقل من مقام إلى مقام ومن نغمة إلى أخرى في سير اللحن. فخرج من جمود الترديد والإطالة إلى فسحة التجديد والانتقال والتغيير في توافق وانسجام وبراعة تستأثر بالسمع وتملك على النفس المشاعر وعلى القلوب مواطن الإعجاب.

لم يكن الغناء المصري يصور المعاني أو يقدر الارتباط بين الشعر والموسيقى كما ينبغي، فقام «الحمولي» بهذه الرسالة ولعب الدور الهام في إيجاد تفسير وشرح لمعاني الألفاظ بأسلوب أغانية وحمل النغم مسؤولية التعبير والإيضاح. وشعر المستمع بأن عليه أن يتابع المعاني في الأداء الفني بما لا تستطيع الأداة المجردة اداءه. بل تجاوز ذلك إلى التمثيل فكانت معالمه وملامحه وحركاته تساعد الغناء وتفسر الأداء. وكان ذلك تطلعاً إلى الموسيقى المسرحية التي كان له الفضل في توجيه صديقه الشيخ سلامة حجازي إليها.

* * *

قلما عرف أحد في تلك الآونة منطقة صوتية رحيبة الجنبات كالتي تمتع بها «الحمولي» بين المغنين. وما أشبه تلاعبه في حنجرته القادرة بأصابع «بجانيني» في حركاتها على الكمان تلك الحركات التي أعجزت عصره وجعلته الفرد المثالي بين أنداده. لشد ما كان يكافح العازفون على تخت «عبده» في ملاحقته صعوداً وهبوطاً، والسير معه في تعاريج النغمات والتواء المقامات، وهو يتسرب من بعضها إلى البعض الآخر في مهارة ودقة وتفوق طالما أعجز الآلات في منطقتها الصوتية المحدودة عن ملاحقته والتجاوب معه.

إن تفرد «عبده» في مكانته الموسيقية أتاح له فرصة الإنتاج المركز المتواصل من ابتكار وتصرف وبديهة حاضرة لها مقدرة الارتجال والتصرف المفاجىء الذي يفوق الاستعداد والتحضير.

ومن طرائف ما يروى في ارتجاله حادثة أشبه بالقصص الخيالي منها بالوقائع. جهز سرادق فخم لبعض حفلات الزفاف وأعدت لذلك بطاقات الدعوة تحديداً للعدد وتفادياً من الزحام. وكان ثمة حاجب لا يسمح بالدخول لمن لا يحمل بطاقة. وحدث أن دخل رجال التخت واستعدوا للحفل، وحضر «عبده» متأخراً عنهم فطالبه الحاجب ببطاقة الدعوة وهو لا يعرفه ونشأ بينهما أخذ ورد أحس به الجمهور ومعهم صاحب العرس. فحملوا الفنان الكبير وأجلسوه مع أصحابه في صدر السرادق. فما أسرع ما ارتجل «موالاً» لمس فيه الموضوع، واستغل الحادثة فأضفى عليها من براعة فنه ما يجعلها صالحة للغناء، وخلق منها موضوعاً وجدانياً جميلاً جديراً بالتقدير والتحليل، فقال:

ليه حاجب الظرف يمنعني وانا مدعى
لري روض المحاسن من دما دمعي
كم افتكر في احتجابك واشتكي وانعي
سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح
قول لي بحق المحبة ما سبب منعي

عبده والمظ

ولم يكن أحد من المعاصرين يساميه في المنزلة الفنية سوى الفنانة البارعة «ألمظ». كانت تجري معه في منهاجه، وتعزف الصوت على قيثارته، وإن كان لها مدرستها وأسلوبها النسوي في الغناء، وقد بدأت المنافسة بينهما ردحاً من الزمن قليلاً. وسرعان ما هدأت تلك المنافسة بينهما لأن باعثها الفن الجميل، ولا يمكن أن يكون الفن مثار حقد او كراهية، كما قد يحدث في بعض الأحيان من صغار النفوس. بل استحالت المنافسة إلى تجاوب قلبي استخدم فيه الغناء على أن يكون مطارحة غرامية أفاد منها الفن والمستمعون إليه. كانت هذه المطارحات في ليالي الأفراح الساهرة التي يلتقيان بها، وبينهما حجاب مسدول إن منع الرؤية والمشاهدة فلن يمنع الاستماع إلى الأصوات. كان هو يغني للرجال بينما تختص هي ببنات جنسها. ويتبادلان معاً أدوار الغناء على التعاقب، ولكل منهما «المطيباتي» الخاص به. وكم كانت هذه المنافسة مجال تسابق وارتجال، وخلق وإبداع، ثم تشوق وتعلق. وما أسرع ما أصبح المغنيان شاعرين مبدعين يناجي كل منهما الآخر في غنائه بشعر لا يقل في روعته عما كان يصنعه لهما إسماعيل صبري والشيخ علي الليثي والسيد محمد الدرويش وغيرهم من أقطار الشعر.

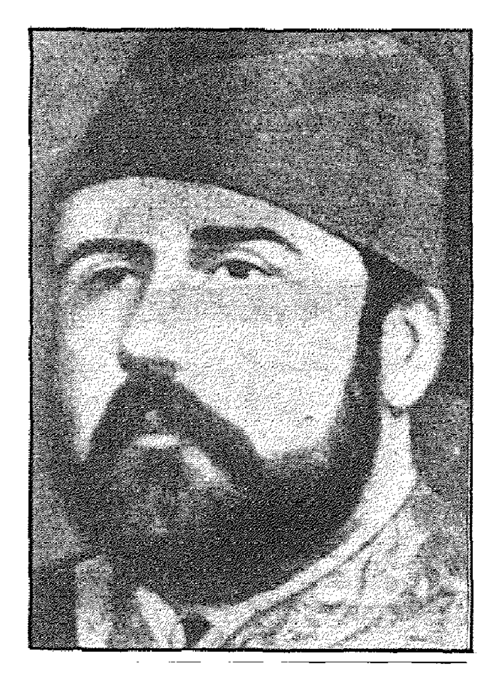
وقد سمعها «عبده» في إحدى تلك الليالي الساهرة وهي تغني:

يا سيدي انا احبك لله وربنا عالم شاهد
لاصبر على احكام الله لما يبان لي معاك شاهد
خبط الهوى ع الباب، قلت الحليوه اهو جالي
اتاري الهوى كداب يضحك على القلب الخالي

فما كان منه إلا أن غنّاها ارتجالاً الدور الآتي:

روحي وروحك حبايب
من قبل دي العالم والله
واهل المودة قرايب
إلخ... إلخ... إلخ

وبعد أن كانت تضمهما أفراح المتزوجين، ضمهما فرحهما وحفل زواجهما. وكانت طليعته



□ الخديوي إسماعيل.

ليلة فخمة عظيمة اجتمع لها أقطاب الفن احتفاء بأكبر علمين من أعلام الغناء المصري يلتقيان في قران سعيد. وإذا قيل «عبده» و «ألمظ» فالنجوم لهما تبع والفن لاسميهما نشيد. فهذا هو أحمد الليثي كبير العازفين بالعود وإبراهيم سهلون أمير الكمان ومحمد خطاب شيخ الآلاتية وغيرهم من أساطين الفن يحتشدون في ليلة الزفاف. وهذا هو «عبده» نفسه يغني لنفسه ويطرب المدعوين ويحييهم ويشركهم في ليلته التي جاد عليه بها الزمن الضنين.

إلا أن زواجهما هذا كان خسارة على الفن فقد سكنت البلبلة الغريدة واحتجبت بزواجها عن قبول إقامة حفلات العرس. أما هو فقد أصبح تاجراً ببيع الأقمشة إلى أجل ويغني متبرعاً بغير أجر. ثم لا تمض سنتان حتى تذهب تجارته وتفدحه الديون فيعود إلى المهنة يسترحمها ويستجدي كفها السمح المعطاء، فتعوض على ابنها البار كثيراً مما خسر.

ولم تشأ الأقدار لتلك السعادة الزوجية أن تدوم، فتوفيت سكينة المشهورة بألمظ زوج عبده الحمولي، قرينته الوفية المضحية. وكانت لوفاتها كما كان لعرسها ضجة أدبية اشتركت فيها الموسيقى والشعر. وبدا لنا أن الزوج كان وفياً وأن سعادته بها لم تكن قاصرة على الأيام الأولى، بل كانت عشرة هنيئة قدرها هو وحزن

عليها، فبدأ يغني بعد وفاتها:

شربت الصبر من بعد التصافي
ومر الحال ما عرفتش أصافي
يغيب النوم وافكاري توافي
عدمت الوصل يا قلبي على
دور
على عيني بعاد الحلو ساعة
ولكن للقضا سمعاً وطاعة
لأن الروح في الدنيا وداعة
عدمت الوصل يا قلبي على

مصائب الفنان

ولم يكن «عبده الحامولي» بمعزل عما أصاب النابغين في كل عصور التاريخ من نكبات وآلام. ولكي يكون واحداً من هؤلاء الأفذاذ لا محيص له من تجرع الكأس المريرة التي ذاقوا بها الهموم والأكدار. وقد فاز «الحمولي» بنصيب الأسد من ذلك.. طارده أبوه صغيراً، واستغله المعلم شعبان صبياً، واحتكره المقدم فتى، وحاربه زملاؤه بعد ذلك رجلاً وفناناً، ثم قسى عليه القدر فأفقده «ألمظ». ثم أمعن القدر في قسوته فسلبه فلذة كبده من زوجة ثالثة وهو في ملابس العرس وأفراح الزفاف. فخلقت تلك الجراح القاتلة من المغنى شاعراً يصور الكارثة أفدح تصوير لمأساته في ولده محمود فيغني مرتجلاً:

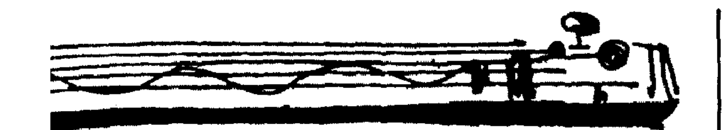
ليه يا عين ليه ليه يا عين
يا حليوة يا نور العين
كبدي يا ولدي يا جميل يا جميل
لما رأيت البدن داب مني
ودمع عيني بعد أن نشف مني
كبدي يا ولدي آه يا جميل يا جميل

ومما غنّاه أيضاً:

زاهي جمالك فتني لما بدا نور جبينك
ونبل الحاظك تجرح من سهم قوس حاجبينك
كبدي يا ولدي

إحسانه إلى الفقراء

وكانت تلك الآلام الفادحة الأستاذ الأول للعصامي الفنان، فجعلت منه رجلاً تقياً متعبداً يقيم الصلوات لأوقاتها. فيا لها من موسيقية تذكرنا بما كان في عهد بني العباس — حيث العصر الذهبي للغناء العربي — من قيام طائفة

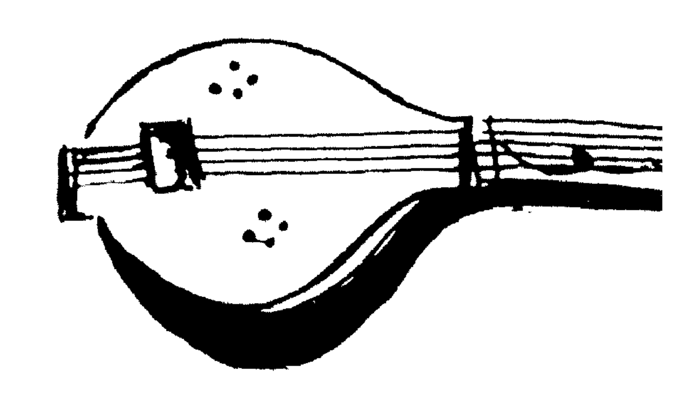


من الموسيقيين الممتازين الورعين الأخيار الأبرار. إلا أن «عبده» امتاز بغناء ليس فيه حرص «الموصلي». فقد كان «الحمولي» ذا كرم وسماحة ومروءة وإيثار، حتى بلغ الحديث عنه ما يشبه النوادر. ولا ريب أنه في ذلك أنبل وأشرف من أرباب الثروات الذين ينفقون ما لا يخشون خسارة فيه. أما هو فقد كان ينفق من كسبه اليومي، ويعطي كل ما في يده للفقراء ولمن افتقروا بعد غنى. جاد مرة لمدين بخاتم من زمرد قيمته حوالي ألف جنيه حين لم يجد من المال عنده ما يسد حاجة المدين عندما التجأ إليه. كما ترك إقامة حفل لغني بخيل وذهب فغنّى في فرح رجل فقير قدم له الغناء وأنفق تكاليف العرس على حسابه الخاص. ولم تكن هذه وحدها بل لقد أقام عشرات وعشرات من حفلات غنّى بها وجمع فيها النقود لأصحابها، فأغاث فقيراً بائساً، أو أعان صديقاً مال به الدهر، حتى لقد جلس إلى جانب بائعة بائسة في الطريق المؤدي إلى شارع شبرا الآن ونادى بسلعتها في صوته الرخيم حتى امتلأ الطريق بعربات الأعيان وتدفق المال سيلاً على البائعة البائسة، وعادت إلى منزلها وهي من أصحاب الثراء.

ومن خير ما يؤثر عنه ارتفاعه بنفسه وبالموسيقيين ودأبه المتواصل على إعلاء نظرتهم إلى فنهم ونظرة الناس إلى أشخاصهم. من ذلك أن السراة والأعيان كان من عادتهم أن يقذفوا بالذهب والجواهر في حفلات الزفاف والأعراس فيسرع الحاضرون إلى التقاطها. وهنا تتجلى نزاهة «الحمولي» وعفته وتساميه فيطلب إلى رجال تخته وتابعيه ألا ينحدروا إلى مثل ما يصنعه غيرهم من التقاط شيء مهما غلا ثمنه لأن الفن عنده أغلى من كل شيء.

إبداعه

ولقد أبدع «عبده» ثروة فنية من أدوار ومواليا وتواشيح وقصائد أخذت منه وحفظت عنه، ثم



أصبحت بعد ذلك تراثاً يخلد اسمه ويعلي ذكراه.

ومن أشهر أدواره غير ما قدّمناه، دور مطلعه:

الله يصون دولة حسنك
على الدوام من الزوال
ويصون فؤادي من نبلك
ماضي الحسام من غير قتال

وآخر مطلعه:

مليك الحسن في دولة جماله
ملك عقلي وأفكاري وروحي
ومن تيهه أسر قلبي دلاله
وزاد في محبته وجدي ونوحي

وآخر مطلعه:

يا منية الأرواح
جد لي بوصلك يوم
العقل مني راح
وهجر عيوني النوم
والمدامع مطر
يا شقيق القمر
والقلب انفطر
وازداد عذولي لوم

وآخر مطلعه:

متع حياتك بالأحباب
انسك ظهر
شان الطرب يشفي الأوصاب
للي حضر
وكيد زمانك واتهنا
وافرح وطيب
وانفي همومك بالأكواب
سعدك أمر

وآخر مطلعه:

شربت الراح في روض الأنس صافي
على زهر الغصون وردي وصافي
وهناني الزمان والوقت صافي
سمح بالوصل محبوبي إلي
المطر يبكي لحالي، والقمر يطلع يكيد
ني، وعذولي ما رثى لي

أما المقامات التي كان يجري فيها غناؤه لهذه الأدوار وأمثالها، فقد كانت في الأهم: الحجازكار والعجم والنهاوند والراست والبياتي والعراق والسيكاه والعشاق والجهاركاه.

ولقد سمعت الآذان المصرية من «عبده» جمال تصفية هذه المقامات وروعة نغماتها ورقة ألحانها في صوت سحري وألفاظ عربية وروح مصرية وأعجاز بلغ به الغناء غايته والفن الشرقي منتهى مداه.

وسافر «عبده الحمولي» سنة ١٨٩٦ إلى الآستانة عاصمة الشرق يومئذ فنالت مصر به سمعة عالية حملت الأوساط المختلفة على الاعتراف لها في شخص فنانها الكبير بما هي جديرة به من مكانة. وعاد «الحمولي» مزوداً بالهدايا، وبما فوق الهدايا من تشريف وتقدير.

غروب نجمه

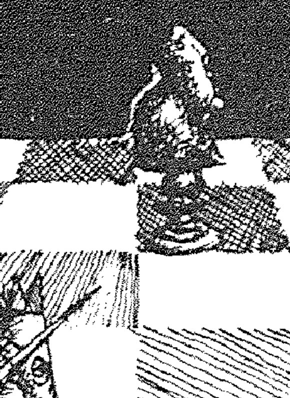
أما وقد بلغ هذا النجم نهاية أوجه، فقد آن له أن يحول رويداً رويداً إلى الغروب والاحتجاب، وهكذا بدأت الأمراض تفعل به فعلها. وداهم مرض السل صدر ذلك العبقري فنصح له الأطباء بمغادرة القاهرة والإقامة بأعالي الصعيد، حتى إذا سنحت بوادر الشفاء عاد إلى حلوان. وبها كانت نهايته في فجر اليوم الثاني عشر من شهر مايو سنة ١٩٠١ عن ستين عاماً، مثل فيها دور العصامي المؤمن بشخصيته وفنه، الباذل من صحته وعبقريته ما يسجل بمداد ذهبي بين ذوي المروءات. ولن تنسى الخدمات الاجتماعية في تاريخها ما تبرع به «الحمولي» من إحياء ليال وحفلات لخدمة الهيئات الخيرية.

وانتهت حياته بنهاية القرن التاسع عشر، وتوارى عن الأنظار في بداية القرن العشرين لتكون تركته مدرسة كان تلاميذه فيها كل من جاء بعده، واقتفى أثره، من أمثال: محمد السبع وأحمد حسنين والشيخ أبو العلا محمد وكثيرين غيرهم، وسوف تبقى ميراثاً للجيل وتراثاً للأجيال القادمة. ●

الشطرنج عبر التاريخ

(الجزء الثاني)

إعداد
محمد مراد شكر
رئيس الاتحاد اللبناني للشطرنج





٨٠ ـ تاريخ العرب والعالم

دخول الشطرنـج إلى أوروبا

كثرت الروايات حول هذا الموضوع فقيل دخلت إلى الأندلس عن طريق أفريقيا أثناء الفتوحات الإسلامية وذلك عن طريق جبل طارق، وانتشرت في إسبانيا ثم انتقلت إلى قصر شارلماني في فرنسا حوالي سنة ٧٦٠ م، وقيل أن اللعبة كانت بين الهدايا التي أرسلت إلى شارلماني عندما كان يود عقد قرانه على الأميرة البيزنطية TRENE، ولعل أقرب قصة إلى الحقيقة أن ذلك تم أثناء الحروب الصليبية، فالمعروف أن السلطان صلاح الدين، بسط سلطانه على مصر وسوريا وكان للشطرنج المركز المحترم في بلاطه، والمعروف أن المسيحيين تعلموا خلال هذه الحرب أسرار الطب العربي وإنشاء المستشفيات ومن الممكن أن يكونوا قد تعلموا الشطرنج، ولدى عودتهم إلى بلادهم نشروا الشطرنج في أوروبا، وإن لم يكن لدينا أدلة كافية على هذا. ويقول موراي، انتقل الشطرنج إلى أوروبا من قبل المسلمين عن طريق أفريقيا، أما اسبانيا فقد تم عند الفتح الإسلامي وإلى إيطاليا من قبل السراقسيين.

ومهما تعددت الروايات فالثابت منها كلها أن العرب والمسلمون خصوصاً هم الذين نقلوا الشطرنج إلى أوروبا سواء أكان ذلك أثناء فتوحاتهم إلى اسبانيا، أو عن طريق حروب صلاح الدين، أو عن طريق القافلات التجارية العربية، ذلك أن الشطرنج الذي كان معروفاً في أوروبا ذلك الحين، كان طبعة طبق الأصل لما كان عليه الشطرنج عند العرب ولعل أبرز دليل على فضل العرب بانتشار الشطرنج في أوروبا، أن الكتاب الأول عن الشطرنج في أوروبا ظهر في اسبانيا في القرن التاسع وكان مؤلفه يدعى يحيى.

ويقول غولومبك GOLOMBEX في كتابه تاريخ الشطرنج، أن المؤرخين يميلون إلى أن الشطرنج دخل إيطاليا عن طريق التجار العرب الذين كانوا يصلون إلى جنوى والبندقية أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر وأن فرنسا عرفت الشطرنج عن طريق اسبانيا وانكلترا عن طريق فرنسا.

العصور الوسطى

انتشر الشطرنج انتشاراً سريعاً في أوروبا حتى غدا تسلية النبلاء المختارة، ويرجع المؤرخون سرعة انتشار هذه اللعبة إلى حياة الوحدة والبطالة التي كان يعيشها هؤلاء النبلاء في قصورهم وإلى الأموال الطائلة التي كانوا يخسرونها أثناء اللعب، مما حدا بالدولة إلى تحريم هذه اللعبة ظناً منها انها لعبة حظ تلعب بالنرد فقط كسائر الألعاب المعروفة آنئذ، كما حاربت الكنيسة الشطرنج لنفس السبب في بدء انتشاره. وعاقبت أحد المطارنة لانه لعب خفية في أحد الفنادق كما أن مطران باريس ETUDES DE SULEY سنة ١٢٠٨ م، حرم دخول الشطرنج إلى الأبرشية، ولكن ذلك لم يمنع أحد القسس، ويدعى بيار داميان، من أن يؤلف كتاباً في الشطرنج سنة١٠٦١م ولعله اقدم كتاب يؤلفه قس.

وقد برع الغربيون كثيراً في الشطرنج وشغفوا به، وكان الاسبانيون والبرتغاليون في الطليعة كما يقول داميانو سنة ١٥١٢.

ومن أهم مؤلفات العصور الوسطى مخطوط نفيس محفوظ في سان لورنزو في مدريد ألفه وقدم له الملك الونو العاشر سنة ١٢٥٠م وهو يحوي على ١٠٣ مسائل في الشطرنج كلها منقولة عن العرب. ومخطوط آخر ظهر في نصف القرن الرابع عشر من تاليف دي نيقولاي يحوي ١٩٢ مسألة أطلق عليه اسم (بونس سوسيوس) أي الرفيق الفاضل (أو افضل رفيق).

القرن الخامس عشر وهو محطة مهمة في تاريخ الشطرنج

يعتبر القرن الخامس عشر، عهد النهضة والتجديد، وقد كان لاختراع الطباعة في ذلك القرن، الفضل الأول في تركيز الشطرنج ووضع قواعد له، إذ حددت في هذا القرن طريقة انتقال الفيل والوزير كما أوجد التبييت ولم يكن يعرف قبل ذلك، كما سمح للبيدق الذي يصل إلى

الخانة الثامنة أن يتحول إلى أية قطعة يريدها اللاعب (ولم يكن يسمح له بالماضي إلا أن يتحول إلى وزير).

وقد تم تعديل طريقة تنقل الفيل والوزير في أواخر القرن الخامس عشر، وأصبحت كما هي معروفة اليوم، ويظن فان ديرلاند أن هذا التعديل قد تم في فرنسا، لأن الشطرنج كان منتشراً في ذلك الوقت في فرنسا أكثر من أي بلد آخر، بينما يقول فان درلاسا أن هذا التعديل يرجع إلى سنة ١٤٧٥م، ويعود الفضل فيه إلى أسبانيا. وقد انتشر التعديل الجديد بسرعة حتى نسي الكثيرون القديم، وكان الفيل في الماضي يقفز من مكانه شأن الحصان وبالتدريج ألغي ذلك وأصبح يتنقل عمودياً كما هو معروف اليوم، وكذلك الوزير (الفرز فيما مضى) وهذا التعديل جعل اللاعبين يتركون القاعدة العربية القديمة التي كانت تعتبر البات كالمات. ثم جرى التعديل النهائي عند وضع التبييت، وكان ذلك ثالثة الأسافي في التجديد، وبعد ذلك لم يطرأ على قوانين اللعبة أي تجديد سوى السماح للبيدق الذي يصل إلى الخانة الثامنة من أن يصبح أية قطعة كانت كما أسلفنا. وكان الرخ عند العرب أقوى القطع إطلاقاً وأصبح الوزير بعد هذه التعديلات أهم القطع كما نعرف اليوم.

بعد هذه التعديلات الجذرية، برز في الشطرنج جماله المعروف اليوم، وأخذ اللاعبون يرون فيه تسلية كبيرة، فبدأوا بكتابة الأدوار وحفظها.

ولعل أقدم مخطوطة ذكرت القواعد الجديدة هي مخطوطة فلورنسا Manuscrit De Florence وهي مخطوطة إيطالية من القرن الخامس عشر، وفيها عدة مسائل شطرنجية، وأتى بعدها في سنة ١٤٩٧، كتاب إيطالي، وهو أول كتاب طبع عن الشطرنج، ألفه لوسينا Lucena وهو ابن موظف كبير في أراغون سافر كثيراً إلى إيطاليا وفرنسا، والكتاب هذا يشرح القواعد الجديدة بالإضافة إلى ١٥٠ صورة لرقعة الشطرنج في أوضاع مختلفة واحد عشر استهلالاً لجولات لعبت. وظهر بعد هذا الكتاب مخطوطة كوتنغ Manuscrit De Gottingue وهي أيضاً على ما يظهر للوسينا نفسه وفيها ثلاثين مسألة واثنا عشر استهلالاً جديداً لجولات لعبت. وكان التبييت كما ظهر في هذه المخطوطة يجري على نقلتين، ينقل الرخ قرب الشاه ثم يقفز الشاه في نقلة أخرى خلف الرخ أما التبييت الطويل فيجري في ثلاث نقلات. هذه المخطوطة نفيسة جداً لأنها تحوي لأول مرة جولات كاملة لعبت في ذلك الوقت.

عهد النهضة في القرنين السادس والسابع عشر

كان أهم حدث في القرن السادس عشر كتاب داميانو الذي ظهر سنة ١٥١٢، وقد طبع هذا الكتاب في روما وأعيد طبعه مراراً فيما بعد كما ترجم في فرنسا وانكلترا خلال القرنين السادس والسابع عشر ثم في ألمانيا، ويقسم الكتاب إلى عشرة فصول ويتبع الترقيم الوصفي المعروف حالياً، وقد اعتبر كأحسن كتاب عن الشطرنج ظهر في ذلك العصر. وداميانو كان صيدلياً من مواليد البرتغال. كما أقدم الشاعر اللاتيني مارك أنطوان الذي دعي فيما بعد جيروم فيدا على نظم قصيدته المشهورة عن الشطرنج وهي مؤلفة من ٦٥٨ بيت وفيها وصف كامل شعري للعبة. نشرت قصيدته هذه لأول مرة سنة ١٥٢٥ والقصيدة على شكل قصة تقول: عند إعلان زواج المحيط مع الأرض، علم جوبيتير الشطرنج إلى الأولمبيين، ثم دعى أبولون ومركير Mercure للعب جولة، ثم يبدأ بشرح تفاصيل الجولة حسب القوانين الجديدة، وتنتهي الجولة لصالح مركير.

بعد نصف قرن من كتاب داميانو ظهر أول كتاب يتبع القواعد الجديدة ويهتم بالجولات الكاملة ألفه روي لوبيز Ruy Lopez الذي يعتبر بحق مؤسس القواعد التطبيقية والفنية في الشطرنج، نشر كتابه سنة ١٥٦١ في الكالا قرب مدريد ثم ترجمه إلى الإيطالية بوليريو مع زيادة بعض الجولات ولكن الترجمة لم تطبع. كما ظهر كتاب آخر أسباني لفرنسيس فيسان Francesh Vicent في فالانسيا ولم يبق منه أية نسخة.

ولوبيز هو واضع الجولة الأسبانية التي تدعى باسمه والتي يلعبها كثير من الأساتذة اليوم، وقد لا تخلو مباراة دولية من عدة جولات أسبانية.

كان اللعب عند العرب صورة واضحة عن الحرب، تملأ النفس إعجاباً بفن العرب في هذه اللعبة، ولكن ترك العرب لها وانتقالها إلى أشخاص كانوا يحاولون ابتذاذ الأموال بها جعلها لا تحمل طابع الفن بقدر ما تحمل طابع الحيلة والخداع، ولكن كتاب لوبيز السابق الذكر، أرجع لها الطابع القديم، فاستعاد الشطرنج في هذين القرنين روحه النبيلة القديمة وعاد يمثل الحرب كما كان في السابق. وكان ذلك سبباً في انتشار الشطرنج في أسبانيا وإيطاليا، كما كثر حماة هذه اللعبة بين الملوك والأثرياء أمثال الملك فيليب الثاني، دون فابريزيو، الملك سباستيان ملك البرتغال، دوق أوسينا، دوق أوربينو، البارون دي بيسكاري والبارون دي سيكيليانا وغيرهم. وهكذا أصبح الشطرنج التسلية المحببة للنبلاء الذين كانوا يحمون هؤلاء الأبطال ويهيئون لهم المباريات في قصورهم مما ساعد على انتشار الشطرنج والتعمق في قواعده فبرز في هذا العصر كثيرون جداً، منهم ليونارد بوا، سانتا ماريا، أفالوس، اسكوفارا، مورو، سالفيو، كاريرا وكثيرون غيرهم بالإضافة طبعاً إلى لوبيز الذي كان يتمتع بعطف وحماية الملك فيليب الثاني.

القصة التالية التي نرويها عن أبطال ذلك العصر، تعطينا فكرة واضحة عن الشطرنج واهتمام الناس به.

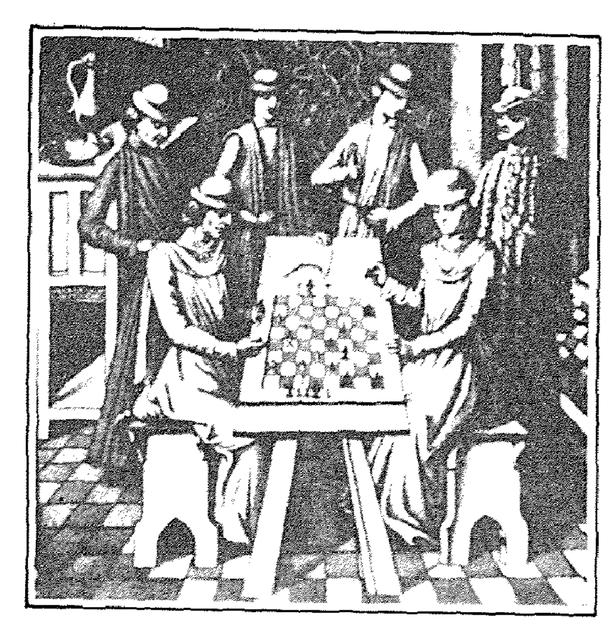
ليوناردو، شاب من مواليد كورتي Curti كان يدرس الحقوق في روما (١٥٧٢ ــ ١٥٨٥) أولع في الشطرنج وأخذ يتفوق على اللاعبين الرومان بسرعة عجيبة، وصادف أثناء دراسته أن حضر إلى روما في مهمة دينية من قبل الملك فيليب الثاني اللاعب الشهير لوبيز، وكان من الطبيعي أن يقابل لاعبي الشطرنج هناك، وأن يتغلب عليهم واحداً بعد الآخر بما فيهم ليوناردو، ولكن الأخير وهو اللاعب الطموح، لم يعجبه ذلك، فانسحب إلى نابولي حيث بقي سنتين يدرس الشطرنج ويهيء نفسه لأخذ الثأر من لوبيز. في تلك الأثناء وصل إلى نابولي اللاعب المشهور باولو بوي Paolo Boi المعروف بالسراقسي Le Syracusien من مواليد ١٥٢٨ من عائلة نبيلة وغنية، عرف بذكائه الحاد وبنجاحه كرجل أدب، ولكنه كان ذا موهبة عظيمة في الشطرنج إذ كان



□ الراجا، وهي إحدى القطع المهداة إلى شارلمان من قبل هارون الرشيد.

يستطيع أن يلاعب ثلاثة لاعبين بالتتابع في وقت واحد وهو مغمض العينين بينما يتابع مناقشة مع المتفرجين في أي موضوع آخر. وتبارز الاثنان في سلسلة من المقابلات انتهت كلها بدون نتيجة، وفي صباح يوم كان عليه فيه أن يتابع اللعب مع باولو بوا، قرر ليوناردو أن يسافر إلى أسبانيا لمقابلة لوبيز تحقيقاً لحلمه، وهكذا ترك نابولي دون سابق إنذار تاركاً بوا يتابع جولاته بنجاح ضد أحسن اللاعبين.

وفي برشلونة، التقى ليوناردو بأحسن اللاعبين المعروفين في ذلك الوقت، توماس كابيتو، وجيوفاني رودريكو، فاتفق الثلاثة أن يربحوا المال بطريقة غير شريفة ضد لاعب رابع يدعى موسياسو Mucciacio وذلك بأن يخفي ليوناردو قوته الحقيقية حتى يجر موسياسو ليلعب بمبالغ باهظة.



□ الملك لويس الحادي عشر على اليمين يلعب الشطرنج مع أحد أفراد حاشيته.

ووصل اللاعبون الثلاثة إلى مدريد حيث يقطن لوبيز، الذي كان يتمتع كما أسلفنا بحب الملك فيليب الثاني. ولم يعرف لوبيز ليوناردو فتحرش به، فقبل الأخير شرط أن يدفع المغلوب ٥٠ سكودي أي ما يقابل ٢٥٠ فرنكاً مقابل كل جولة، وتعادل الاثنان في الجولة الأولى، ولكن ليوناردو ربح الثانية مما أدهش جميع الحاضرين الذين لم يكونوا يعرفون ليوناردو على حقيقته. فعلم بالأمر الفونسو شيرون Alfonso Ceron الخصم الدائم للوبيز، وهو يماثله قوة، فحضر على الفور من غرناطة، وبدأ الثلاثة باللعب، ولكن تفوق ليوناردو كان ظاهراً في كل مرة.

وعلم باولو بوا بالأمر، والحظوة التي ينالها هؤلاء اللاعبون الثلاثة في مدريد من قبل الملك والنبلاء، فتوجه على الفور إلى مدريد، ولكن القراصنة أوقفوه على الطريق وحجزوه في الجزائر مدة من الزمن، وما أن استعاد حريته حتى تابع سفره إلى مدريد في وقت كان ليوناردو يلعب مع شيرون، وبدون أن يلقي أية كلمة جلس بين المتفرجين، فلما انتهت الجولة رآه ليوناردو وتعرف عليه وقدمه للحاضرين معلناً عن رغبة مواطنه بمقارنة قوته في الشطرنج معه، فتقرر أن يلتقي الاثنان في اليوم التالي، ولكن ليوناردو اضطر أن يترك مدريد في المساء بعد أن تلقى نبأ وفاة زوجته. فلعب بوا مع شيرون ولوبيز وتغلب عليهم، ولما رجع ليوناردو وبعد عدة أشهر إلى مدريد تقرر أن يلتقي البطلان.

بقي البطلان في اليومين الأولين متعادلين بدون أن تعرف النتيجة ولكن ليوناردو خرج ظافراً في اليوم الثالث تاركاً خصمه في حالة يائسة جعلته يغادر مدريد. ترى هل نستطيع أن نعتبر هذه السلسلة من المباريات أول دورة عالمية للشطرنج، قد يكون ذلك، وعلى كل حال فقد صنفت هذه المباريات اللاعبين في ذلك العصر ووضعت ليوناردو في الطليعة كأحسن لاعب في العالم.

بعد أيام من سفر بوا، غادر ليوناردو بدوره مدريد عائداً إلى نابولي حيث التقى كثيراً ببوا ثم رجع إلى بلدته كوتري حيث توفي مسموماً في قصر الأمير بيزينيانو Bisignono وكان يبلغ الخامسة والأربعين.

وتابع باولو بوا تنقلاته، ولعب كثيراً مع سيباستيان ملك البرتغال الذي كان يحب الشطرنج، ثم زار هنغاريا ونازل الأتراك الذين كانوا يلعبون بسهولة وهم على ظهر حصان ودون أن يروا الرقعة. ثم انقطعت أخباره مدة عشرين عاماً حتى رجع إلى صقلية، وكان هناك يكثر من الانتقال من مدينة إلى أخرى وقضى أيامه الأخيرة في قصر الدوق أوربينو الذي كان يقدم له راتباً دائماً. توفي باولو سنة ١٥٩٨ وكان يبلغ من العمر سبعين عاماً، واختلف الرواة في موته، فمنهم من قال أنه مات مسموماً من قبل خادمه وآخرون بأنه توفي على أثر نوبة قلبية.

أساتذة القرن السابع عشر

بعد هذا العصر الذهبي للشطرنج، أتى لاعبون أقل شهرة ومهارة، ولكنهم عرفوا بالأساتذة لأنهم حللوا المناورات في الشطرنج وحاولوا وضع جولات مدروسة. ومن حسن الحظ، أن أغلب الجولات التي لعبت في أسبانيا وإيطاليا في العصر الذهبي، جمعها الأستاذ كيليو سيزار بوليريو Giulio Ceasare تلميذ ليوناردو المشهور، وكان يعتبر من أمهر اللاعبين حتى أوائل القرن السابع عشر نظراً لاختلاطه الدائم مع كبار اللاعبين والأساتذة وتمرينه المتواصل وبقي كذلك حتى سنة ١٦٠٦ حين

تغلب عليه جيرونيمو كاسيو Geronimo Cascio De Piazza وقد جمـع بوليريو ما يقارب ٢٥٠ جولة عدا جولات لوسينا ولوبيز.

وبرز في ذلك العصر أساتـذة آخرون مثـل Horatio Gianutio ثم Alessandro Salvio وكان دكتـوراً في الحقوق ثم Pietro Carrera ولكن اشهر أساتذة ذلك العصر بدون ريب كان كريكو Giochino Greco ولد سـنـة ١٦٠٠ وعـرف بـ Calabrais لأنه تربـى في كالابر، غادر بلده سيليكو من أعمال نابولي إلى روما، وكان يبلـغ السابعة عشر من عمره ثم زار اللورين وفرنسا، وفي باريس لـمع اسمه كأحسن لاعب بعد أن ربـح ٥٠٠٠ بيستول. في سنة ١٦٢٢ سافر إلى انكلترا ثم عاد إلى فرنسا وذهب من هناك إلى مدريد. في سنة ١٦٢٦ عاد إلى نابولي ولكنـه سرعان ما غادرها مـع نبيل أسباني إلى أميركا الجنوبية حيث توفي هناك سنة ١٦٣٤.

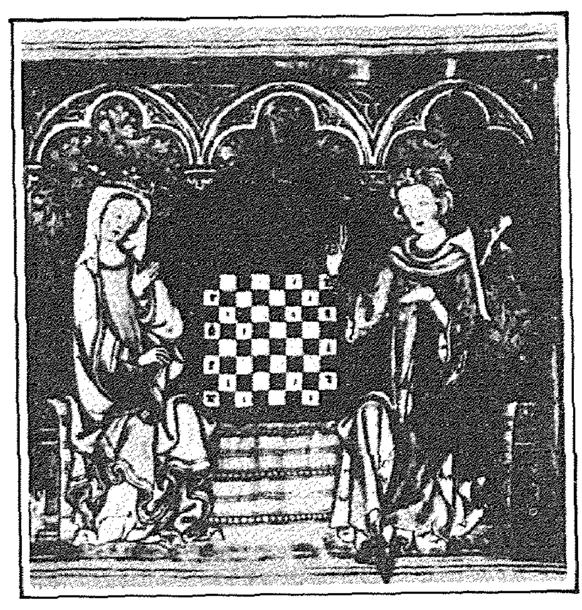
يقول سالفيو في كتابه، أنه كان في قصر الملك فيليب الرابـع لاعب يدعى مارونو، كان أمهر من كريكو.

ولكريكو عدة مؤلفات، وله فضل كبير بإيجاد وشرح المناورات الشطرنجية.

الركود

بوفاة كريكو انتهى العصر الذهبـي للشطرنـج وخيم عليه الركود حتى نصف القرن الثامن عشر إذ توقف انتشار الشطرنـج كالسابق وجل اعتماد اللاعبين كان على كتاب كريكو ولوبيـز وبقيت إيطاليا الزاهرة في الماضي بدون أي إنتاج. في فرنسا كان انتصار ملك الشمس يشغل الناس اكثر من أي شيء آخر، أما المانيا فكانت بعد حرب الثلاثين مشغولة بجراحها التي لم تندمل بسرعة، أما انكلترا فكانت تسيطر عليها روح محاربة الألعاب فانصرف الناس عن الشطرنـج ومـع ذلك يقول الرواة أن شارل الثاني كان لا يجد ضيراً من وقت لآخر بالذهاب إلى نادي البحـارة الثلاثـة Taverne Des Trois Marins ليلعب الشطرنـج.

لذلك خلت هـذه الحقبـة من مـؤلفـات في الشطرنـج، اللهم إلا القليل منها، ولكنه أقـل أهمية مما صدر في الماضي، ففي ١٧٣٥ نشر



□ لعبة الشطرنـج في أوروبا ١٣٣٤.

الكابيتان الانكليـزي بيرتن Bertin كتـاباً عن الشطرنـج The Noble Cames Of Chess.

في هذا الوقت برز في فرنسا فيليب ستاما وهو من مواليد سوريا، وقيل من حلب وبعد أن قضى وقتاً يتدرب في إيطاليا وانكلترا وكان لاعباً مهاجماً من أبرع اللاعبين في ذلك الوقت حتى لقبه بعض المؤلفين آخر أبرع اللاعبين العرب (إذا لم يبرز بعده أي لاعب عربـي).

في سنة ١٧٤٧، عندما كان البطل الفرنسي فيليـدور في انكلترا، لعب مـع ستـاما، وكـان فيليدور يعتبر التعادل مـع إعطاء بيدق ربحاً لستاما، ولكن المبـاريات انتهت مـع ذلك مـع ستاما خمسة مقابل أربعة لصالـح فيليدور.

في سنة ١٧٣٧، نشر ستاما كتابه في فرنسا وأعاد نشره سنة ١٧٤٧ في انكلترا، في كتابه هذا يضـع ستاما اللاعبين العرب قبل لاعبـي الغرب من حيث المهـارة، ويعزو ستـاما ذلك إلى أن اللاعبين في الشرق العربـي، يقبلون الاستشارة والنصيحة وينتخبون دائماً منافسهم، بينما في أوروبا يلعب كل على ذوقه ولا يرضى اللاعب منهم أن ينتقد أحد لعبه.

كأستاذ، ستاما موضـع للانتقاد، فقـواعده أقل قيمة ممن سبقه، وأن تكن بعض المناورات التي يقوم بها تدل على مهارة، ولكنه لم يترك طريقة واحدة تميزه عن غيره يمكن تطبيقها على كافة الأمثلة العديدة التي وضعها وعلى مسائله

التي تعد أهم مؤلفاته، وإن كانت لا تخلو من أخطاء، وهي تعيد بالذاكرة إلى المنصوبة عند العرب قديماً ولكن في قالب جديد، وقد كان لستاما تأثير كبير على نهضة المسائل وانتشارها. كما أن لستاما الفضل في إيجاد الترقيم الجبري، هذا الترقيم الذي طبع لأول مرة سنة ١٧٣٧، فقد كان أول من فكر بتقسيم رقعة الشطرنج إلى خطوط أفقية وعمودية وتسميتها بالحروف الأبجدية، ولولا ظهور كتاب فيليدور بالطريقة الوصفية بعد ذلك بقليل واستقبال الجمهور له بحماسة، لطغت طريقته على جميع الطرق المستعملة في ذلك الوقت خصوصاً في فرنسا وانكلترا. علماً أن الاتحاد الدولي للشطرنج اليوم يعتمد هذا الترقيم الجبري ويعتبره إجبارياً في كافة المباريات.

وقد نشر الترقيم الجبري الحالي، لأول مرة، موزيس هيرشل Moses Hirschel في الطبعة الألمانية لكريكو وستاما المنشورتين في برسلو Breslau سنة ١٧٨٤ وليبزيغ Leipzig سنة ١٧٩٥.

التجديد:

كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر ابتداء عهد جديد في الشطرنج، لا يزال يتابع حتى اليوم بازدهار، ينمو يوماً بعد يوم، ويظهر أنه لن يعود إلى النوم بعد الآن.

وكانت باريس ولندن المركزين الأساسيين لهذه الحركة، حيث كانت هذه اللعبة النبيلة تلعب بحماس جديد، كما أصبحت أكثر المدن الهولندية من المتحمسين لهذه اللعبة. وبرزت باريس من بين كافة دول العالم كمركز رئيسي لعهد التجديد، فتشكلت فيها النوادي والجمعيات وعقدت فيها الاجتماعات بين اللاعبين من جميع الدرجات والطبقات.

أول مركز لتجمع اللاعبين، كان في مقهى بروكوب Procope وحوالي سنة ١٧٤٠ أخذ اللاعبون يتوافدون على مقهى الريجانس Cafe De La Regence بعد أن أصبح هذا المقهى ملتقى الكتاب والرجال اللامعين، وبقي هذا المقهى أشهر مكان في أوروبا، وملتقى جميع مشاهير لاعبي الشطرنج في العالم ومكاناً يحجون إليه من كافة أقطار العالم مدة طويلة من الزمن. أمثال: الشاعر بيرون، جان جاك روسو، فولتير، ديدرو، لوساج Le Sage دالمبير D'Alembert بو مارشيه، كميل دي مولان، براس Barras مورات Murat روبسبيير، بواسي دانكلاس Boissy D'Anglas بونابارت في أول عهده، وكان ضابطاً بسيطاً في المدفعية، ديمون ديرفيل Dumont D'Urville الفرد دي موسيه، فيكتور هوغو، تيوفيل غوتييه، هنري مورجيه Murger، جول غريفييه، كامبيتا، أوكتاف فوييه Feuillet Octave الخ...

وفي مقهى ريجانس، اشتهر كرمير M. De Kermer كأحسن وأقوى لاعب باريسي، وهو أستاذ فيليدور اللاعب المشهور، الذي أتينا على ذكره سابقاً، فقد بدأ يلاعبه بدون رخ في الأول ثم بدون حصان أو فيل، ثم بدون بيدق طيلة ثلاث سنين (١٧٤٣) ثم بدأ فيليدور يتغلب على أستاذه، وقد حاول ليكال Legal أن يلعب وهو مغمض العينين عبثاً، بينما كان فيليدور يستطيع أن يعيد أية جولة لعبها في المقهى.

وفي لندن، كما في باريس، كان مقهى Old Slaughter في Martin's Lane يضم أحسن اللاعبين ثم خلفه مقهى سالوبيان Coffee House Salopian في Charing-Gross وكان يرتاد هذا المقهى كبار الشخصيات واللاعبين أمثال اللورد سندرلاند، سيرجاينس، كوتنغهام الأميرال بنغ، فاتح جبل طارق، وهؤلاء هم الأخصام التقليديون لستاما وبرتان منذ إنشاء فيليدور نادي الشطرنج في شارع سان جايمس Chess Club.

ظهر فيليدور أول مرة في مقهى الريجانس سنة ١٧٤١، وكان يبلغ السادسة عشرة من عمره، وبوقت قصير تغلب على الجميع وعلى ليكال، أحسن لاعب في ذلك الوقت، ثم أخذ يلعب وهو مغمض العينين، في البدء جولة واحدة ثم اثنتين ثم وفيما بعد في انكلترا ثلاث جولات بالتتابع مما لفت أنظار اللاعبين حوله. وفي سنة ١٧٤٥ سافر فيليدور إلى هولندا مع فريق من الموسيقيين، واضطر بعد حوادث مؤسفة أن يعيش من عبقريته في الشطرنج، ثم سافر بعد



□ نجم الدين كبرى يلعب الشطرنج مع تلميذه مجد الدين بغدادي — مصغر إسلامي من القرن الثالث عشر

در عرصه انس پیاده راند تا اسپی زند شهمات شد و حضرت شیخ

در کتاب ده فصل آورده آنجا که فرموده مثنو

یکی از عاشقان جمال ترا | بود نجم اکابر کبری

آن معین شریعت احمد | آن قمر ...

سنتين إلى انكلترا فلاهاي ثم رجع إلى انكلترا، وبفضل حماية الكونت بروهل وعدد وفير من عشاق الشطرنج بقي مدة طويلة في انكلترا دون أن يقطع علاقاته مع باريس، وقد توفي في انكلترا سنة ١٧٩٥.

في سنة ١٧٧٠، ظهر أول لاعب ميكانيكي Automate صنعه البارون كمبلان Kempelen «راجع مقالنا حول هذا الموضوع في العدد رقم ١٤» وقد عمت شهرته أوروبا بأجمعها وحاز إعجاب كل من شاهده أثناء اللعب، كان اللاعب الميكانيكي، يلبس على رأسه شريطاً، ويجلس وراء رقعة شطرنج على مكتب يسير على عجلات، وقسم هذا المكتب إلى قسمين، لكل قسم باب وجارور، وكان اللورد كمبلان يفتح هذا الباب قبل بدء الجولة ويسحب الجرار لتظهر الآلات والدواليب وسوى ذلك، وكان يملأوها قبل بدء الجولة شأن أية لعبة من ألعاب الصغار اليوم، ثم يضيء شمعة قبل بدء الجولة وطيلة مدة اللعب، حتى ليخيل للمرء أن الجالس لاعب حقيقي. والحقيقة أن اللورد كان يخفي بداخل الدولاب لاعب قزم اشتهر بلعبه، ولم تكن الشمعة إلا لتنير لهذا اللاعب المكان الذي يجلس فيه ليستطيع أن يرى بوضوح اللعب على رقعة صغيرة من الشطرنج كان يحملها معه، وهو الذي كان يحرك بصورة خفية الأحجار التي يراها الجمهور.

تناوب هذا اللاعب الأوتوماتيكي (أوتومات) عدة لاعبين مشهورين، حتى أصبح ملكاً للملك فريدريك الثاني، الذي بعد أن شغف به مدة طويلة، فككه ووضعه في خزانة حيث بقي ثلاثين سنة تقريباً، إذ كان يدر عليه الأموال من المتفرجين، ثم أصبح بعد موت الأخير ملكاً لـ: أوليل والدكتور ميشال ثم احترق في فيلاديفيا سنة ١٨٥٤ عندما شب الحريق في المتحف الصيني Chinese Museum وتبعه عدة أوتومات، أشهرها كان لكامبل Gumpel وكان يدعى ميفيستوفيلس Mephistopheles الذي نال نجاحاً منقطع النظير في أكواريوم وستمنستر في لندن وفي معرض باريس سنة ١٨٧٨، وظهر أوتومات، آخر في معرض ١٨٨٩، وكان متقناً أكثر من الأول، كان الأخير يلعب على طاولة شطرنج تحتها فارغ تماماً، وكان يديره على الكهرباء من غرفة ثانية يحرك آلاته لاعب ماهر لا يراه المتفرجون.

وبفضل ستاما كما أسلفنا انتشرت المسائل كثيراً وخصوصاً في أواخر القرن الثامن عشر.

القرن التاسع عشر

بعد وفاة فيليدور وفردوني ١٨٠٤، انتقلت مهمة نشر الشطرنج في انكلترا إلى الأستاذ سرّات Sarrat تلميذ فردوني وكانت شهرته كبيرة جداً.

وفي فرنسا، برز ديشابيل بطل فرنسا الذي لمع اسمه بسرعة في مقهى الريجانس، وكان لابوردونيه La Bourdonnais تلميذه في البدء خصمه العتيد فيما بعد، وكذلك الأستاذ الانكليزي كوشران، كما برز في انكلترا ماك دونال وستاوتن، الذي يرجع إليه موديل أحجار الشطرنج التي يعتمدها الاتحاد الدولي للشطرنج في جميع المباريات.

في هذا القرن أنشأت أول مجلة للشطرنج في باريس Le Palamede لمؤسسها لابوردونيه ومري Mery وكان ذلك سنة ١٨٣٦، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على سعة انتشار الشطرنج وكثرة اللاعبين في ذلك القرن.

وقد امتاز هذا العصر بتنظيم أول بطولة عالمية في الشطرنج، وكان ذلك في لندن سنة ١٨٥١، وقد ربحها الألماني أودولف اندرسن، ويعتبر اندرسن أول بطل عالمي غير متوّج لهذه اللعبة، وكان ذلك فتحاً جديداً في عالم الشطرنج.

في هذه الحقبة، برز أميركي شاب من نيو أورليانز من أم فرنسية، يدعى بول مورفي، كان في لعبه لمعات قل أن نجد مثيلاتها حتى يومنا هذا، لاعب الجميع في أميركا وتغلب عليهم، ثم التقى بلوونتال Lowenthal أشهر لاعب في أوروبا بذلك الحين، وتغلب عليه، ثم تتالت انتصاراته إلى أن فاز في المباريات التي جرت سنة ١٨٥٧ في مؤتمر نيويورك بالجائزة الأولى، عندها قرر أن ينتقل إلى أوروبا ومنازلة أبطالها، أمثال ستاوتن، بولسن، بيرد وغيرهم، وبعد أن هزمهم واحداً بعد الآخر، التقى باندرسن سنة ١٨٥٨ وتغلب عليه، فاعتبر بطلاً للعالم كله، ذلك أنه التقى

احسن لاعبي العالم وهزمهم، ولعل ذلك كانت اول جولة حول العالم في سبيل بطولة الشطرنج، وانسحب مورفي بعد ذلك إلى أميركا ولم يشترك في أية مباراة أخرى إلى أن توفي سنة ١٨٨٤، ويعتبر مورفي أبرز بطل للشطرنج في القرن التاسع عشر.

بعد تغلب مورفي على أندرسن وانسحابه، اشتد النزاع على بطولة الشطرنج، وأخذت المباريات الدولية تنظم بشكل متواصل وفي كافة انحاء العالم حتى بلغت سنة ١٩٠٠، ثمانية وأربعون مباراة دولية، كان أعظم البارزين فيها: أندرسن، ستاينيتز، طراش، لاسكر وجانوفسكي. وتتابعت المباريات بعد ذلك لغاية الحرب الكبرى سنة ١٩١٤، وبقي بارزاً في هذه الحقبة، طراش، لاسكر وجانوفسكي، كما برز تشيغورين، ماروكزي، مارشال، كابلانكا، روبنشتاين، اليخين وسواهم. وكان ينظم في كل عام أكثر من مباراة دولية حتى بلغت خلال السنين الأربعة عشر، أي من ١٩٠٠ إلى ١٩١٤، ٣٥ مباراة دولية أشرف عليها النوادي والاتحادات التي أخذت في الظهور.

القرن العشرون (آخر محطة في مقالنا)

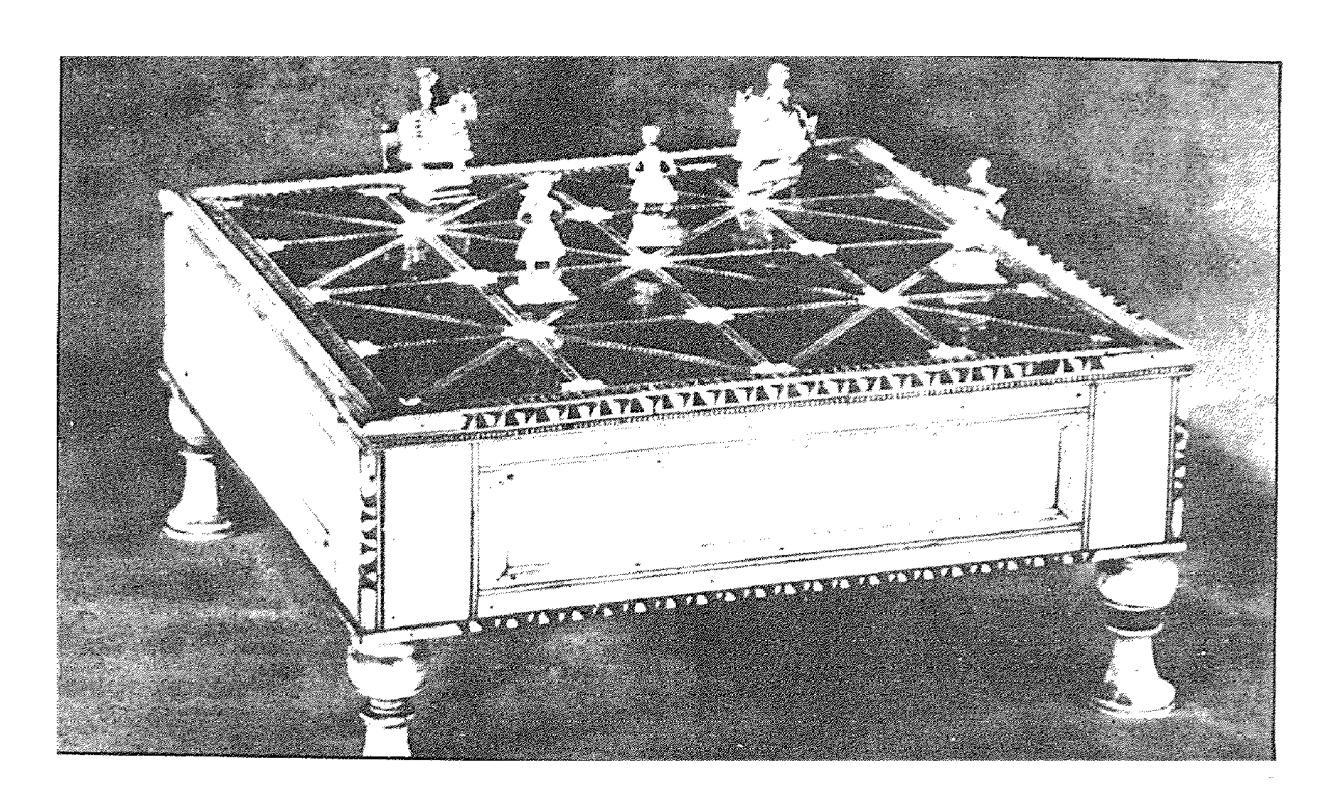
تميّز القرن الحالي بالتنظيم، فما أن هدأت الحرب العالمية الأولى، واطمأنت النفوس وعاد دولاب العمل إلى ما كان عليه، حتى تأسس أول اتحاد دولي للشطرنج وكان ذلك في باريس في العشرين من تموز ١٩٢٤، بدعوة من السيد فانسان بيير (ولد في ١٧/١٠/١٨٧٨، وتوفي في ٢/٤/١٩٥٦) الذي يعتبر المؤسس لهذا الاتحاد.

ويعتبر تأسيس الاتحاد الدولي في ٢٠/٧/١٩٢٤، اضخم وأهم حدث بتاريخ الشطرنج منذ اختراعه، فقد كان البادرة الأولى للتنظيم والانضباط الذي يوافق عليه اللاعبون في كافة أنحاء العالم، وكان ذلك المشجع الرئيسي لتأسيس الاتحادات في كافة أنحاء العالم، حتى أصبحت اليوم تنوف عن المائة والثلاثين عداً.



□ صفحة من الشهنامة تمثل غالباً الوزير يحل المسالة الشطرنجية المطروحة في الهند ويبادلها بالنرد.

تعاقب على رئاسة الاتحاد الدولي منذ تأسيسه لغاية اليوم ثلاثة هم السادة: الكسندر روب، من سنة ١٩٢٤ لغاية ١٩٤٩، فولك روغارد من سنة ١٩٤٩ لغاية ١٩٧١، حين قدم استقالته فانتخب رئيس شرف إلى يوم وفاته في ١١/٦/١٩٧٣، ثم أتى الدكتور ماكس أوفي الذي انتخب سنة ١٩٧١ بتوصية من روغاد (اسمه الكامل ماغيليس أوفي Maghielis Euwe وكان بطلاً للعالم من سنة ١٩٣٥ إلى ١٩٣٧ وهو هولندي الأصل ولد في ٢٠/٥/١٩٠١) وانتخب بعده فريدريك أولافسون من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٢ ثم انتخب بعده سنة ١٩٨٢ السيد كامبو مانس الرئيس الحالي الذي جدد له في دبي بالإجماع ١٩٨٦ بعد انسحاب لوسينا.



الشاطورنجا: اللعبة كما بدأت في الهند.

أخذ الاتحاد على عاتقه بعد تأسيسه تنظيم بطولة العالم والإشراف على سائر المباريات الدولية الهامة، فوضع الأسس والقواعد والقوانين المتوجبة، ويعتبر قانون لعبة الشطرنج الذي وضعه الاتحاد الدولي سنة ١٩٥٢ أهم خطوة في سبيل استقرار هذه اللعبة على قواعد ثابتة موحدة بين سائر أقطار العالم.

ولتنظيم بطولة العالم الفردية، قسم الاتحاد الدولي للشطرنج الدول الأعضاء إلى مناطق، هي اليوم ثلاثة عشر، وجعل لكل منطقة رئيساً هو بذات الوقت نائباً لرئيس الاتحاد الدولي. تتألف كل منطقة شطرنجية من عدة اتحادات تجري فيما بينها بإشراف الاتحاد الدولي الممثل برئيس المنطقة، مباراة لانتخاب بطل المنطقة، ثم تجري في السنة التي تليها سلسلة مباريات بين الفائزين من المناطق ومن وصلوا إلى آخر السلم في مباريات بطولة العالم السابقة بمن فيهم الفاشل في بطولة العالم السابقة لاختيار مرشح واحد، عليه أن يقابل بطل العالم الأخير في مباراة من ٢٤ جولة، وضعت لها شروط خاصة، ويعتبر الفائز في هذه المباراة الأخيرة بطلاً للعالم لمدة ثلاث سنوات. ولم تكن كذلك في البدء، فقد كان للبطل الحق إذا خسر لقبه أن يستعيده في مباراة ثأر تجري في العام التالي، وقد عدل هذا النظام عدة مرات إلى أن أصبح كما ذكرناه آنفاً. وكلنا يذكر التعديل الذي لم ير النور طويلاً والذي فشل في مباريات البطولة بين كاربوف وكاسباروف بعد أن طالت بشكل لم يعد فيه بالإمكان المتابعة فأوقفت المباريات وعدلت وأصبحت اليوم كما قلنا مؤلفة من ٢٤ جولة.

يقوم الاتحاد الدولي إلى جانب ذلك بتنظيم أولمبياد للشطرنج مرة كل سنتين هو للحق مهرجان عالمي للشطرنج، تلتقي فيه كل الدول المشتركة في مكان واحد، تشترك كل دولة فيه بفريق من أربعة لاعبين ولاعبا احتياط (جرى الأولمبياد الأول سنة ١٩٢٧ في لندن). كما يقوم بتنظيم بطولة الشباب وآخر للطلبة وبطولة للسيدات إلى آخر ذلك، وقد وضع الاتحاد لكل منهما أنظمة تطبق على الجميع.

ويعقد الاتحاد مرة في كل عام، جمعية عمومية يدعو إليها كافة الاتحادات المنضمة، لدراسة ما يكون قد طرأ من أعمال خلال العام.

إذاً فالقرن العشرون، هو قرن التنظيم وانتشار الشطرنج في جميع أنحاء العالم،

بشكل لم يسبق له مثيل في السابق، تميز بكتب ومنشورات ومجلات للشطرنج لا تعد ولا تحصى في كل لغات العالم، كما تميز بسيطرة الاتحاد السوفياتي على بطولة العالم خلال حقبة طويلة من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٣٥ ومن سنة ١٩٣٧ إلى ١٩٧٢ ثم خسرها في مباريات مثيرة جرت في ريكجافيك (ايسلاندا) من ٧/٦ إلى ١٩٧٢/٨/٣١ أمام الأميركي روبير فيشر من مواليد ١٩٤٣، ثم استعادها بعد انسحاب فيشر على أثر احتجاجه بعدم الأخذ بمقترحاته هذه المقترحات التي حاول الاتحاد فيما بعد تعديلها علها تحث فيشر على العودة والتي آلت إلى فشل كما أسلفنا في البطولة الأخيرة بين كاربوف وكاسباروف. ولكنه ظل محتفظاً ببطولة العالم بالفرق التي كادت أن تهتز العام الماضي في دبي لولا أن لحق نفسه في آخر جولة.

القرن العشرون ذكرناه باختصار رغم أنه أهم محطة في تاريخ الشطرنج والكتابة عنه تطول لذا نكتفي بما سردناه.

الخلاصة:

هذا موجز عن تاريخ الشطرنج ومنه يتبين لنا:

١ — أن الظروف التي أوجدت اختراع الشطرنج لا تزال مجهولة، وكل ما عند المؤرخين خرافات وأساطير دون أن يكون هناك دليل يجزم بأحدها.

٢ — الأصل اللاتيني واليوناني لاختراع الشطرنج مردود نظراً لاختلاف الألعاب القديمة المعروفة في تلك البلاد مع الشطرنج المعروف حالياً.

٣ — بين الأصل المصري والأصل الهندي لاختراع الشطرنج، يجب اعتماد الأخيرة، وعلى هذا فمن المرجح أن اختراع الشطرنج يرجع إلى القرن الخامس أو السادس الميلادي، مع تحفظنا للاكتشاف الأخير في الاتحاد السوفياتي والذي قد يعود بتاريخ الشطرنج إلى القرن الثاني.

٤ — اعتبار الشاطورنجا، اللعبة الهندية القديمة هي الأصل الذي نقل عنه الفرس ودعيت فيما بعد الشطرنج (الفرس كانوا يدعونها خطرنج).

٥ — العرب هم الذين بعد فتحهم فارس سنة ٦٥٣م، قاموا بعد أن تمرسوا بها وأدخلوا فيها بعض التحسينات بنشرها في العالم باسم شطرنج، وتم ذلك أثناء فتوحاتهم بين القرنين التاسع والعاشر. وليس أدل على ذلك كما رأينا سابقاً من أن أغلب اللاعبين الكبار الأوائل في أوروبا كانوا من أسبانيا. أما البلاد الروسية والسكاندينافية، فيظهر أن الشطرنج دخلها رأساً من فارس أو من الهند، وهناك كثير من الأدلة بأنه دخلها من العرب مع القافلات التجارية.

٦ — العرب هم أول من ألفوا بالشطرنج، وأن المعتصم بالله هو أول من وضع المسائل في الشطرنج وألف بها.

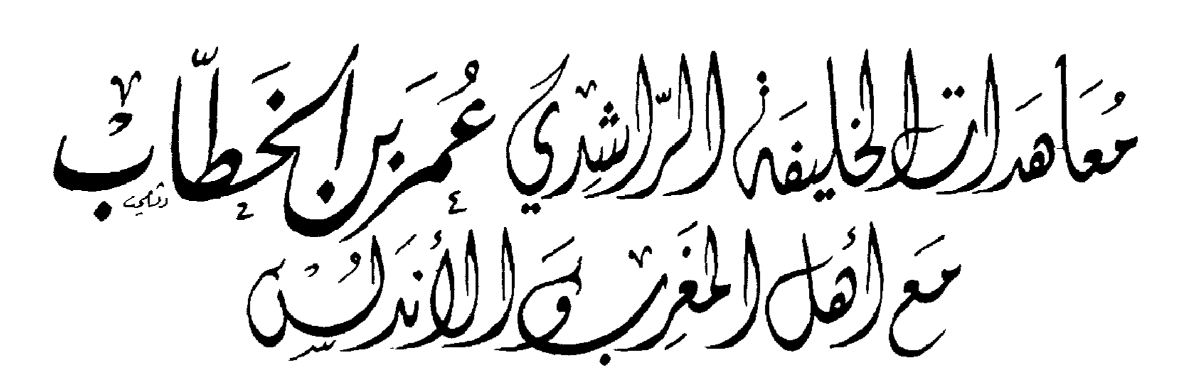
٧ — كان القرن الخامس عشر، قفزة مهمة في عالم الشطرنج، ففيه تبدل سير بعض القطع — الوزير، الفيل. وفي القرن السادس عشر وضع التبييت وسمح للبيدق بتقدم خطوتين عوضاً عن خطوة واحدة، كما وضع نظام الأسر أثناء المرور، وظهر أول كتاب فني باللغة اللاتينية وضعه لوبيز، كما بدىء بوضع الدراسات الفنية والقواعد.

٨ — بعد كريكو، أصيب الشطرنج بفترة ركود حتى أواسط القرن الثامن عشر، عندما أعاده ستاما وفيليدور إلى سابق عهده.

٩ — في أواسط القرن التاسع عشر، جرت أول مباراة دولية لبطولة الشطرنج فاز بها أندرسن سنة ١٩٥١م، وتتالت بعدها المباريات، كما برز مورفي.

١٠ — القرن العشرون هو قرن التنظيم وفيه أسس الاتحاد الدولي للشطرنج، ووضعت القوانين والقواعد بشكلها النهائي بموافقة لاعبي كافة الدول في العالم.





إعداد: شذا عدره

يتميز عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، بظهور المؤسسات الاجتماعية الكبرى «كالديوان» لدفع رواتب الجيش و «الأمصار» لتحديد قاعدات الأجناد ومدن الإسلام الكبرى ومراكز القضاة. وقد كان عهده عهد الفتوحات الإسلامية وبالتالي عهد الأمصار البعيدة التي استوجبت إبرام معاهدات مع أهاليها، ومعاهدات الخليفة عمر مع «أهل المغرب والأندلس»، أهم ما فيها كتبه الواردة إلى أمراء الجيوش والأجناد والجزية في تلك الأصقاع. وهي تتضمن تعليماته في الجزية، القتال، كيفية معاملة أهل الذمة وحثّه على تعليم أهل الأمصار القرآن الكريم وجزل العطاء لهم.

معاهدة مع أهل أنطابُلس

الخراج لقدامة بن جعفر ورقة ١٦٦ ـ ب ع ٤٠٥ ـ اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٩

سار عمرو بن العاص بعد فتحه الإسكندرية في جُنده يُريد المغربَ، حتى قدم برقة وهي مدينة أنطابُلس. فصالح أهلها على الجزية على ثلاثة عشر ألف دينار، يبيعون فيها من أبنائهم ومَن اختاروا بيعه. (٣)
وكتب لهم بذلك كتاباً. ولم يرو نصه.

(٣) اليعقوبي: من أبنائهم من أحبوا في جزيتهم.

معاهدة مع بربر لواتة

الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٦٥ / الف ب ع ٤٩٠

عن الليث بن سعد أن عمرو بن العاص كان كتب على لواتة من البربر. شرط عليهم: إن عليكم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية.
قال الليث: فلو كانوا عبيداً ما حل ذلك لهم منهم.

تعليمات عمر لأمراء الجيوش والأجناد والجزية

الأموال لابن زنجويه (خطية) روايات عديدة، ورقة ١٤/ألف ــ ١٥/ب قابل الأموال لأبي عبيد، ع ٩٣

كتب عمر إلى أمراء أهل الجزية: ألا يَضربوا الجزية إلا على من جرتْ عليه المواسي. ولا يضربوا على النساء والصبيان.

إلى أمراء أهل الجزية ألا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي منهم. وجزيتهم أربعين درهماً؛ أو أربعة دنانير على أهل الذهب. وعليهم أرزاق المسلمين من الحنطة مدَّين أو مديين، وثلاثة أقساط زيت لكل إنسان كل شهر. ومن الودك والعسل والكسوة التي كان أمير المؤمنين يكسوها الناس... (شيأ لم يحفظه عبيد الله). ويضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام. وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعاً صاعاً لكل إنسان.

كتب عمر إلى أمراء الجيوش أن: قاتلوا من قاتَلكم، ولا تقتلوا النساء ولا الصبيان. ولا تقتلوا إلا من جرت عليه المواسي.

وكتب إلى أمراء الأجناد أن يضعوا الجزية ولا يضعوا على النساء ولا على الصبيان. ولا يضعوا إلا من جرت عليه المواسي. على أهل الورق أربعين درهماً، وعلى أهل الذهب أربعة دنانير. وأمر أن يختم على رقابهم. وعلى أهل الشام وعلى أهل الجزيرة مدين أو مديين من بُرّ وأربعة أقساط من زيت وشيء من الودك ــ (لا أحفظه) ــ وعلى أهل مصر أردب من بُر. (قال:) وشيء من العسل ــ (لا أحفظه) ــ وعليهم كسوة أمير المؤمنين ضريبة مضروبة. وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعاً. وعليهم ضيافة المسلمين ثلاثاً، يطعمونه مما يأكلون مما يحلّ للمسلم طعامهم.

كتاب عمر في معاملة أهل الذمة

كتاب الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٢٠/ألف ــ ٢٠/ب

قال عمر: يا يرفأ اكتبْ إلى أهل الأمصار في أهل الكتاب أن يجزّوا نواصيهم، وأن يربطوا الكستيجات ــ يعني الزنانير ــ في أوساطهم ليعرف زيهم من زي أهل الإسلام.

كتاب عمر في قتل الخنازير

الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٣٤/ب

كتب عمر إلى أمراء الأمصار يأمر بقتل الخنازير، ونقص أثمانها من الجزية.

كتاب عمر في الشرائط على المجوس

للتمييز بين من هو من أهل الكتاب منهم ومن ليس بأهل الكتاب

الأموال لأبي عبيد، ع ٧٧ ــ الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ١٣/ألف ــ ب

روى ابن زنجويه عن بجالة بن عبدة العصري قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن: اعرِضوا على من قبلكم من المجوس أن يمنعوا نكاح أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم، وأن يأكلوا جميعاً، كيما نلحقهم بأهل الكتاب. واقتلوا كل ساحر وكاهن.

وروى أبو عبيد عنه: أتانا كتاب عمر رضي الله عنه قبل موته بسنة أن: اقتلوا كل ساحر، وفرِّقوا بين ذي محرم من المجوس، وانهوهم عن الزمزمة.

كتاب عمر في تعليم الناس القرآن الكريم والعطاء له

الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٩٣/الف

إن عمر بن الخطاب كتب إلى بعض عمّاله أن: أعط الناس على تعلّم القرآن.

فكتب إليه: إنك كتبت إليّ أن أعطي الناس على تعلّم القرآن. فتعلّمه من ليست له فيه رغبة إلا رغبة الجُعل.

فكتب إليه أن: أعط الناس على المروءة والصحابة.

معاهدة مع أهل النوبة

خطط المقريزي ج ١ ص ٢٠٠

انظر بعح ص ١٨٨ ــ ١٨٩؛ طب ص ٢٥٩٣؛ بع ع ٤٠١ ــ ٤٠٢؛ بلا ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨؛ الخراج لقدامة ورقة ١٧٢ ــ ١٧٣؛ يعقوبي ج ٢ ص ١٩١؛ جريدة الفتح (مصر) من ١٨ جمادي الأولى سنة ١٣٥٥؛ مجلة «معارف» أعظم كرة في الهند ج ٣٨ ع ٦؛ هفننك ص ٩٦ ــ ٩٧؛ ميك مائكل ج ١ ص ١٥٧ ــ ١٥٨.

بسم الله الرحمن الرحيم.

١ ــ عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النُوبة ولجميع أهل مملكته:

٢ ــ عهد عقده على الكبير والصغير من أهل النوبة، مِن حدّ أرض أسوان إلى حد أرض علْوة.

٣ ــ إن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة، جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر، وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة.

٤ ــ إنكم معاشر النوبة، آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم، أن لا نُحاربكم، ولا ننصب لكم حرباً، ولا نغزوكم، ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم.

٥ ــ على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه.

٦ ــ وعليكم حفظ من نزل بلدكم، أو يطرقه من مُسلم أو مُعاهد حتى يخرج عنكم.

٧ ــ وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين، حتى تردُّوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه، ولا تمنعوا منه، ولا تتعرّضوا لمسلم قَصَدَه وحاورَه. إلى أن ينصرف عنه.

٨ ــ وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مُصَلّياً، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته.

٩ ــ وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين، من أوسط رقيق بلادكم، غير المعيب، يكون فيها ذكران وأُناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحُلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان.

١٠ — وليس على المسلمين دفع عدوّ عرض لكم، ولا منعه من حد أرض علوة إلى أرض أسوان.

٢٤

١١ — فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم، أو قتلتم مُسلماً أو مُعاهداً. أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس -والستين رأساً، فقد برئَتْ منكم هذه الهدنة والأمان ونحن وأنتم على سواء، حتى يحكُمَ الله بيننا وهو خير الحاكمين.

٢٧

١٢ — علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمّته، وذمّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح، وذمة الحواريين، وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملّتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك.

٣٠

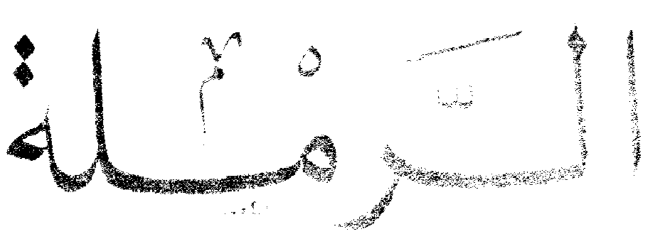
١٣ — كتبه عمرو بن شُرَحْبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين.

حل رموز الاختصارات
المستعملة في أوائل الوثائق

الف... طرف الوجه من ورقة المخطوطة.
ب... طرف الظهر من ورقة المخطوطة.
با... سيرة ابن إسحاق (ترجمتها الفارسية).
بث... أسد الغابة لابن الأثير.
بح... الإصابة لابن حجر.
بحز... ابن حزم.
بحن... مسند أحمد بن حنبل.
بد... سنن أبي داود.
بس... طبقات ابن سعد.
بسن... سيرة ابن سيد الناس.
بط... إعلام السائلين لابن طولون.
بع... أبو عبيد.
بعب... الاستيعاب لابن عبد البر.
بعح... ابن عبد الحكم.
بعر... ابن عبد ربه.
بق... زاد المعاد لابن القيم.
بك... ابن كثير.
بلا... فتوح البلدان للبلاذري.
به... سيرة ابن هشام.
بيو... الخراج لأبي يوسف.
ديب... الديبلي.

طب... تاريخ الطبري.
عمخ... عبد المنعم خان.
قس... القسطلاني.
قلقش... القلقشندي.
ج... الجزء أو المجلد.
س... سطر.
ص... الصفحة.
ع... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلاً ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب وأشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية. أو رقم الفصل في كتاب (الأموال)، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك.
ف... الفقرة والفصل.
+ [ ]... علامة الإضافة والمضاف.
... ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية.
— ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين.
قابل... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات.
انظر... يشير إلى البحوث الحديثة.





الرملة

قسم التوثيق والأبحاث

مدينة عربية كانت مركزاً لقضاء الرملة في عهد الانتداب البريطاني. وقد احتلها العدو الصهيوني في ساعة مبكرة من صباح يوم الاثنين ١٢/٧/١٩٤٨ بعد مقاومة باسلة من أهلها، وقام بطرد معظم سكانها العرب فلم يبق منهم فيها سوى ٤٠٠ نسمة. وأنشأ بعد عام ١٩٤٨ في ظاهر الرملة مستعمرات كثيرة منها مستعمرة «أحيسمخ» في الجهة الشمالية الشرقية ومستعمرة «متسلياح» في الجهة الجنوبية ومستعمرة «باد رامبام» في الجهة الجنوبية الشرقية.

(أ) الموقع الجغرافي: للرملة موقع جغرافي هام لأنها في منتصف السهل الساحلي الفلسطيني جنوبي شرق يافا وجنوبي غرب اللد. وتمرّ بها الطرق والسكك الحديدية التي تربط مصر ببلاد الشام والعراق. وهي نقطة انقطاع بين بيئتي السهل الساحلي والبحر المتوسط من جهة، وبيئتي الجبل والغور من جهة ثانية. ومن الطبيعي إذن أن تصبح نقطة وصل بين هذه البيئات المتفاوتة نسبياً في إنتاجها، وأن تكون عقدة هامة للمواصلات التي تلتقي في المدينة قادمة من الغرب والشرق مثلها في ذلك مثل مدينة اللد.

وتعد منطقة الرملة ظهيراً غنياً وقريباً لميناء يافا الذي ازدهر في أواخر عهد الانتداب إذ كان يستقبل البواخر التي كانت تأتي بالبضائع الأجنبية فتوزع عن طريق الرملة إلى بقية أجزاء فلسطين، ثم تحمل حمضيات منطقة اللد والرملة إلى الخارج. ويمثل وادي الصرار الذي ينحدر من جبال القدس نحو البحر المتوسط فتحة طبيعية هامة تربط القدس بالرملة. وتسير الطريق المعبّدة والسكة الحديدية بين القدس والرملة على طول مجرى الوادي، ثمّ تمرّان بالرملة في السهل الساحلي متجهتين نحو يافا. وتبعد الرملة عن القدس مسافة ٤٥ كم، ويشرف موقعا باب الواد (على بعد ٢١ كم من الرملة) واللطرون (١٦ كم) على طريق القدس ـــ الرملة ويتحكمان بها.

ترتبط مدينة الرملة بإقليمها بوسائل مواصلات جيدة. فهي تبعد عن محطة اللد مسافة ٣,٥ كم، وعن يافا ١٨ كم، وعن عاقر ٩,٥ كم، وعن بيت دجن ٩ كم، وعن صرفند ٧ كم، وعن القباب ١٠ كم. كما كانت تستفيد كثيراً من قرب مطار اللد منها.

ولموقع الرملة أهمية حربية إلى جانب أهميته الاقتصادية. فقد كانت منطقة الرملة مسرحاً لكثير من المعارك في التاريخ واتخذها الفرنجة مركزاً لجيوشهم عند محاولتهم غزو فلسطين. وكانت قاعدة عسكرية للجنود الأتراك والألمان خلال الحرب العالمية الأولى. وفي عهد الانتداب البريطاني أقام الإنكليز معسكراً ضخماً لجنودهم على مسافة ٥ كم منها.

(ب) طبيعة الأرض والمناخ: تقوم الرملة فوق بقعة مبسطة من أرض السهل الساحلي لفلسطين. ويراوح ارتفاع أرضها بين ٧٥ و١٠٠ م عن سطح البحر. وتنحدر الأرض بصفة عامة نحو الشمال والشمال الغربي. ويمرّ وادي الحبل بالأراضي الواقعة شرقي الرملة ويفيض في فصل الشتاء بمياه الأمطار فيغذي خزانات المياه

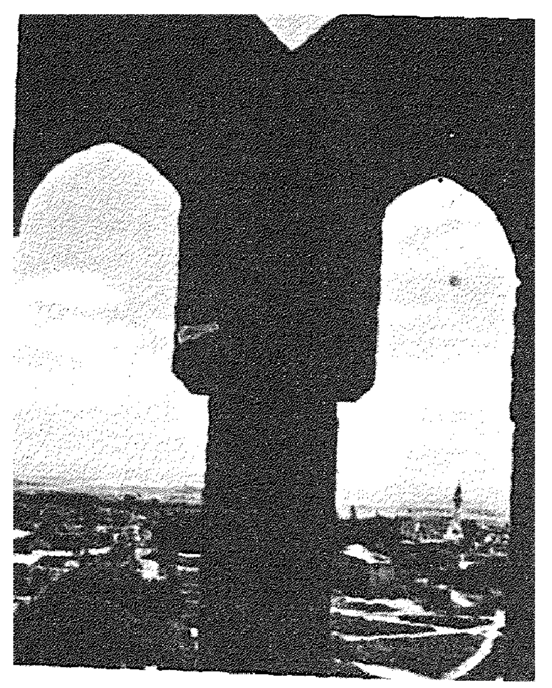
الجوفية ويعدّ هذا الوادي الحدّ الشرقي للأراضي الزراعية المحيطة بالرملة.

تتكون الأرض من لحقيات الحقبة الرابعة التي اختلطت فيها رمال البحر الزاحفة عبر السهل الساحلي نحو الشرق بالإرسابات الطّميّة التي تترسّب فوق أرض السهل الساحلي نتيجة فيضانات الأودية القادمة من المرتفعات الجبلية شرقاً والمتجهة نحو البحر المتوسط. ولذا يغلب على تربة منطقة الرملة الطَفَل وتنتمي إلى تربة البحر المتوسط الحمراء التي تصلح لزراعة جميع أنواع المحاصيل الزراعية، ولا سيما الحمضيات والزيتون والحبوب.

تقتصر المياه السطحية في منطقة الرملة على مياه فيضانات الأودية التي تحدث أحياناً خلال فصل الشتاء. غير أن المنطقة غنيّة بمياهها الجوفية على مستويات ليست بعيدة عن سطح الأرض، ولذا تكثر فيها الآبار والينابيع. وتساهم هذه المياه الجوفية في ريّ الأرض الزراعية المحيطة بالرملة وتستخدم في الشرب والاستعمالات المنزلية والصناعية.

مناخ الرملة معتدل، وهو جزء من مناخ السهل الساحلي الفلسطيني. ويبلغ متوسط درجة الحرارة السنوية في الرملة نحو ٢٠° ويراوح بين ١٣° في شهر كانون الثاني و٢٦° في شهر آب. ومن النادر أن يحدث الصقيع أو تسقط الثلوج على المدينة. ويبلغ المعدل السنوي للرطوبة النسبية في البحر نحو ٦٥ ٪، وهو معدل مناسب تتميّز به الرملة من بين بقية المدن الساحلية الأخرى. وتتلقى الرملة النسيم الذي يهبّ عليها من البحر المتوسط ابتداء من الساعة التاسعة صباحاً فيلطّف حرارة جوها. وأما كمية الأمطار السنوية التي تهطل على الرملة فتزيد في متوسطها العام على ٥٠٠ مم، وهي كمية كافية لخزن الرطوبة في التربة ونمو معظم أنواع المحاصيل الزراعية.

(جـ) النشأة والنمو: الرملة إحدى مدن فلسطين التي تأسست في العهد الإسلامي. ولا يقوم دليل على تأسيس مستوطن في موضعها قبل هذا التاريخ. ولكن المنطقة القريبة من موضع المدينة الحالي شغلتها في العصر الحجري الحديث قرية زراعية أقام عليها الكنعانيون فيما بعد قرية



□ مدينة «الرملة» المحتلة.

جازر التي تقع عليها اليوم قرية أبو شوشة. وقد وجدت في أقدم مستوطنات هذه القرية بقايا سور وبقايا حاصلات زراعية وبعض الكسرات من الأواني الفخارية.

سمّيت رملة لغلبة الرمل عليها. وقيل سمّيت بامرأة اسمها رملة وجدها سليمان بن عبد الملك في بيت شعر حين نزل مكانها يرتاد بناءها فأكرمته وأحسنت ضيافته فسألها عن اسمها فقالت: رملة، فبنى البلدة وسمّاها باسمها.

اختط بناءها الأمير سليمان بن عبد الملك يوم كان والياً على فلسطين في عهد أخيه الوليد بن عبد الملك ونقل إليها مقر الحكومة الإقليمية التي كانت في اللّد. واستمرت إقامته في المدينة الجديدة التي أسسها وهو خليفة طوال السنوات ٧١٥هـ ــ ٧١٧هـ، ونقل بعض سكان اللّد إليها، وأصبحت حاضرة جند فلسطين. وقد اختط سليمان المدينة على أرض مربعة الشكل قسمها شارعان رئيسان متقاطعان في الوسط إلى أربعة أقسام. وخطّت في كل قسم الأحياء وسكنت كل قبيلة حيّاً منها. وأول ما بنى فيها سليمان قصره ثم دار الإمارة. ثم بدأ بتشييد المسجد واستمرّ في بنائه عندما ولي الخلافة. ولمّا استقرت القبائل في المدينة بنيت لهم الدور والحوانيت. ومن أشهر القبائل التي نزلت بها قبائل لخم وكنانة. وفي عهد

الخليفة هشام بن عبد الملك حفرت قناة تدعى بردة لنقل الماء إلى المدينة، كما حفرت آبار لاستخراج الماء العذب. وذكرها الإصطخري بقوله: «إن الرملة هي مدينة فلسطين العظمى، ويليها بيت المقدس في الكبر». ووصف المقدسي مزاياها ووفرة فاكهتها، ولا سيما التين والنخيل، وعذوبة مياهها وطيب غذائها وجمعها بين فضائل الريف والمدن التي تقوم في السهل وتجاوز التلال والبحر، وتحدّث عمّا فيها من الحصون والمساجد والخانات والحمّامات المريحة والمساكن الرحبة والطرق الفسيحة.

كانت الرملة في عهد العباسيين تابعة لولاية الشام. وشهدت بعض حوادث التمرّد التي لم يكتب لها النجاح. وقد حكمها الطولونيون مدة من الزمن وشهدت مرور موكب قطر الندى ابنة الأمير خمارويه وحفيدة أحمد بن طولون وهي في طريقها إلى بغداد لتكون زوجة الخليفة العباسي المعتضد. وكان ذلك في سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٥م. وأصبحت الرملة في عهد الإخشيديين إمارة تابعة لهم، وزارها في أيامها المتنبي ومدح فيها أميرها الحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيدي. واستولى عليها بعد ذلك القرامطة في سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م ثم الفاطميون في سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م. وفي سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م أصاب الرملة زلزال عنيف هدم ثلثها وخرّب مسجدها وأهلك كثيراً من أهلها. وفي سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م تعرّضت المدينة لزلزال آخر هدم الدور والسور وضعضع الجامع ومات من أهلها كثيرون.

وعندما نشبت الحروب بين الصليبيين والمسلمين احتل الفرنج مدينة الرملة في سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م وكان أهلها قد خرجوا منها قبل الاحتلال. وفي سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م استعادها المسلمون وقضوا على معظم من كان فيها من فرسان بغدوين الصليبي. ولكن الصليبيين احتلوها مرّة أخرى وبقيت في أيديهم إلى أن استردها المسلمون بعد معركة حطين التي قادها صلاح الدين الأيوبي ودمّر قلعتها حتى لا يحتلها الصليبيون وهي عامرة. ولكنه جدّد بناء الجامع الأبيض فيها. وفي سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م عادت الرملة لحكم الصليبيين فأقاموا فيها أبرشية وشيّدوا كنيسة. ولكن حكمهم فيها لم يدم كثيراً، إذ تمكّن الظاهر بيبرس من تحريرها هي وسائر مدن فلسطين والشام في صيف ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م وبنى لجامعها مئذنة ومحراباً. وفي سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م أصابها زلزال شديد دمّر أبرشيتها.

كانت الرملة في القرن الثاني عشر الميلادي مدينة عامرة فيها أسواق وتجارات. وفي القرن الرابع عشر الميلادي كانت مدينة فلسطين العظمى ويليها في الكبر بيت المقدس. وكانت فيها حوانيت كثيرة وأسواق حسنة، واشتهرت بصنع الثياب القطنية إذ كان القطن يزرع في مرج ابن عامر.

دخلت الرملة مع غيرها من مدن فلسطين والشام في الحكم العثماني بعد انتصار العثمانيين على المماليك في مرج دابق سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٦م. وقد تدهورت حالة المدينة في أوائل هذا العهد وزالت أسوارها وأسواقها القديمة بنتيجة ما شهدته من حوادث التدمير أثناء الحروب الصليبية، واكتست هي وقراها في القرن الثامن عشر الميلادي طابع الفقر، وجفت آبارها وخربت صهاريجها. وأما أهلها فكانوا يشتغلون بغزل القطن وصنع الصابون.

وفي سنة ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م احتلّها نابليون بونابرت وكان أهلها قد خرجوا قبل دخوله إليها والتجأت النسوة المسيحيات إلى دير البلدة. ولمّا أخفقت حملة نابليون على الشرق انسحب جنودها من الرملة. وفي الفترة بين ١٨٣١ ــ ١٨٤٠م خضعت الرملة لحكم الباشوات في مصر ثم عادت إلى حكم العثمانيين. وفي أواخر العهد العثماني شهدت الرملة بعض التقدم فأصبحت مركز ناحية تتبع قضاء يافا. وانتهى عهد العثمانيين في سنة ١٩١٧ ليخلفه عهد الانتداب البريطاني الذي استمرّ مدة ٣١ عاماً. وفي سنة ١٩٢٧ تعرّضت الرملة ونابلس والقدس واللد لزلزال أحدث أضراراً كثيرة في الممتلكات.

(د) مشاهد الرملة التاريخية: أهمها أطلال قصر بناه الخليفة سليمان بن عبد الملك. وتقوم مكانه اليوم حديقة البلدية، ولا تزال بعض جدرانه شاخصة في جانب الحديقة. وهناك أطلال الجامع الأبيض الذي بناه سليمان بن عبد الملك ايضاً ودمّره الصليبيون وأعاد بناءه صلاح

الدين الأيوبي ثم جدّده الظاهر بيبرس، وتقع بقاياه المتمثلة بجدرانه في غرب المدينة. وأما المئذنة الحالية فيبدو كما يتبين في الكتابات المنقوشة عليها أنها بنيت في أيام السلطان محمد بن قلاوون على أنقاض منارة قديمة بناها الظاهر بيبرس. ومن مشاهد الرملة أيضاً الجامع الكبير وهو في الأصل كنيسة القديس يوحنا المعمدان التي أسّسها الصليبيون في القرن الثاني عشر الميلادي. وقد رمم عدة مرّات كان آخرها في زمن السلطان العثماني محمد رشاد. ومن المشاهد الأثرية الشاخصة في الرملة بركة العنزية التي تقع في شمال غربي المدينة بنحو كيلومتر واحد. ويعتقد أنها تأسست بأمر من السيدة خيزران زوجة المهدي الخليفة العباسي في زمن ولدها هارون الرشيد سنة ١٧٣هـ/ ٧٨٩م. ويستدل على ذلك من الكتابة المحفورة عليها. وقد وصفها كمال سامح في كتابه «العمارة في صدر الإسلام». وهذا الصهريج الذي بُني لجمع الماء هو الأثر العبّاسي الوحيد في هذه البلاد. وفي الرملة قبر يقال إنه قبر الفضل ابن العبّاس ابن عم الرسول محمد ، وقيل إنه استشهد في فلسطين في معركة أجنادين أو في طاعون عمواس.

(هـ) **الرملة الحديثة**: تطورت الرملة في عهد الانتداب البريطاني تطوراً كبيراً وزاد عدد سكانها من ٦,٥٠٠ نسمة قبيل الحرب العالمية الأولى إلى ٧,٣١٢ نسمة في عام ١٩٢٢ و١٠,٣٤٧ نسمة عام ١٩٣٢، ثم ارتفع عددهم إلى ١٥,١٦٠ نسمة عام ١٩٤٥ و١٦,٣٨٠ عام ١٩٤٦. وتبع ذلك نموّ العمران في المدينة فامتدت المباني السكنية والمنشآت على شكل محاور بمحاذاة الطريق الرئيسة المتفرعة من المدينة، ولا سيما طريق الرملة ــ يافا. وتوسعت مساحة المدينة تدريجياً حتى بلغت في عام ١٩٤٣ نحو ١,٧٦٩ دونماً تشغلها آلاف المباني. وشهدت مرحلة نموّ سريع في مستويات سكانها التعليمية والثقافية.

لكن الازدهار الذي حظيت به الرملة لم يدم طويلاً لأنها تضررت من كارثة عام ١٩٤٨. ففي ذلك العام احتلت (إسرائيل) المدينة وطردت معظم ساكنها العرب ودمّرت بعض بيوتها ولم يبق من سكانها إلّا القليل. وأخذ المهاجرون الصهيونيون يحلّون محل السكان العرب تدريجياً. ففي أواخر عام ١٩٤٨ قدّر عدد سكان الرملة بنحو ١,٥٤٧ نسمة، وارتفع بفعل الهجرة الصهيونية فوصل إلى ٢٠,٥٤٨ نسمة في عام ١٩٦١. ونتج عن تيار هذه الهجرة إلى المدينة توسع في مساحتها وزيادة في عدد مبانيها السكنية. واتجه النمو العمراني للرملة نحو الغرب والجنوب الغربي بصورة رئيسة. وتركز معظم الصهيونيين فيما يسمى الآن بالرملة الجديدة في حين بقي العرب في الرملة القديمة إلى جانب من استقرّ معهم فيها من الصهيونيين. وفي عام ١٩٦٩ كان مجموع العائلات الصهيونية المقيمة في الأحياء الجديدة من الرملة نحو ٤,٢٠٠ عائلة، ومجموع العائلات الصهيونية في الأحياء القديمة من المدينة نحو ٣٠٠ عائلة تعيش في البيوت العربية التي أخليت من سكانها العرب بعد طردهم.

بلغ عدد سكان الرملة في عام ١٩٧٣ نحو ٣٦,٠٠٠ نسمة من بينهم ٤,٨٠٠ عربي. ولا تجد الأحياء العربية في المدينة الاهتمام اللازم من قبل سلطات الاحتلال الصهيوني، وتتركز معظم الخدمات والمرافق العامة في الأحياء الصهيونية، ولا سيما الأحياء الجديدة.

(و) **التركيب الوظيفي**: تتنوّع الوظائف التي تمارسها الرملة منذ نشأتها الأولى حتى اليوم. وقد تأثرت مراحل تطور نموّ المدينة بتطور هذه الوظائف. كما أن الأهمية النسبية لكل وظيفة اختلفت من عصر لآخر حسب الظروف السياسية والاقتصادية التي مرّت بها المدينة. والوظائف التي تمارسها الرملة هي:

(١) الوظيفة الإدارية: واكبت هذه الوظيفة مدينة الرملة منذ نشأتها الأولى لأن المدينة خطّط لها أن تكون عاصمة لجند فلسطين منذ البداية بسبب توسّط موقعها. وقد اتخذها الأمويون والعبّاسيون والمماليك عاصمة فلسطين. وفي أواخر العهد العثماني كانت الرملة مركزاً لمديرية من أعمال قضاء يافا تتبعها ٥٩ قرية. ثم أصبحت في عهد الانتداب البريطاني مركزاً لقضاء يحمل اسمها. ويضمّ قضاء الرملة حالياً مدينتي الرملة واللد وسبعين قرية.

تشرف الرملة على قضاء مساحته ٩٢٦,٧ كم[٢]. وكان الصهيونيون قبل عام ١٩٤٨ يملكون نحو ١٣,٨ ٪ من مجموع مساحة القضاء، وهم يحتلون اليوم القضاء كلّه. وكانت الرملة تدير شؤون سكان القضاء الذين بلغ عددهم نحو ٤٩,٠٧٥ نسمة في عام ١٩٢٢، ونحو ٧٠,٥٧٩ نسمة في عام ١٩٣١، ونحو ١٢٧,٢٧٠ نسمة في عام ١٩٤٥. وكان الصهيونيون يمثّلون ٢٣ ٪ من مجموع سكان قضاء الرملة في عام ١٩٤٥ بعد أن كانت نسبتهم ٨ ٪ في عام ١٩٢٢. وأما اليوم فهم يمثلون غالبية سكان القضاء المحتلّ.

(٢) الوظيفة التجارية: الرملة مركز تجاري هام منذ صدر الإسلام حتى اليوم. ففي الماضي كانت المدينة تقع على طريق القوافل التجارية بين مصر والشام. وقد استقرّ في الرملة كثير من التجّار لازدهار الحركة التجارية فيها معظم العصور السابقة. وفي عهد الانتداب البريطاني كانت الرملة سوقاً تجارية للقرى التابعة لها تعرض فيها كثير من المنتجات الزراعية والحيوانية والصناعية. وقد أثّر في الرملة وقوع مدينة اللد أكبر مدن القضاء بالقرب منها. واليوم تقدم سوق الرملة المحلية خدمات أساسية لسكان المستعمرات الصهيونية المجاورة وتستوعب منتجات هذه المستعمرات.

(٣) الوظيفة الزراعية: أثرت نشأة الرملة وسط إقليم زراعي في أهمية الوظيفة الزراعية للمدينة فكانت نسبة كبيرة من سكانها تعمل في الزراعة، ولا سيما زراعة الزيتون والحمضيات والحبوب والخضر. وقد تحدّث الرحّالون الذين زاروا المدينة في القرون الماضية عن خصب أرضها ووفرة مياهها وتنوّع محاصيلها الزراعية كالعنب والرمان والتفاح والبرتقال والبطيخ والتين والنخيل والقمح والبصل والقطن. وظهر أثر إنتاجها الزراعي الكبير في رواج الحركة التجارية في أسواقها كسوق القمّاحين الذي يتصل بسوق البصّالين وسوق القطّانين والعطّارين والحبّالين والبقّالين وغيرها من الأسواق التي تخصصت في بيع أنواع معيّنة من المحاصيل الزراعية.

بلغت مساحة الأراضي التابعة لمدينة الرملة في عام ١٩٤٥ نحو ٣٨,٩٨٣ دونماً منها ١,١٦٩ دونماً للطرق والسكك الحديدية والأودية و١٨٥ دونماً ملكها الصهيونيون. وفي عام ١٩٤٣ بلغ مجموع المساحات المغروسة أشجار زيتون نحو ٧,٤٢٠ دونماً، وأشجار برتقال نحو ٣,٦٦٣ دونماً. وتتوزع بقية المحاصيل الزراعية بنسب متفاوتة على الأرض الزراعية المحيطة بالمدينة.

(٤) الوظيفة الصناعية: عرفت الرملة منذ القدم بعض الصناعات مثل صناعة الأقمشة القطنية والكتانية وغزل الصوف والبسط ومنتجات الألبان وزيت الزيتون والصابون وغيرها. وفي فترة الانتداب تطوّر الإنتاج الصناعي للمدينة رغم أنه بقي مقتصراً على الصناعات التقليدية والخفيفة. وكانت أهم منتجات الرملة الصناعية المصنوعات الغذائية والمنسوجات بأنواعها المختلفة.

يعتمد اقتصاد المدينة في الوقت الحاضر على الصناعة لوقوعها على طريق القدس يافا، وعلى ملتقى خطوط حديدية تسهّل نقل البضائع ونقل العمال من قراهم إلى المدينة وبالعكس. وتستفيد الصناعة في الرملة من قربها من ميناء أسدود. كما أنها توظف آلاف العمّال الذين يتوزعون على عشرات المصانع الكبيرة. وأهم منتجاتها الصناعية الإسمنت، ففيها أكبر مصنع للإسمنت في (إسرائيل)، ومنتجات الأخشاب، والأنابيب المعدنية، والمحرّكات، والثلاجات، والمنتجات المعدنية المتنوعة، والبيوت الجاهزة، والأطعمة المعلبة. وتتركز معظم المصانع داخل منطقتين صناعيتين في الرملة.

(٥) الوظيفة التعليمية: كان في الرملة أواخر العهد العثماني سبع مدارس معظمها أهلية. وفي أواخر عهد الانتداب اشتملت الرملة على مدرستين ثانويتين حكوميتين إحداهما للبنين والثانية للبنات. بالإضافة إلى ثلاث مدارس ابتدائية، هي مدرسة بستان بلدية الرملة، والمدرسة الصلاحية، ومدرسة الإناث الوطنية. وكان في الرملة مدارس أخرى خاصة تقوم بنصيبها في الحركة التعليمية في مقدمتها المدرسة

العباسية التابعة للمجلس الإسلامي الأعلى، ومدرسة الراهبات للبنات، ومدرسة تراسنطا اللاتينية. وفي عام ١٩٤٦ بلغ مجموع طلبة المدارس في الرملة ٢,٤٨٢ طالباً. وقد تخرّج من الرملة عدد من العلماء الذين ساهموا في تنشئة أجيال كثيرة من سكانها.

●

المراجـع

— ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦.
— ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ١٩٦٤.
— ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، بيروت ١٩٤٢.
— ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨.
— البلاذري: فتوح البلدان، بيروت ١٩٥٧.
— أبو الفداء: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠.
— ياقوت الحموي: المشترك وضعا والمفترق صقعا، غوتنغن ١٨٤٦.
— ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٥.
— مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٤، ق٢، بيروت ١٩٧٢.
— الأب مرمرجي الدومنيكي: بلدانية فلسطين العربية، بيروت ١٩٤٨.
— نقولا زيادة: روّاد الشرق العربي في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٣.
— كمال الدين سامح: العمارة في صدر الإسلام، القاهرة ١٩٦١.
— الإصطخري: المسالك والممالك، ليدن ١٩٢٧.
— سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة ١٩٦٣.
— قسطنطين فرنسوا فولني: سورية ولبنان في القرن الثامن عشر، ج٢ (الترجمة العربية)، صيدا ١٩٤٩.
— يوسف بن طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبال لبنان، بيروت ١٩٥٤.
— عبد الله مخلص: مئذنة الجامع الأبيض والرقم التاريخية في الرملة، بيروت.
— المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٨٧٧.
— الهمداني: صفة جزيرة العرب، ليدن ١٨٨٤.
— كريستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، (مترجم) القاهرة ١٩٦٧.
— اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، بيروت ١٩٦٠.
— خريطة فلسطين: مقياس ١: ٥٠,٠٠٠، لوحة اللد.
— Macalister, R.: The Excavation of Gezer, London 1912.
— Thomson, W.: The Land and the Book, London 1893.

● نقلاً عن الموسوعة الفلسطينية ــ المجلد ٢، ١٩٨٤.

في المحبة

● يقول الإمام أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين: من ادعى أربعاً من غير أربع فهو «كذاب»: من ادعى حب الجنة ولم يعمل بالطاعة فهو كذاب ومن ادعى الخوف من النار ولم يترك المعاصي فهو كذاب. ومن ادعى حب الله تعالى وشكا من البلوى فهو كذاب.

وبالطبع فان علامة المحبة موافقة المحبوب واجتناب خلافه وقد حكى ان جماعة دخلوا على الشبلي رحمه الله تعالى، فقال من أنتم؟

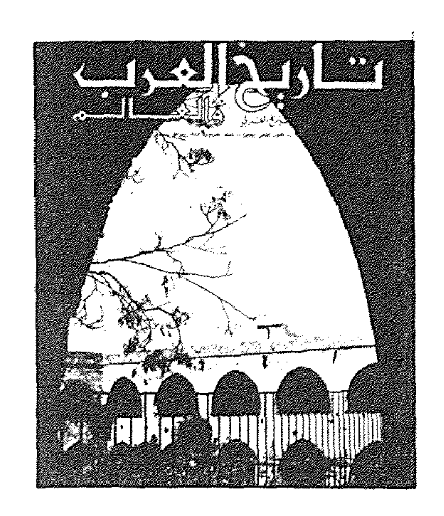
قالوا! أحباؤك... ثم رماهم بالحجارة فهربوا منه، فقال لهم: تهربون مني، لو كنتم أحبائي لما فررتم من بلائي... ثم قال الشبلي: أهل المحبة شربوا بكأس الوداد فضاقت عليهم الأرض والبلاد. وعرفوا الله حق معرفته وتاهوا في عظمته... وتحيروا في قدرته وشربوا بكأس حبه، وغرقوا في بحر أنسه وتلذذوا بمناجاته، ثم أنشد ذكر المحبة يا مولاي أسكرني.

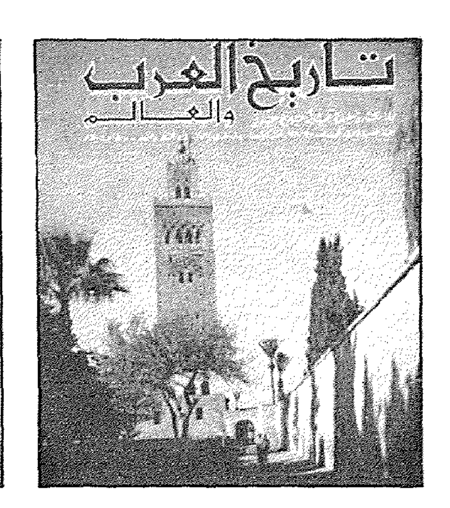
وهل رأيت محباً غير سكران.

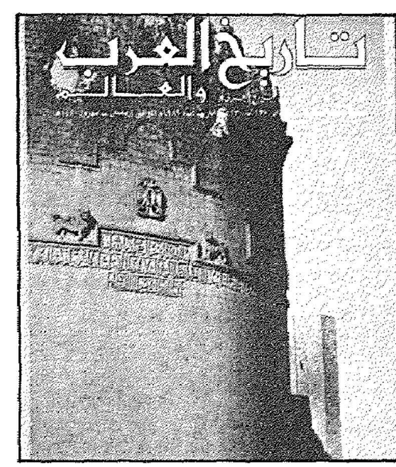
الفهرس العام

للسنة الحادية عشرة

١٩٨٩









فلسطين

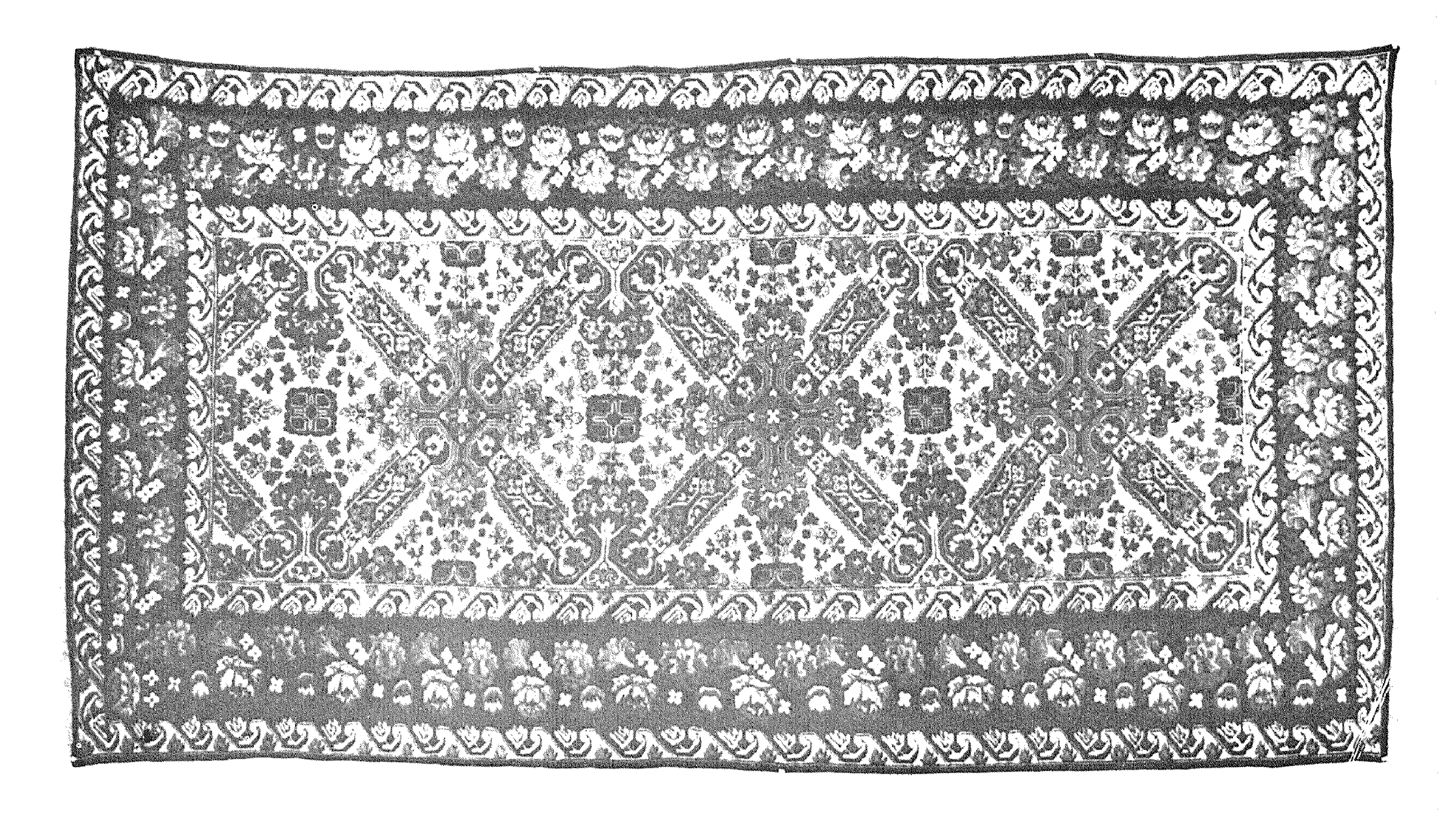
التاريخ العربي الإسلامي

حضارة عربية

وثائق ومعاهدات

متفرقات

□ سجادة «زيخور» كبيرة ـــ القوقاز ـــ القرن التاسع عشر.



احتفظ بمُجلدات السّنوات الإحدى عَشرة من مجَلة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

خمسة عَشر مجُلداً فخماً



١٥٠٠ دولار أو ما يُعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلّدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:
شارع السّادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ____________________
العنوان: ____________________
المدينة: ____________________
الامضاء: ____________________
أرفق القيمة: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية